المغني في التفسير

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْن عَبْده

د/ آلَاء رِضَا

«المُغْنِي فِي التَّفْسِيرِ»

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

مُقْتَبَسَةً مِنْ مُوسُوعَةِ التَّفْسِيرِ المَأْثُورِ

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْنُ عَبْدِهِ

د/ آلَاء رِضَا

غَفَرَ اللَّهُ لَهُمَا وَلِوَالِدَيْهِمَا وَلِمَشَايِخِهِمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ

بسم الله الرحمن الرحيم

«المُغْنِي فِي التَّفْسِيرِ»

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

سورةُ الحِجْرِ، سورةُ النَّحلِ

(المجلدُ الثالثَ عشَر)

" نُسْخَةٌ إِلِكْتِرُونِيَّةٌ، حُقُوقُهَا مَحْفُوظَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ "

تَفْسِيرُ
سُورَةِ الحِجْرِ

سُورةُ الحِجْرِ

سُمِّيَتْ هذه السُّورةُ بسُورةِ (الحِجْرِ).[1]

سورةُ الحِجْرِ مكِّيَّةٌ،[2] ونقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن أهلِ العِلمِ.[3]

من أهمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:

- تثبيتُ المؤمنينَ.

من أهمِّ الموضوعاتِ التي اشتَمَلتْ عليها السُّورةُ:

(1) سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الحِجْرِ)؛ لاشتمالِها على قِصَّتِهم، في قوله: وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ [الحجر: 80]، ولأنَّ لفظَ (الحِجْرِ) لم يُذكَرْ في غيرِها.

يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (272/1)، ((تفسير ابن عاشور)) (5/14).

وقد ورِدَتْ بعضُ الآثارِ في تسميتِها بذلك، منها ما أخرجه النَّحاسُ في ((ناسخه)) (ص: 539) وابنُ مردويه- كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (61/5)- عن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما، وكذلك ما أخرجه ابنُ مردويه- كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (61/5)- عن ابنِ الزبيرِ رضي الله عنهما.

(2) وقيل: مكِّيَّةٌ إلَّا آيةً واحدة مدنيَّة، وهي قولُه تعالى: وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ [الحجر: 87].

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (5/14)، ((الوسيط)) للواحدي (38/3)، ((تفسير الزمخشري)) (569/2).

(3) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: الماوردي، وابنُ الجوزي، والخازنُ، والفيروزابادي، والبقاعي.

يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (147/3)، ((تفسير ابن الجوزي)) (522/2)، ((تفسير الخازن)) (47/3)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (272/1)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (202/2).

1- التَّنويهُ بفَضلِ القُرآنِ ومكانتِه، وتكفُّلِ الله بحفظِه، وبيانُ سوءِ عاقبةِ الكافرينَ الذين أعرضوا عن دعوةِ الحقّ عن عنادٍ وجحودٍ.

2- ذِكرُ بعضِ الأدلَّةِ على وحدانيَّةِ الله وقُدرتِه، وما أسبَغه مِن نِعَمٍ على جميعِ خَلْقِه.

3- حكايةُ قِصَّـةِ خلقِ آدمَ عليه السـلامُ، وتكليفِ الملائكةِ أن يَسْـجدوا له، وامتثالِهم، وتكبُّرِ إبليسَ وحدَه عن ذلك، وطردِه مِن الجنَّةِ.

4- ذِكرُ بعضِ جوانبَ مِن قَصصِ أنبياءِ الله: إبراهيمَ، ولوطٍ، وشعيبٍ، وصالحٍ، عليهم الصلاةُ والسلامُ.

5- تسليةُ النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وتثبيتُه أمامَ ما يَلْقاه مِن قومِه.

سورةُ الحِجْرِ

الآيات (1–5)

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (1) رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (2) ذَرْهُمْ
يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (3) وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ
مَعْلُومٌ (4) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (5)

غريب الكلمات:

ذَرْهُمْ: أي: اترُكْهم، ودَعْهم، يُقالُ: فلانٌ يَذَرُ الشيءَ، أي: يقذِفُه؛ لقلَّةِ اعتدادِه به.

تفسير الآيات:

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (1).

الر.

تقدَّم الكلامُ عن الحُروفِ المقطَّعةِ في تفسيرِ أوَّلِ سُورةِ البَقَرةِ.

تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ.

أي: هذه الآياتُ العاليةُ المَقامِ، الرَّفيعةُ الشَّأنِ، آياتُ الكِتابِ الجامِعِ لأنواعِ الكَمالِ، وآياتُ قرآنٍ عظيمٍ واضحٍ إعجازُه للخَلقِ، مُظهِرٍ للحقائقِ بأحسَنِ بَيانٍ، وأوضَحِه.

كما قال تعالى: الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ [يوسف: 1].

وقال سُبحانه: وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ [النحل: 89].

رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (2).

أي: سيندمُ الذين كَفَروا باللَّهِ علَى ما كانوا فيه مِنَ الكفرِ، ويتمَنَّونَ لو كانوا مُسلِمينَ في الدُّنيا، مُوَحِّدينَ، مُنقادِينَ لأمرِ اللهِ تعالى، وخاضعينَ لأحكامِه.[4]

---

(4) اختُلف في الوقت الذي يودُّ فيه الذين كفروا لو كانوا مسلمين على أقوال: الأول: عند معاينة الموت في الدنيا.
الثاني: عند معاينة أهوال يوم القيامة.
الثالث: عند دخولهم النار ومعرفتهم بدخول المؤمنين الجنة.

كما قال تعالى: وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ [الأنعام: 27].

وقال سُبحانه: حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا [الأنعام: 31].

وقال عزَّ وجلَّ: وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا [الفرقان: 27].

وقال جلَّ جلالُه: وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ * وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ * أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ [الزمر: 54 – 58].

وعن صالِحِ بن أبي طَريفٍ، قال: قلتُ لأبي سعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنه: أَسَمِعتَ رسولَ اللهِ – ﷺ – يقولُ في هذه الآيةِ: رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ؟ فقال: نعم، سمعتُه يقولُ: ((يُخرِجُ اللهُ أناسًا من النَّارِ [أي: مِن المسلمينَ] بعدما يأخُذُ نِقمَتَه منهم، قال: لَمَّا أدخَلَهم اللهُ النَّارَ مع المُشرِكينَ

وعلَّق ابنُ عطية (٥/ ٢٧٢) على القول الثاني بقوله: «وهذا بيّن؛ لأنّ حُسْن حال المسلمين ظاهر فيُوَدُّ».

وعلى القول الثالث بقوله: «واحتج لهذا القول بحديث رُوي في هذا من طريق أبي موسى الأشعري، وهو أنّ الله تعالى إذا أدخل عصاة المسلمين النارَ نظر إليهم الكفار، فقالوا: أليس هؤلاء مِن المسلمين؟ فماذا أغنت عنهم: لا إله إلا الله؟ قال: فيغضب الله تعالى لقولهم، فيقول: أخرِجوا مِن النار كل مسلم.

قال رسول الله – ﷺ –: «فحينئذٍ يودُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين»».

وانتقد القولَ الأول مستندًا إلى الدلالة العقلية قائلًا: «وفيه نظر؛ إذ لا يقين للكافر حينئذٍ بحُسْن حال المسلمين».

قال المُشرِكونَ: أليس كُنتُم تَزعُمونَ في الدُّنيا أنَّكم أولياءُ؟ فما لكم معنا في النَّارِ؟! فإذا سَمِعَ اللهُ ذلك منهم أذِنَ في الشَّفاعةِ، فيتشَفَّعُ لهم الملائِكةُ والنبيُّونَ حتى يخرُجوا بإذنِ الله، فلمَّا أُخرِجوا قالوا أي: المشركونَ: يا ليتنا كُنَّا مِثلَهم فتُدرِكَنا الشَّفاعةُ فنخرُجَ مِن النَّارِ، فذلك قولُ الله جلَّ وعلا: رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ...)).[5]

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: (ما يزالُ اللهُ يشفَعُ ويُدخِلُ الجنَّةَ، ويَرحَمُ ويَشفَعُ، حتى يقولَ: من كان من المُسلمينَ فَليدخُلِ الجنَّةَ، فذاك حين يقولُ: رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ).[6]

ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (3).

---

(5) أخرجه ابن حبان (7432) واللفظ له، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (8110).
صححه شعيب الأرناؤوط في تحقيق ((صحيح ابن حبان)) (458/16).
(6) أخرجه الحاكم (3345)، والبيهقي في ((البعث والنشور)) (75).
صحح إسناده الحاكم، وذكر البيهقي أن له متابعة، وصححه الذهبي في ((التلخيص)) (384/2).
قال الترمذي: (رُوي عن سعيدِ بنِ جُبيرٍ وإبراهيمَ النخعيِّ وغيرِ واحدٍ مِن التابعينَ في تفسيرِ هذه الآيةِ: رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ قالوا: إذا أُخرج أهلُ التوحيدِ مِن النارِ، وأُدخِلوا الجنةَ، ودَّ الذين كفَروا لو كانوا مسلمينَ).
((سنن الترمذي)) (24/5).

ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ.

أي: اترُكِ الكُفَّارَ– يا محمَّدُ– يأكلُوا في هذه الدُّنيا ما هم آكِلوه، ويتمَتَّعوا بشَهَواتِها ولذَّاتِها، ويَشغَلْهم الأملُ عن الإيمانِ باللهِ تعالى وطاعتِه، والاستعدادِ للآخرة.(7)

فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ.

أي: فسوفَ يعلَمُ الكُفَّارُ أنَّهم خاسِرونَ، وأنَّ عاقِبةَ كُفرِهم عذابٌ أليمٌ مُهينٌ.

كما قال تعالى: قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ [إبراهيم: 30].

وقال عزَّ وجلَّ: وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ [محمد: 12].

وقال سُبحانه: كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ [المرسلات: 46].

وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ (4).

أي: وما أهلَكْنا أهلَ قريةٍ يستحِقُّونَ العذابَ إلَّا وكان لهلاكِهم زمنٌ محدَّدٌ مكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ، فلا نُهلِكُهم حتى يبلُغوه.

---

(7) قال الشنقيطي: (وقد تقرَّر في فنِّ المعاني وفي مبحثِ الأمرِ عندَ الأصوليِّينَ أنَّ من المعاني الَّتي تأتي لها صيغةُ افْعَل: التَّهديدَ، كما في الآيةِ المذكورةِ.

وقال بعضُ العلماءِ: هذه الآيةُ منسوخةٌ بآياتِ السَّيفِ، والعلمُ عندَ اللَّه تعالَى).

((أضواء البيان)) (2/253).

مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (5).

أي: لا يتقدَّمُ هلاكُ أمَّةٍ قبلَ الوَقتِ الذي قدَّرَهُ اللهُ لهلاكِها، ولا يستأخِرُ فيتجاوَزُ الوقتَ المحدَّدَ له.[8]

كما قال سُبحانه: لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ [يونس: 49].

(8) قال ابن كثير: (وهذا تنبيهٌ لأهل مكَّة، وإرشادٌ لهم إلى الإقلاعِ عمَّا هم فيه من الشِّركِ والعنادِ والإلحاد، الذي يستحِقُّونَ به الهلاكَ).

((تفسير ابن كثير)) (4/526-527).

سورةُ الحِجْرِ

الآيات (6–9)

وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (6) لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ
الصَّادِقِينَ (7) مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ (8) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ
وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (9)

غريب الكلمات:

مُنْظَرِينَ: أي: مُؤخَّرينَ، والإنظارُ: التَّأخيرُ.

تفسير الآيات:

وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (6).

أي: وقال مُشرِكو قُريشٍ لمحمَّدٍ- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- تهكُّمًا به: يا مَن يزعُمُ أنَّ اللهَ نزَّل عليه القرآنَ، إنَّك لَمجنونٌ في دَعوتِك لنا إلى اتِّباعِك، وتَرْكِ عبادةِ الأصنامِ التي وجَدْنا عليها آباءَنا.

لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (7).

أي: وقالوا له: هلَّا تُحضِرُ إلينا الملائكةَ؛ ليَشهَدوا لك على ما تَقولُ، إن كنتَ من الصَّادِقينَ في أنَّك رَسولٌ مِن عندِ اللهِ حقًّا، فإنْ لم تأتِنا بالملائكةِ، فلسْتَ بصادقٍ في دَعواك.

كما قال تعالى: وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ [الأنعام: 8].

وقال سُبحانَه: وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا [الفرقان: 21].

وقال تعالى حاكيًا قولَ فِرعونَ عن موسى عليه السَّلامُ: فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ [الزخرف: 53].

مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ (8).

مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ.

أي: ما نُنَزِّلُ الملائِكةَ إلَّا بما يحِقُّ ويجِبُ -كالوحيِ أو العذابِ، وغيرِ ذلك- تنزيلًا مُلتبِسًا بالحِكمةِ والمصلحةِ، لا على حسَبِ اقتراحِ الكُفَّارِ.[9]

وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ.

أي: ولو نزَّلنا الملائِكةَ على الكُفَّارِ -كما اقترَحوا- فرَأَوا الملائِكةَ عِيانًا ولم يُؤمِنوا؛ فلن يُمهِلَهم اللهُ، وسيُعَذِّبُهم في الحالِ.[10]

---

(9) قال أبو حيان: (الحَقُّ هنا: العذابُ، قاله الحسَنُ، أو الرِّسالةُ، قاله مجاهدٌ، أو قبضُ الأرواحِ عندَ الموتِ، قاله ابنُ السائبِ، أو القرآنُ، ذكَره الماوردي.

وقال الزمخشري: إلَّا تنزُّلًا مُلتبِسًا بالحكمةِ والمصلحةِ، ولا حكمةَ في أن تأتيَكم عِيانًا تشاهِدونَهم، ويشهدونَ لكم بصدقِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلم؛ لأنَّكم حينئذٍ مصَدِّقونَ عن اضطرارٍ.

وقال ابنُ عطيةَ: والظاهرُ أنَّ معناها: كما يجِبُ ويحِقُّ مِن الوحيِ والمنافعِ التي أرادَها الله تعالى لعبادِه، لا على اقتراحِ كافرٍ، ولا باختيارِ مُعترِضٍ).

((تفسير أبي حيان)) (6/467).

قال السمعاني: (الحقُّ الَّذي تنزِلُ به الملائكةُ هو الوحيُ، وقبضُ أرواحِ العبادِ، وإهلاكُ الكفَّارِ، وكتابة الأعمالِ، وما أشبهَ ذلك).

((تفسير السمعاني)) (3/130).

(10) وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ جريرٍ، وابنُ جُزي، والخازنُ، والسعدي.

يُنظر: المصادر السابقة.

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: السُّدِّيُّ.

يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (7/2258).

وقيل: المعنى: ولو نزَّلنا الملائكةَ على الكفَّارِ بالعذابِ، فلن يُؤخِّرَ الله عنهم العذابَ حينَ نزولِه، ولن تُقبَلَ لهم توبةٌ.

كما قال تعالى: وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ [الأنعام: 8].

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (9).

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ.

أي: إنَّا نحنُ نزَّلْنا القرآنَ الذي فيه الذِّكرى والموعِظةُ والشَّرَفُ.

وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ.

وإنَّا له لحافِظونَ في حالِ إنزالِه مِن استِراقِ كلِّ شَيطانٍ رَجيمٍ، وبعدَ إنزالِه بحِفظِ ألفاظِه ومعانيه من الزِّيادةِ والنَّقصِ والتَّحريفِ.

كما قال تعالى: وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ [فصلت: 41-42].

وقال سُبحانه: بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ [البروج: 21-22].

وممن اختار هذا المعنى: القرطبي، وابنُ عاشور، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (10/4-5)، ((تفسير ابن عاشور)) (14/19)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (2/255).

سورةُ الحِجْرِ

الآيات (10–15)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (10) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (11) كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (12) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (13) وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (14) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (15)

غريب الكلمات:

شِيَعِ: أي: أُمَم وفِرَق، وأصلُ (شيع): يدُلُّ على مُعاضَدةٍ ومُساعَفةٍ.

نَسْلُكُهُ: أي: نُدخِلُه، والسَّلْكُ: إدخالُ الشَّيءِ في الشَّيءِ، وأصلُ (سلك): يدلُّ على نفاذِ شَيءٍ في شَيءٍ.

يَعْرُجُونَ: أي: يَصعَدونَ، وأصلُ (عرج): يدلُّ على سُمُوٍّ وارتِقاءٍ.

سُكِّرَتْ: أي: سُدَّتْ، ومُنِعَت النَّظَرَ، وأصلُه مِنَ السَّكْرِ الذي هو سدُّ الشَّقِّ؛ لئلَّا ينفجرَ الماءُ.

تفسير الآيات:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (10).

أي: ولقد أرسَلْنا مِن قَبلِك- يا مُحمَّدُ- رسُلًا في الأُمَمِ الماضيةِ.

كما قال تعالى: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ [الروم: 47].

وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (11).

أي: وما أتَى تلك الأُمَمَ الماضيةَ مِن رَسولٍ أرسَله اللهُ إليهم؛ لدَعوتِهم إلى الحَقِّ، إلَّا سخِروا به وكَذَّبوه.

كما قال تعالى: وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ [الأنعام: 10].

وقال سُبحانه: يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ [يس: 30].

كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (12).

كذلك[11] نُدخِلُ القرآنَ قلوبَ المجرمينَ، فهم يسمعونَه ويفهمونَه ويعلمونَ أنَّه حقٌّ، وأنَّه يفوقُ كلَّ كلامٍ، وأنَّهم عاجزونَ عن معارضتِه، مع أنَّه بلسانِهم، ومع ذلك يُكذِّبونَ به.[12]

---

(11) قال الشوكاني: (مِثْلُ ذلك الَّذي سَلَكْناه في قلوبِ أولئك المستهزئينَ برسلِهم نَسْلُكُهُ أي: الذِّكرُ في قلوبِ المجرمينَ).

((تفسير الشوكاني)) (148/3).

ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (573/2).

وقال الرازي: (كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ أي: هكذا نَسْلُكُ القرآنَ في قلوبِ المجرمينَ).

((تفسير الرازي)) (125/19).

ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (24/14).

(12) وممَّن اختار هذا المعنى المذكورَ أنَّ الضميرَ في قولِه تعالى: نَسْلُكُهُ عائدٌ على القرآنِ: الزمخشري، والرازي، والغرناطي، وابنُ القيم، والشوكاني، والبقاعي، وابنُ عاشور.

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (573/2)، ((تفسير الرازي)) (125/19)، ((ملاك التأويل)) للغرناطي (290/2)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: 62)، ((تفسير الشوكاني)) (148/3)، ((نظم الدرر)) (27/11)، ((تفسير ابن عاشور)) (24/14).

قال ابن عاشور: (أي: هكذا نولجُ القرآنَ في عُقولِ المُشرِكينَ؛ فإنَّهم يَسمَعونه ويفهمونَه؛ إذ هو من كلامِهم، ويُدرِكونَ خصائِصَه).

((تفسير ابن عاشور)) (24/14).

وممَّن اختار أن الضمير في قولِه تعالى: نَسْلُكُهُ عائدٌ على الاستهزاءِ والتكذيبِ: ابنُ جريرٍ، والبغوي، وابنُ الجوزي، والقرطبي، وابنُ كثير، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (20/14)، ((تفسير البغوي)) (51/3)، ((تفسير ابن الجوزي)) (525/2)، ((تفسير القرطبي)) (7/10)، ((تفسير ابن كثير)) (527/4)، ((تفسير السعدي)) (ص: 429).

قال النحاسُ: (هذا القولُ [أي: نسلكُ التكذيبَ] هو الذي عليه أهلُ التَّفسيرِ وأهلُ اللُّغةِ، إلَّا مَن شَذَّ منهم).

((معاني القرآن)) (12/4).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وأنسٌ، وابنُ جريجٍ، وقتادةُ، والحسنُ، وابنُ زيدٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (2258/7)، ((تفسير ابن جرير)) (20/14)، ((تفسير ابن الجوزي)) (525/2).

قال ابنُ القيِّمِ بعدَ أن ذكَر أقوالَ السلفِ في معنى الآيةِ: (وهذه الأقوالُ ترجِعُ إلى شيءٍ واحدٍ، والتكذيبُ والاستهزاءُ والشِّركُ كُلُّ ذلك فِعلُهم حقيقةً، وقد أخبر أنَّه سبحانه هو الذي سلَكَه في قلوبِهم، وعندي في هذه الأقوال شيءٌ؛ فإنَّ الظاهر أنَّ الضميرَ في قولِه لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ هو الضمير في قوله سَلَكْنَاهُ فلا يصِحُّ أن يكون المعنى: لا يؤمنون بالشِّركِ والتكذيبِ والاستهزاءِ، فلا تصِحُّ تلك الأقوالُ إلا باختلافِ مفسِّرِ الضميرين، والظاهِرُ اتحادُه؛ فالذين لا يؤمنون به هو الذي سلكَه في

كما قال تعالى: فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ [الصف: 5].

لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (13).

لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ.

أي: لا يُؤمنونَ بالقُرآنِ الذي أنزَلْناه على محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.(13)

قلوبِهم، وهو القرآنُ، فإن قيل: فما معنى سَلْكِه إياه في قلوبِهم وهم ينكرونَه؟ قيل: سَلْكُه في قلوبِهم بهذه الحال، أي: سلكناه غيرَ مؤمنين به، فدخل في قلوبِهم مُكذَّبًا به، كما دخَل في قلوبِ المؤمنينَ مُصَـدَّقًا به، وهذا مرادُ مَن قال: إنَّ الذي سـلَكه في قلوبِهم هو التكذيبُ والضَّلالُ، ولكن فسَّر الآيةَ بالمعنى؛ فإنَّه إذا دخَل في قلوبِهم مكذِّبِينَ به، فقد دخَل التكذيبُ والضلالُ في قلوبِهم، فإن قيل: فما معنى إدخالِه في قلوبِهم وهم لا يؤمنون به؟ قيل: لتقومَ عليهم بذلك حجَّةُ الله، فدخَل في قلوبِهم، وعلِموا أنَّه حقٌّ، وكذَّبوا به فلم يدخُلْ في قلوبِهم دخولَ مُصَـدَّقٍ به مؤمَنٍ به مَرضِـيٍّ به، وتكذيبُهم به بعد دخولِه في قلوبِهم أعظمُ كُفرًا من تكذيبِهم به قبلَ أن يدخُلَ في قلوبِهم؛ فإنَّ المكذِّبَ بالحَقِّ بعدَ معرفتِه له، شـرٌّ مِن المكذِّبِ به ولم يعرِفْه، فتأمَّلْه؛ فإنَّه من فِقهِ التفسيرِ، واللهُ الموفِّقُ للصواب).

((شفاء العليل)) (ص: 62).

(13) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (20/14)، ((تفسير البغوي)) (51/3)، ((تفسير الشوكاني)) (148/3).

قال أبو حيان: (ولَا يُؤْمِنُونَ إن كان إخبارًا مُستأنفًا فهو من العامِّ المرادِ به الخصوصُ فيمن ختم عليه؛ إذ قد آمَنَ عالَمٌ ممن كذَّب الرَّسولَ).

((تفسير أبي حيان)) (469/6).

وقال الرازي: (الضَّميرُ في قولِه: لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ عائدٌ إلى القرآنِ بالإجماع).

((تفسير الرازي)) (125/19).

وقال العكبري: (والهاءُ في بِهِ للرَّسـولِ، أو للقرآنِ، وقيلَ: للاسـتهزاءِ أيضًـا، والمعنَى: لا يُؤمنونَ بسـببِ الاسـتهزاءِ، فحُذِف المضافُ).

((التبيان في إعراب القرآن)) (777/2).

كما قال تعالى: وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ * كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ [الشعراء: 198 – 201].

وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ.

أي: وقد مضتْ عادةُ اللهِ بإهلاكِ الكفَّارِ مِن الأُممِ الماضيةِ ممن كَذَّبَ الرُّسلَ.(14)

كما قال تعالى: كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ [الأنفال: 52].

---

(14) وممن ذهب إلى هذا المعنى المذكور: البغوي، والقرطبي، وابن كثير، والسعدي.
يُنظر المصادر السابقة.
وممن قال بنحو هذا القول من السلف: قتادة.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (22/14).
وقيل: المعنى: وقد مَضَت سنَّةُ الأوَّلينَ بتكذيبِ رُسُلِ الله، وهؤلاء المُشركونَ يقتفونَ آثارَهم.
وممن اختار هذا المعنى: الزجاج، والنحاس، والواحدي.
يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (174/3)، ((معاني القرآن)) للنحاس (13/4)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 589).
قال ابنُ جريرٍ: (وقولُه: وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ يقول تعالى ذِكرُه: لا يؤمِنُ بهذا القرآن قومُك الذين سلكتُ في قلوبِهم التكذيب حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ أخذًا منهم سنَّةَ أسلافِهم من المشركين قبلَهم مِن قومِ عادٍ وثمودَ وضُرَبائهم من الأمم التي كذَّبت رسُلَها، فلم تؤمِنْ بما جاءها من عند اللهِ حتى حلَّ بها سخَطُ الله فهلَكَت).
((تفسير ابن جرير)) (22/14).

وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (14).

أي: ولو فَتَحْنا على هؤلاءِ الكُفَّارِ بابًا مِن السَّماءِ، فجعلوا يصعَدُونَ في وضَحِ النَّهارِ في ذلك البابِ، ويُشاهِدونَ ما في السَّماءِ بأعيُنِهم مِن مَلَكوتِ اللهِ تعالى وقُدرتِه وسُلطانِه ومَلائكتِه.

لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (15).

لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا.

أي: لجَحَدوا أن يكونوا رأَوا شَيئًا، فقالوا: إنَّما سُدَّتْ أبصارُنا بالسِّحرِ، ومُنِعَت من النَّظَرِ!

بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ.

أي: بل نحن قومٌ سَحَرَنا محمَّدٌ، فما عُدْنا نعقِلُ الأشياءَ ونراها كما يجِبُ!

كما قال تعالى: وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ [الأنعام: 7].

وقال سُبحانه: وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ * وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ [القمر: 2- 3].

سورةُ الحِجْرِ

الآيات (16-25)

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (16) وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ
(17) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ (18) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا
رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (19) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ
بِرَازِقِينَ (20) وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (21) وَأَرْسَلْنَا
الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (22) وَإِنَّا لَنَحْنُ
نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (23) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ
(24) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (25)

غريب الكلمات:

بُرُوجًا: أي: مَنازِلَ للشَّمسِ والقَمَرِ؛ مِن قَولِهم: بَرَجَ الشَّيءُ: إذا ظَهَرَ وارتفَعَ، وسُمِّيت بذلك؛ لظُهورِها ووُضوحِها.

رَجِيمٍ: أي: مَطرودٍ عن الخَيراتِ، والرَّجمُ: اللَّعنُ والطَّردُ والإبعادُ، وأصلُ الرَّجمِ: الرَّميُ بالحِجارةِ.

اسْتَرَقَ: أي: تسَمَّعَ مُستخفيًا، وأصلُ (سرق): يدُلُّ على أخذِ شَيءٍ في خَفاءٍ وسِترٍ.

شِهَابٌ: أي: كَوكَبٌ مضيءٌ، أو: شُعلةٌ ساطِعةٌ مِن النَّارِ، والشِّهابُ كلُّ ذي نورٍ، وأصلُ (شهب): يدلُّ على بياضٍ مُختَلِطٍ بسَوادٍ.

رَوَاسِيَ: أي: جبالًا ثوابتَ، وكلُّ شيءٍ ثَبَت فقد رسَا، وأصلُه: يدلُّ على ثباتٍ.

مَوْزُونٍ: أي: مُقَدَّرٍ مَعلومٍ مِقدارُه، لا يُجاوِزُ ما قدَّره اللهُ عليه، والوَزْنُ: مَعرِفةُ قَدرِ الشَّيءِ، وأصل (وزن): يدُلُّ على تَعديلٍ واستِقامةٍ.

لَوَاقِحَ: أي: تُلَقِّحُ السَّحابَ بالماءِ، وأصلُ (لقح): يدلُّ على إحبالِ ذكَرٍ لأُنثَى.

تفسير الآيات:

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (16).

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا.

أي: ولقد خَلَقْنا في السَّماءِ الدُّنيا نُجومًا بمثابةِ مَنازِلَ للشَّمسِ والقَمرِ في مَسيرِهما.(15)

كما قال تعالى: تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا [الفرقان: 61].

---

(15) قال الخازن: (هي بروجُ الفَلَك الاثنا عشر بُرجًا، وهي: الحمَل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجَدْي، والدلو، والحوت.

وهذه البروجُ مَقسومةٌ على ثمانيةٍ وعشرين منزِلًا، لكلِّ برجٍ منزلان وثلثُ منزل...

وهذه البروج مقسومةٌ على ثلاثمئة وستين درجة، لكلِّ برج منها ثلاثونَ درجةً تقطعُها الشَّمسُ في كلِّ سَنةٍ مرَّةً، وبها تتِمُّ دورة الفَلَك، ويقطَعُها القمرُ في ثمانيةٍ وعشرينَ يومًا).

((تفسير الخازن)) (3/50).

ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (10/9).

وقال ابن عاشور: (أُطلِق البرجُ على بقعةٍ معينةٍ مِن سمْتِ طائفةٍ مِن النجومِ غيرِ السيارة، وتسمَّى النجومَ الثوابتَ متجمع بعضُها بقربِ بعضٍ على أبعادٍ بينَها، لا تتغيرُ فيما يشاهدُ مِن الجوِّ، فتلك الطائفةُ تكونُ بشكلٍ واحدٍ يشابهُ نُقطًا لو خُطِّطتْ بينها خطوطٌ لخرجَ منها شبهُ صورةِ حيوانٍ أو آلةٍ، سمُّوا باسمِها تلك النجومَ المشابهةَ لهيئتِها، وهي واقعةٌ في خطِّ سيرِ الشمسِ...

تخيَّلوا أنَّها منازلُ للشمسِ؛ لأنَّهم وقَّتوا بجهتِها سمْتَ موقعِ الشمسِ مِن قبةِ الجوِّ نهارًا فيما يخيَّلُ للناظرِ أن الشمسَ تسيرُ في شبهِ قوسِ الدائرةِ، وجعلوها اثني عشرَ مكانًا بعددِ شهورِ السنةِ الشمسيةِ...

فبما كان لها مِن النظامِ تسنَّى أن تُجعلَ علاماتٍ لمواقيتِ حلولِ الفصولِ الأربعةِ، وحلولِ الأشهرِ الاثني عشرَ، فهم ضبطوا لتلك العلاماتِ حدودًا وهميةً عيَّنوا مكانَها في الليلِ مِن جهةِ موقعِ الشمسِ في النهارِ...

وللتمييزِ بينَ تلك الطوائفِ مِن النجومِ جعلوا لها أسماءَ الأشياءِ التي شبَّهوها بها وأضافوا البرجَ إليها).

((تفسير ابن عاشور)) (14/28، 29).

وقال سُبحانه: وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ [البروج: 1].

وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ.

أي: وزيَّنَّا السَّماءَ الدُّنيا بالنُّجومِ لِمَن يُبصِرُها، ولِمَن ينظُرُ إليها فيتأمَّلُها ويعتبِرُ، ويستدِلُّ بها على قُدرةِ خالِقِها ووحدانيَّتِه سُبحانَه.

كما قال تعالى: إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ [الصافات: 6].

وقال سُبحانه: أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ [ق: 6].

وقال عزَّ وجلَّ: وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ [الملك: 5].

وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (17).

أي: وحَرَسْنا السَّماءَ الدُّنيا مِن كُلِّ شَيطانٍ ذَميمٍ محقَّرٍ مَطرودٍ مِن رَحمةِ الله، لئلَّا يَسْتَمعوا إلى الملأِ الأعلَى.

كما قال تعالى: إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ * لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ [الصافات: 6 – 10].

وقال سُبحانه: وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا [الجن: 8– 9].

﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ (18)﴾.

أي: لكن[16] قد يتقدَّم بعضُ مردتِهم فيختطفُ بخُفْيةٍ خطفةً يسيرةً ممَّا يسمعُه مِن الملائكةِ مِن الأخبارِ والحوادثِ مما سوى الوحيِ، فيلحقُه شهابٌ مِن النَّارِ مضيءٌ ظاهرٌ، فيقتلُه أو يُخبلُه أو يُحرِقُه.[17]

---

(16) ممَّن ذهبَ إلى أنَّ الاستثناءَ هنا مُنقَطِعٌ بمعنى لكنْ: ابن جرير، والقرطبي.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (31/14)، ((تفسير القرطبي)) (10/10).
قال القرطبي: (وقيل: هو متَّصِلٌ، أي: إلَّا ممَّن استرَق السمعَ، أي: حَفِظْنا السماءَ من الشياطينِ أن تسمعَ شيئًا من الوحيِ وغيرِه، إلَّا من استرق السَّمعَ؛ فإنَّا لم نحفَظْها منه أن تسمعَ الخبَرَ من أخبار السَّماءِ سوى الوحي).
((تفسير القرطبي)) (10/10).

(17) قال ابنُ الجوزي: (شِهَابٌ مُبِينٌ قال ابنُ قُتيبةَ: كوكبٌ مُضيءٌ.
وقيل: مُبِينٌ بمعنى: ظاهِر يراه أهلُ الأرض.
وإنما يَسترِقُ الشيطانُ ما يكونُ مِن أخبارِ الأرض، فأمَّا وحيُ الله عزَّ وجلَّ فقد صانه عنهم).
((تفسير ابن الجوزي)) (527/2).
ممن اختار أنَّ مُبِينٌ بمعنى: ظاهر: الواحدي، والزمخشري، والبيضاوي، وأبو حيان، والشوكاني، والقاسمي، وابنُ عاشور.
يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (41/3)، ((تفسير الزمخشري)) (574/2)، ((تفسير البيضاوي)) (208/3)، ((تفسير أبي حيان)) (472/6)، ((تفسير الشوكاني)) (151/3)، ((تفسير القاسمي)) (332/6)، ((تفسير ابن عاشور)) (31/14).
وممن اختار أن مُبِينٌ بمعنى مضيء: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ أبي زمنين، والرسعني، والعليمي.
يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (426/2)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (382/2)، ((تفسير الرسعني)) (592/3)، ((تفسير العليمي)) (545/3).
وذهَب ابنُ جرير إلى أنَّ معنى مُبِينٌ أي: يبينُ أثرُه فيه إمَّا بإخبالِه وإفسادِه، وإما بإحراقِهِ.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (31/14).
وقال السعدي: (فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ أي: بيِّنٌ منيرٌ يقتلُه أو يخبلُه).
((تفسير السعدي)) (ص: 430).

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه- يَبلُغُ به النبيَّ - ﷺ - قال: ((إذا قضَى اللهُ الأمرَ في السَّماءِ، ضَرَبَت الملائكةُ بأجنِحَتِها خُضعانًا لِقَولِه، كالسِّلسلةِ على صفوانٍ،[18] فإذا فُزِّعَ[19] عن قُلوبِهم قالوا: ماذا قال ربُّكم؟ قالوا للذي قال: الحقَّ، وهو العليُّ الكبيرُ، فيَسمَعُها مُستَرِقو السَّمعِ، ومُستَرِقو السَّمعِ هكذا؛ واحِدٌ فَوقَ آخَرَ- ووصَفَ سُفيانُ بِيَدِه، وفرَّجَ بين أصابعِ يدِه اليُمنى، نَصَبَها بعضَها فوقَ بَعضٍ- فرُبَّما أدرَك الشِّهابُ المُستَمِعَ قبلَ أن يرمِيَ بها إلى صاحِبِه، فيُحرِقُه، وربَّما لم يُدرِكْه حتى يرميَ بها إلى الذي يليه، إلى الذي هو أسفَلُ منه، حتى يُلقُوها إلى الأرضِ، فتُلقَى على فَمِ السَّاحِرِ، فيَكذِبُ

قال الخازن: (قالوا: إنَّه ليس المرادُ أنَّهم يُرمَون بأجرامِ الكواكبِ، بل يجوزُ أن تنفصِلَ مِن الكواكبِ شعلةٌ، وتُرمَى الشياطينُ بتلك الشعلةِ، وهي الشُّهبُ، ومثلُها كمثلِ قبسٍ يُؤخذُ مِن النارِ، وهي على حالِها).

((تفسير الخازن)) (319/4).

وقال القرطبي: (واختُلِف في الشِّهابِ هل يقتلُ أم لا.

فقالَ ابنُ عبَّاسٍ: الشِّهابُ يجرحُ ويحرقُ ويُخْبِلُ ولا يقتلُ.

وقالَ الحسنُ وطائفةٌ: يقتلُ).

((تفسير القرطبي)) (11/10).

قال الرسعني: (وعندي: أنَّه لا تنافِيَ بينَ القولينِ؛ فإنَّه عذابٌ يُرمَون به؛ فمِنهم مَن يستأصلُه ويُهلكُه، ومنهم مَن يُعذِّبُه ولا يُهلكُه بالكليَّة).

((تفسير الرسعني)) (592/3).

(18) كالسِّلسلة على صَفوانٍ: أي: القَولُ المَسموعُ يُشبِهُ صَوتَ وَقْعِ السِّلسلةِ على (صفوانٍ): وهو الحجَرُ الأملَسُ.

يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (192/7).

(19) فُزِّعَ: أي: أُزيلَ الخَوفُ.

يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (192/7).

معها مائةَ كَذْبةٍ، فيُصدَّقُ، فيقولونَ: ألَمْ يُخبِرْنا يومَ كذا وكذا يكونُ كذا وكذا، فوَجَدْناه حقًّا؟! للكَلِمةِ التي سُمِعَت من السَّماءِ)).[20]

وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (19).

وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا.

أي: والأرضَ بَسَطناها، ووسَّعْناها سَعةً تتمَكَّنُ المخلوقاتُ فيها على الامتدادِ بأرجائِها، والتناوُلِ مِن أرزاقِها، والسُّكونِ في نواحيها.

كما قال تعالى: الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا [البقرة: 22].

وقال سُبحانه: أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا [النبأ: 6].

وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ.

أي: وجعَلْنا في الأرضِ جِبالًا ثابتةً تُمسِكُ الأرضَ؛ لِئلَّا تَضطَرِبَ بأهلها.

كما قال تعالى: وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ [الأنبياء: 31].

(20) رواه البخاري (4701).

وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ.

وأوْجَدْنا فِي الأرضِ[21] مِنْ كُلِّ شيءٍ مُقَدَّرٍ بقَدْرٍ مَعْلومٍ، بقصدٍ وإرادةٍ.[22]

---

(21) الأكثرونَ على أنَّ المرادَ بقولِه: وَأَنْبَتْنَا فِيهَا أي: في الأرضِ.

يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (528/2).

وقيل: المرادُ به الجبالُ، وممن قال به الفرَّاءُ، والسمرقندي، والواحدي.

يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (86/2)، ((تفسير السمرقندي)) (253/2)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 590).

وممن جمع بين المعنيين السابقين البقاعي والشربيني.

قال البقاعي: (وَأَنْبَتْنَا فِيهَا أي: الأرضِ، ولا سيَّما الجبال).

((نظم الدرر)) (34/11).

وقال الشربيني: (قولُه تعالى: وَأَنْبَتْنَا فِيهَا واختُلِف في عودِ ضميرِ فيها، فقيل: يعودُ إلى الأرضِ؛ لأنَّ أنواعَ النباتِ المنتفَع به يكونُ في الأرضِ، وقيل: إلى الجبالِ؛ لأنَّها أقربُ مذكورٍ، ولقوله تعالى: مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ وإنَّما يُوزَنُ ما يتولَّدُ مِن الجبالِ، والأَولَى عودُه لهما).

((تفسير الشربيني)) (156/2).

(22) وممن اختار هذا المعنَى المذكورَ: ابنُ جريرٍ، والسمعاني، وابنُ عطيةَ- ونسَبه للجمهورِ-، وابنُ جزي، والشوكاني.

يُنظر: المصادر السابقة.

وممن قال مِن السلفِ بنحوِ القولِ المذكورِ: ابنُ عبَّاسٍ، وعكرمةُ- في روايةٍ عنه-، وسعيدُ بنُ جبيرٍ، والحكمُ بنُ عُتيبةَ، ومجاهدٌ، وأبو صالحٍ، وقتادةُ، والضحَّاكُ.

قال الزجاجُ: (ومعنى مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ أي: مِن كلِّ شيءٍ مقدورٍ جرَى على وزنٍ مِنْ قَدَرِ اللَّه عزَّ وجلَّ، لا يُجاوِزُ ما قدَّره الله عليه، لا يستطيع خلقَ زيادةٍ فيه ولا نقصانًا).

((معاني القرآن وإعرابه)) (176/3).

وقال الواحدي: (اختلفوا في معنى مَوْزُونٍ هاهنا، فذهب الأكثرون إلى أنَّ معناه: المحصَّلُ المعلومُ المقدورُ، ذلك أنَّ الوزنَ إنما يُستعمَلُ لبيانِ المقدارِ والإشرافِ على حقيقتِه، فوُصِفَ المعلومُ بالموزونِ وإن لم يكن هناك وزنٌ؛ لأنَّ أوكدَ ما يتحصَّلُ به معرفةُ المقاديرِ الوزنُ...

وهذا معنى قولِ ابنِ عباسٍ وعكرمةَ وسعيدِ بنِ جبيرٍ، والحكمِ ومجاهدٍ...

وهذا القولُ اختيارُ أبي عبيدةَ والزجَّاجِ وأبي بكر [ابنِ الأنباري]...

ويشهدُ لهذا التأويل قولُه: وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ [الرعد: 8] وهذا عامٌّ في كلِّ ما خلَقه اللهُ تعالى على وجهِ الأرضِ– ما ليس من جنسِ الأرضِ– مما يكونُ في المعادن، وذلك للَفظِ الإنبات؛ لأنَّه إنما يُستعمَلُ فيما ينبُتُ من الأرض، ويُستعمَلُ في الحيوانات أيضًا؛ قال الله تعالى: وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا [آل عمران: 37] ويُقال: الرجلُ يَنبُتُ الجاريةَ، أي: يغذوها، ويُحسِنُ القيامَ عليها. حكاه الليثُ، فأمَّا الجواهرُ فقد دخلت تحتَ قولِه: وَالْأَرْضَ ولا تدخلُ في الإنباتِ.

وذهَب آخرون في قوله: مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ إلى حقيقةِ الوزنِ، وقال عطاءٌ: يريدُ الثِّمارَ ممَّا يُكالُ أو يُوزنُ.

وقال الكلبي: وَأَنْبَتْنَا فِيهَا في الجبالِ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ من الذهَبِ والفِضَّةِ والنُّحاسِ والحديدِ، والرصاصِ والكحلِ والزرنيخِ، وكلِّ شيء يُوزن وزنًا،...

قال أبو بكر [ابن الأنباري]: والقولُ الأولُ أَثبتُ؛ لأنَّه يَحمِلُ الآيةَ فيه على العمومِ، والقول الثاني يوجِبُ اختصاصًا لم يأتِ به برهانٌ، على أنَّه على بُعدِه غيرُ خارجٍ عن الصوابِ.

والله أعلم).

((البسيط)) (12/568 – 571).

ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (2/528)، ((تفسير الرسعني)) (3/595).

وممن قال: إنَّ المرادَ ما أنبتَ في الأرضِ مِن أنواعِ النباتِ والزُّروعِ والثمارِ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والخازنُ، وابنُ كثيرٍ، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (2/426)، ((تفسير الخازن)) (3/52)، ((تفسير ابن كثير)) (4/529)، ((تفسير السعدي)) (ص: 430).

وممن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، وعطاءٌ.

يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (12/570)، ((الوسيط)) للواحدي (3/42).

وقيل: المرادُ: الشيءُ الذي يُوزَنُ كالذهبِ، والفضةِ، والرصاصِ، والحديدِ، ونحوِ ذلك.

وممن قال به الفراءُ، والواحدي.

يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (2/86)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 590).

وممن قال به مِن السلفِ: الحسنُ، وعكرمةُ– في روايةٍ–، وابنُ زيدٍ، وابنُ السائبِ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (14/36)، ((تفسير ابن الجوزي)) (2/528).

قال الرسعني عن هذا القولِ: (وهو يجيءُ على ردِّه الضميرَ إلى الجبالِ).

((تفسير الرسعني)) (3/595).

وممن جمع بين المعنيين السابقين البقاعي والشربيني.

قال البقاعي: (مَوْزُونٍ أي: مقدَّرٍ على مقتضَى الحكمةِ؛ من المعادنِ والنباتِ).

((نظم الدرر)) (11/35).

وقال الشربيني: (والأولَى: أنَّه جميعُ ما ينبتُ في الأرضِ والجبالِ؛ لأنَّ ذلك نوعانِ: أحدُهما يُستخرَجُ مِن المعادنِ، وجميعُ ذلك موزونٌ.

كما قال تعالى: صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ [النمل: 88].

وقال سُبحانه: الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ [السجدة: 7].

وقال عزَّ وجلَّ: وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ [الرعد: 8].

وقال جلَّ جلالُه: وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ [ق: 7].

وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (20).

وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ.

أي: وهيَّأْنا لكم في الأرضِ- أيُّها النَّاسُ- ما تعيشونَ به مِن المطاعِمِ والمَشارِبِ، ويسَّرْنا لكم الحِرَفَ، وأنواعَ المكاسِبِ.

والثاني: النباتُ فبعضُه موزونٌ، وبعضُه بالكيلِ، وهو يرجعُ إلى الوزنِ؛ لأنَّ الصاعَ والمدَّ مقدرانِ بالوزنِ).
((تفسير الشربيني)) (2/156).

وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ.

أي: وجعَلْنا لكم الأولادَ والعَبيدَ والدوابَّ والأنعامَ التي نرزُقُها نحن لا أنتم.(23)

كما قال تعالى: وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً [النحل: 72].

وقال سُبحانه: وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ [النحل: 5 – 8].

---

(23) وممَّن اختار هذا المعنى المذكور: ابنُ جرير، والواحدي، وابنُ كثير، والسعدي.

يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المعنى: وجعَلْنا في الأرضِ معايشَ لكم ولِمَن لستُم له بمُطعِمينَ من الدوابِّ والوحوشِ والطيورِ.

وممن اختار هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ قتيبة، والسمرقندي، وابنُ عاشور.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (427/2)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: 236)، ((تفسير السمرقندي)) (253/2)، ((تفسير ابن عاشور)) (35/14).

قال النحاسُ: (قال تعالى: وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ قال مجاهدٌ: يعني الدوابَّ والأنعامَ.

وقال غيرُه: يعني المماليكَ والدوابَّ.

قال أبو جعفر [النحاس]: وهذا أولَى؛ لأنَّ «مَن» لا تكونُ لما لا يعقلُ إلَّا أنْ يختلِطَ معه مَن يعقِلُ، والمعنَى: وجعَلْنا لكم المماليكَ والدوابَّ والأنعامَ، ويجوزُ أن يكونَ المعنى: أعَشْناكم، وأعَشْنا مَن لستُم له برازقينَ).

((معاني القرآن)) (18/4).

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (21).

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ.

أي: وما مِن شَيءٍ- مِن جميعِ الأرزاقِ، وأصنافِ الأقدارِ، مِن الأمطارِ وغيرِها- إلَّا عندَ اللهِ وَحدَه خَزائِنُه، ومفاتيحُه بيَدِه؛ فهو مالِكُ كُلِّ شَيءٍ، وهو القادِرُ على إيجادِه وتكوينِه متى يشاء.

وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ.

أي: وما نُنَزِّلُ الأمطارَ والأرزاقَ وكُلَّ شَيءٍ إلَّا بمِقدارٍ مُحَدَّدٍ، لا يزيدُ ولا يَنقُصُ، بحسَبِ مَشيئةِ اللهِ، وما تقتَضيه حِكمتُه.

كما قال تعالى: وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ [الرعد: 8].

وقال سُبحانه: وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ [المؤمنون: 18].

وقال عزَّ وجلَّ: وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ [الشورى: 27].

وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (22).

وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ.

أي: وأرسَلْنا رياحَ الرَّحمةِ لِتُلقِّحَ السَّحابَ، فينشأَ عن ذلك الماءُ الذي يحمِلُه السَّحابُ.[24]

عن سَلَمةَ بنِ الأكوعِ رَضِيَ اللهُ عنه- يرفَعُه إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- قال: ((كان إذا اشتَدَّت الرِّيحُ يقولُ: اللَّهُمَّ لَقَحًا لا عَقيمًا[25])).[26]

فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ.

أي: فأنزَلْنا من السَّحابِ مَطَرًا، فمكنَّاكم من هذا الماءِ العذْبِ؛ لِشُربِكم، وشُربِ أنعامِكم، وسَقْيِ أراضيكم.

---

(24) قال ابن عاشور: (معنى الإلقاح: أنَّ الرِّياحَ تُلَقِّحُ السحابَ بالماء، بتوجيهِ عمَلِ الحرارةِ والبرودة متعاقِبَينِ، فينشأُ عن ذلك البُخارُ الذي يصيرُ ماءً في الجوِّ، ثمَّ ينزِلُ مطرًا على الأرض).

((تفسير ابن عاشور)) (38/14).

(25) لَقَحًا (بفتحِ اللَّامِ والقاف): أي: اجعَلْها حامِلةً للماءِ كاللَّقحةِ مِن الإبِلِ، لا عَقيمًا: أي: لا خاليةً عنه.

يُنظر: ((فيض القدير)) للمناوي (101/5).

(26) أخرجه ابن حبان (1008)، والطبراني (33/7) (6296)، والحاكم (7770).

صحَّح إسنادَه الحاكِمُ وقال: (على شرطِ الشيخينِ ولم يُخرجاه)، والنووي في ((المجموع)) (98/5)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (138/10): (رجاله رجال الصحيح غيرَ المغيرة بن عبد الرحمن، وهو ثقة)، وصحَّحه ابنُ حجر، كما في ((الفتوحات الربانية)) لابن علان (275/4)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح الجامع)) (4670).

كما قال تعالى: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ [النحل: 10–11].

وقال سُبحانه: وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا * لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا [الفرقان: 48–49].

وقال عزَّ وجلَّ: أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ [الواقعة: 68 – 70].

وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ.

أي: ليست خزائِنُ المطَرِ عِندَكم، بل نحن الخازِنونَ له، نُنَزِّلُه متى نشاءُ.(27)

---

(27) ومن اختار المعنى المذكورَ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والسمعاني، والبغوي، والقرطبي، والنيسابوري، والعليمي، والشوكاني.

يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: معنى بِخَازِنِينَ: أي بحافظين.

وممن اختار هذا المعنى: ابنُ أبي زمنين، والسمرقندي، والواحدي، والرازي، والسعدي، وابنُ عاشور.

قال الشِّنقيطي: (قولُه تعالى: وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ فيه للعُلماءِ وجهانِ مِن التفسيرِ، كلاهما يشهَدُ له قرآنٌ: الأول: أنَّ معنى وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ أي: ليست خزائنُه عندكم، بل نحن الخازنون له، ننزلُه متى شئنا، وهذا الوجهُ تدلُّ عليه آياتٌ، كقوله: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ [الحجر: 21]، وقوله: وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ [المنافقون: 7] الآية، ونحو ذلك من الآيات.

الوجه الثاني: أنَّ معنى وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ بعد أن أنزلْناه عليكم، أي: لا تَقدِرونَ على حفظِه في الآبارِ والعُيونِ والغُدرانِ، بل نحن الحافظون له فيها، ليكون ذخيرةً لكم عند الحاجة، ويدلُّ لهذا الوجه قولُه تعالى: وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي

قال تعالى: قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا [الإسراء: 100].

قال سُبحانه: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ [الزمر: 21].

وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (23).

وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ.

أي: وإنَّا لَنحنُ نُحيي الخَلقَ مِن العدَمِ، ونُحييهم بعدَ موتِهم يومَ البَعثِ، ونُميتُ الأحياءَ متى شِئْنا.

وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ.

أي: ونحن الوارِثونَ للأرضِ ومَن عليها مِن الخَلقِ بعد موتِهم، فلا يبقَى إلَّا اللهُ وَحدَه سُبحانه.

كما قال تعالى: إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ [مريم: 40].

الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ [المؤمنون: 18]، وقوله: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ [الملك: 30] ...

إلى غير ذلك من الآيات).

((أضواء البيان)) (273/2).

وقيل المراد: وما أنتم له بمانعينَ.

وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جرير.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (47/14).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: سفيانُ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (47/14)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (2261/7).

وقال سُبحانه: كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ [الرحمن: 26-27].

وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (24).

أي: ولقدْ أحاطَ علمُنا بمَن تقدَّم منكم- أيُّها الناسُ- وبمَن تأخَّر، وبأحوالِكم، وأعمالِكم جميعًا، فلا يخفَى علينا شيءٌ.

وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (25).

وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ.

أي: وإنَّ ربَّك- يا مُحمَّدُ- هو وَحدَه الذي يجمَعُ الأوَّلينَ والآخِرينَ يومَ القيامةِ للحِسابِ والجزاءِ، لا شَكَّ في قُدرتِه على ذلك، وصِدقِ وَعدِه.

إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ.

أي: إنَّه- سُبحانه- حَكيمٌ يضَعُ الأشياءَ في مواضِعِها اللَّائقةِ بها، ومن ذلك حِكمتُه في تدبيرِ خَلقِه ومُجازاتِهم على أعمالِهم، وهو عليمٌ بكُلِّ شَيءٍ، ومن ذلك عِلمُه بأعدادِ خَلقِه وأحوالِهم وأعمالِهم، فيُجازيهم عليها؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شَرًّا فشَرٌّ.

سورةُ الحِجْرِ

الآيات (26–44)

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (26) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (27) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (28) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (29) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (30) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (31) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (32) قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (33) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (34) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (35) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (36) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (37) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (38)

قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (39)

إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (40) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (41) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ

لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (42) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (43)

لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (44)

غريب الكلمات:

صَلْصَالٍ: طينٍ يابسٍ له صَوتٌ، وأصلُ الصَّلصالِ: تردُّدُ الصَّوتِ مِن الشَّيءِ اليابسِ.

حَمَإٍ: طينٍ أسوَدَ متغَيِّرٍ مُنتِنٍ.

مَسْنُونٍ: أي: مَصبوبٍ، مِن سَنَّ الماءَ: إذا صَبَّه، أي: أنَّه مفرَّغٌ على هيئةِ الإنسانِ، أو مُنتِنٍ مُتغيِّرِ الرَّائحةِ، مِن قَولِهم: سَنَنتُ الحجرَ على الحجَرِ: إذا حكَكْتَه به، فالذي يسيلُ بينهما يقال له: سَنِينٌ، ويكونُ ذلك مُنتِنًا.

السَّمُومِ: أي: الرِّيحِ الحارَّةِ التي تدخُلُ مَسامَّ الإنسانِ، وأصل (سمم): يدلُّ على مدخَلٍ في الشَّيءِ.

فَأَنْظِرْنِي: أي: فأخِّرني، وأجلني، والنظرُ: الانتظارُ، ونظرتُه: أي: انتظرتُه، كأنَّه ينظرُ إلى الوقتِ الذي يأتي فيه، وأصلُ (نظر): تأملُ شيءٍ ومعاينتُه.

الْغَاوِينَ: أي: الضالِّينَ، والهالكينَ، والغَيُّ: جهلٌ مِن اعتقادٍ فاسدٍ، وأصلُ (غوي): يدلُّ على خلافِ الرشدِ.

تفسير الآيات:

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (26).

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ.

أي: ولقد خَلَقْنا آدمَ مِن طينٍ قد اشتَدَّ يُبْسُه بعدما خُمِّرَ، حتى صار له صوتُ صَلصلةٍ إذا نُقِرَ.

كما قال تعالى: خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ [الرحمن: 14].

وقال سُبحانَه: وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ [السجدة: 7-8].

مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ.

أي: وهذا الصَّلصالُ مِن طينٍ أسودَ متغيِّرٍ؛ مِن طُولِ مُكثِه.[28]

---

(28) قال ابن الجوزي: (قال ابنُ الأنباري: لا خلافَ أنَّ الحمأَ: الطينُ الأسودُ المتغيِّرُ الريح).

((تفسير ابن الجوزي)) (2/532).

وممَّن ذهب إلى أنَّ مَسْنُونٍ بمعنى متغيرٍ: ابنُ جرير، والقرطبي، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (14/59)، ((تفسير القرطبي)) (10/21)، ((تفسير السعدي)) (ص: 431).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المسنون بمعنى الأملسِ: ابنُ كثير.

يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (4/533).

ولذا قال: (مقصودُ الآيةِ: التنبيهُ على شرفِ آدمَ عليه السلامُ، وطيبِ عنصرِه، وطهارةِ محتدِه).

((تفسير ابن كثير)) (4/534).

وقال ابن عاشور: (والمَسْنونُ: الذي طالت مُدَّةُ مُكثِه، وهو اسمُ مفعولٍ مِن فعلِ (سَنَّهُ): إذا تركه مدةً طويلة تُشبِه السَّنة. وأحسَبُ أنَّ فعل (سَنَّ) بمعنى ترك شيئًا مدة طويلةً- غيرُ مسموعٍ.

وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (27).

أي: وإبليسَ- أبا الجِنِّ، المتواريَ عن الأعيُنِ- خَلَقْناه من قبلِ آدمَ مِن النارِ الشَّديدةِ الحرارةِ.

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (28).

أي: واذكُرْ- يا محمَّدُ- إذ قال ربُّك للملائكةِ: إنِّي خالِقٌ إنسانًا مِن طينٍ يابسٍ أسوَدَ متغيِّرٍ.

فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (29).

أي: فإذا أكمَلتُ خَلْقَ آدمَ، وصَوَّرْتُه، وصار جسدًا تامًّا في غايةِ الإتقانِ، ونفختُ فيه الرُّوحَ التي هي مِن خَلْقي، فصار بشرًا حَيًّا؛ فخِرُّوا له ساجِدينَ تحيَّةً له وتكريمًا.

فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (30).

ولعل (تسَنَّه) بمعنى تغيَّرَ من طولِ المدة أصلُه مطاوِعُ سَنَّه، ثم تنوسي منه معنى المطاوعة.

وقد تقدم قولُه تعالى: لَمْ يَتَسَنَّهْ في سورةِ البقرة (آية: 259).

والمقصود مِن ذِكر هذه الأشياء التنبيهُ على عجيب صُنعِ الله تعالى؛ إذ أخرج من هذه الحالة المَهينةِ نوعًا هو سيدُ أنواع عالَمِ المادة ذاتِ الحياة).

((تفسير ابن عاشور)) (42/14).

وقال القاسمي: (مَسْنُونٍ أي: مُصوَّرٍ، من (سُنَّةِ الوجه) وهي صورتُه، أو مصبوبٍ، من (سَنِّ الماءِ) صبِّه.

أي: مُفرَغ على هيئة الإنسان.

كأنَّه سبحانه أفرغَ الحمأَ فصوَّرَ منها تمثالَ إنسان أجوف، فيَبِس حتى إذا نُقِرَ صلصل، ثم صيَّرَه جسدًا ولحمًا ونفخ فيه من رُوحه).

((تفسير القاسمي)) (334/6).

ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (53/11).

أي: فلمَّا خلَقَ اللهُ آدمَ، ونفَخَ فيه الرُّوحَ، سجدَ له كلُّ الملائكةِ فورًا، كما أمَرَهم اللهُ.

إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (31).

أي: إلَّا إبليسَ امتنَعَ أن يكونَ مع الملائكةِ السَّاجِدين لآدمَ؛ تكبُّرًا منه وحسَدًا لآدمَ.

كما قال سُبحانه: فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ [ص: 73-74].

قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (32).

أي: قال اللهُ: يا إبليسُ، ما السَّبَبُ الذي حمَلَك على ألَّا تكونَ مع الملائكةِ السَّاجِدين لآدمَ، وقد أمرتُك بالسُّجودِ معهم؟!

كما قال تعالى: قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ [ص: 75].

قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (33).

أي: قال إبليسُ تكبُّرًا وحسَدًا لآدمَ- عليه السَّلامُ: لا ينبغي لِي أنا- المخلوقَ مِن نارٍ- أن أسجُدَ لهذا الجسَدِ الذي خلقْتَه من طينٍ يابسٍ لا مَنعةَ فيه، إذا نُقِرَ أجاب بالتَّصويتِ، أسودَ متغيِّرٍ، فأنا خيرٌ منه؛ لأنَّك خلقتَني من نارٍ نافعةٍ بالإشراقِ، مُمتنِعةٍ ممَّن يريدُها بالإحراقِ، فسُجودي له منافٍ لحالي.

كما قال تعالى: قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ [الأعراف: 12].

وقال عزَّ وجلَّ: وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا * قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا [الإسراء: 61-62].

قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (34).

أي: قال الله لإبليسَ: فاخرُجْ منها فإنَّك مَشتومٌ مُحقَّرٌ مذمومٌ.

وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (35).

أي: وإنَّ طَرْدَك التَّامَّ مِن رَحمتي سيبقَى في الدُّنيا مُتَّصِلًا بك، لاحِقًا لَك، إلى يومِ القيامةِ الذي تُلاقي فيه جزاءَ ما عَمِلت.

كما قال سُبحانه: قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ [ص: 77-78].

قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (36).

أي: قال إبليسُ: ربِّ فإذ أخرجْتَني ولعَنْتَني، فأمهِلْني وأخِّرْني، ولا تُهلِكْني إلى أن تبعَثَ خلْقَك يومَ القيامةِ.

قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (37).

أي: قال اللهُ لإبليسَ: فإنَّك من المؤخَّرينَ المُمهَلينَ.

إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (38).

أي: إلى الوقتِ الذي يموتُ فيه الخلائقُ، وهو وقتُ النفخةِ الأُولَى.[29]

---

(29) وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباس.

يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (2264/7).

قال ابنُ الجوزي: (فأرادَ أن يذيقَه ألَمَ الموتِ قبلَ أن يذيقَه العذابَ الدائمِ في جهنمَ).

((تفسير ابن الجوزي)) (534/2).

وقال ابن عطية: (قال أكثرُ النَّاسِ: الوقتُ المعلومُ هو النفخةُ الأولى في الصُّورِ، التي يَصعَقُ لها مَن في السموات ومَن في الأرض من المخلوقين)، ثم قال عن هذا القول: إنَّه (أصَحُّ وأشهَرُ في الشرع).

((تفسير ابن عطية)) (379/2، 380).

وقال الشنقيطي: (طلَب الشيطانُ الإنظارَ إلى يومِ البعثِ، وقد أعطاه اللهُ الإنظارَ إلى يومِ الوقتِ المعلومِ. وأكثرُ العلماءِ يقولون: المرادُ به وقتُ النفخةِ الأُولَى، والعلمُ عندَ اللهِ تعالى).

كما قال سُبحانَه: قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا * قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا [الإسراء: 62-63].

- وقال تعالى: قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ [الأعراف: 14-15].

- وقال سُبحانَه: قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ [الواقعة: 49-50].

قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (39).

قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ.

أي: قال إبليسُ: ربِّ بسبَبِ إغوائِك لي لأُحَسِّنَنَّ للنَّاسِ مَعصيتَك، ولأُرغِّبنَّهم فيها، ولأَشغلَنَّهم بزينةِ الدُّنيا عن طاعتِك.

وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ.

((أضواء البيان)) (11/2).

وقال الرازي: (وإنَّما سُمِّيَ هذا الوقتُ (أي: وقتُ النفخةِ الأُولَى) بالوقتِ المعلومِ؛ لأنَّ مِنَ المعلومِ أنْ يموتَ كلُّ الخلائقِ فيه.

وقيلَ: إنَّما سمَّاه اللَّهُ تعالَى بهذا الاســم، لأنَّ العالِمَ بذلك الوقتِ هو اللَّهُ تعالَى لا غير، كما قال تعالَى: إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ [الأعراف: 187]، وقال: إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ [لقمان: 34]).

((تفسير الرازي)) (141/19).

وقيل: إنَّ المرادَ بيوم الوقتِ المعلومِ: يومُ القيامةِ.

وممن ذهَب إلى ذلك: ابنُ كثيرٍ، والشوكاني.

يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (535/4)، ((تفسير الشوكاني)) (158/3).

أي: ولأُضِلَّنَّ جميعَ النَّاسِ عن طريقِ الحقِّ.

كما قال تعالى: لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا * وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا [النساء: 118-120].

وقال سُبحانه: قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا * قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا * وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا [الإسراء: 62-64].

وقال تعالى: قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ [الأعراف: 16-17].

وعن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضيَ الله عنه، قال: سمعتُ رَسولَ اللهِ - ﷺ - يقولُ: ((إنَّ إبليسَ قال لرَبِّه: بعِزَّتِك وجَلالِك لا أبرَحُ أُغوي بني آدمَ ما دامتِ الأرواحُ فيهم، فقال له الله: فبعِزَّتي وجلالي لا أبرَحُ أغفِرُ لهم ما استغفَروني)).(30)

---

(30) أخرجه أحمد (11244)، وأبو يعلى (1273)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (8788).
قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (210/10): أحد إسناديه رجاله رجال الصحيح.
وحسَّنه ابن حجر في ((الأمالي المطلقة)) (137)، والألباني في ((صحيح الجامع)) (1650)، وشعيب الأرناؤوط في تحقيق ((مسند أحمد)) (344/17).

إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (40).

أي: إلَّا عبادَك الذين اخترَتَهم لهدايتِك، وطَهَّرتَهم من الشِّركِ والرِّياءِ فصاروا مُخلَصينَ، فلا أستطيعُ إغواءَهم.

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1- قراءةُ الْمُخْلَصِينَ بفتح اللَّامِ، اسم مفعولٍ من أُخلِصَ، بمعنى: أنَّ الله أخلَصَهم فصاروا مخلَصِينَ، أي: اختارهم اللهُ وهداهم.[31]

2- قراءةُ الْمُخْلِصِينَ بكسرِ اللامِ، اسم فاعلٍ مِن أخلَصَ، بمعنى: أنَّهم أخلَصوا لله دينَهم وأعمالَهم من الشِّركِ والرِّياءِ.[32]

قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (41).

---

(31) قرأ بها نافع، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وأبو جعفر.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (295/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (68/14)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: 194)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 359).

(32) قرأ بها الباقون.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (295/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (68/14)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: 194)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 358).

أي: قال الله: طريقُ الحَقِّ والهُدى والإخلاصِ طريقٌ مُعتَدِلٌ، لا اعوِجاجَ فيه، يدُلُّ عليَّ، ويُوصِلُ إليَّ، وإلى جنَّتي.

كما قال تعالى: إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [هود: 56].

وقال سُبحانه: وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ [النحل: 9].

وقال عزَّ وجلَّ: وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ [يس: 61].

وقال جلَّ جلالُه: إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى [الليل: 12].

وعن عبدِ اللهِ بن مسعودٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((خَطَّ لنا رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم خطًّا، ثم قال: هذا سبيلُ اللهِ؛ ثم خَطَّ خُطوطًا عن يمينِه وعن شِمالِه؛ ثم قال: هذه سُبُلٌ- قال يَزيدُ: مُتَفرِّقةٌ- على كُلِّ سبيلٍ منها شيطانٌ يدعو إليه، ثم قرأ: وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ [الأنعام: 153])).(33)

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1- قراءةُ عَلِيٌّ بكسرِ اللامِ ورَفعِ الياءِ وتنوينِها، أي: هذا طريقٌ رفيعٌ شريفٌ في الدِّينِ.(34)

---

(33) أخرجه أحمد (4142) واللفظ له، والدارمي (202)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (11174)، وابن حبان (7).
ذكر ابنُ القيِّم في ((طريق الهجرتين)) (152) أنَّه ثابتٌ، وصحَّح إسناده أحمدُ شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (89/6)، وصحَّحه ابنُ باز في ((مجموع فتاواه)) (281/4)، والألباني في تحقيق ((شرح الطحاوية)) (525).

(34) قرأ بها يعقوب.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (301/2).

2- قِراءةُ عَلَيَّ بفتحِ اللّامِ والياءِ من غير تنوينٍ، أي: هذا طريقٌ يدُلُّ عليَّ وعلى عبادتي وطاعتي، لا على معصيتي وطاعةِ الشَّيطانِ.(35)

إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (42).

أي: قال اللهُ لإبليسَ: إنَّ عبادي المؤمنينَ الموحِّدينَ الذين هديتُهم، ليس لك عليهم حُجَّةٌ وتسلُّطٌ على قلوبِهم، لكنْ مَن اتَّبعَك من النَّاسِ فرَضِيَ بولايتِك وطاعتِك، ومالَ إلى ما تدعو إليه من الضَّلالاتِ؛ فلك عليه تسلُّطٌ.

كما قال تعالى: إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ [النحل: 99-100].

وقال سُبحانه: وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا [الإسراء: 64-65].

وقال عزَّ وجلَّ: أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا [مريم: 83].

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (69/2)، ((المحتسب)) لابن جني (3/2).

(35) قرأ بها الباقون.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (301/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (69/14)، ((معاني القراءات)) للأزهري (69/2)، ((المحتسب)) لابن جني (3/2)، ((تفسير الشوكاني)) (158/3).

وقال تبارك وتعالى: وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ * حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ [الزخرف: 36 – 38].

وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (43).

أي: وإنَّ جهنَّم لَموعِدُ إبليسَ وكُلِّ مَن اتَّبعه من الإنسِ والجنِّ أجمعينَ، فيَصيرونَ إليها في الآخرةِ.

كما قال تعالى: وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ [السجدة: 13].

وقال سُبحانه: قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ [ص: 84– 85].

وكما قال تعالى عن القرآن: وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ [هود: 17].

لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (44).

لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ.

أي: لجهنَّمَ سَبعةُ أبوابٍ، يدخُلُ أهلُ النَّارِ منها.

لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ.

أي: لكلِّ بابٍ من أتباعِ إبليسَ نصيبٌ معلومٌ، يَدخُلونَ منه إلى النَّارِ، كلٌّ يدخُلُ مِن بابٍ بحسَبِ عمَلِه، ويستقِرُّ في دَرْكٍ بقَدْرِ فِعْلِه.

كما قال تعالى: فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ [الشعراء: 94–95].

سورةُ الحِجْرِ

الآيات (45–50)

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (45) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (46) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (47) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (48) نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (50)

غريب الكلمات:

غِلٍّ: أي: عداوةٍ وشحناءَ، وأصلُ (غلل) يدلُّ على تَخَلُّلِ شيءٍ، وثباتِ شيءٍ، كالشَّيءِ يُغْرَزُ.

نَصَبٌ: أي: إعياءٌ وتعَبٌ.

تفسير الآيات:

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (45).

أي: إنَّ الذين اتَّقَوا اللهَ تعالى بامتثالِ ما أمَرَ، واجتنابِ ما نَهَى، في بساتينَ- قد احتوَت على جميعِ الأشجارِ، وأينَعَت فيها جميعُ الثِّمارِ- وعُيونٍ مِثْل عُيونِ الماءِ والخَمرِ، والسَّلسبيلِ والتَّسنيمِ، وغير ذلك.

كما قال تعالى: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ [الدخان: 51-52].

وقال عزَّ وجلَّ: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ [الذاريات: 15-16].

وقال سُبحانه: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ [القمر: 54-55].

وقال تعالى: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ * وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ [المرسلات: 41-44].

ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آَمِنِينَ (46).

أي: يُقالُ[36] للمُتَّقِينَ يومَ القيامةِ: ادخُلوا الجنَّةَ مُسَلَّمًا عليكم، سالِمينَ من كلِّ داءٍ وآفةٍ، آمِنينَ مِنَ الموتِ والعذابِ، والهُمومِ والغُمومِ والأمراضِ، وانقطاعِ النَّعيمِ أو نُقصانِه، ومِن سائرِ المُكَدِّراتِ.[37]

وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (47).

---

(36) قال الخازنُ: (القائلُ هو اللهُ تعالى، أو بعضُ ملائكتِه).
((تفسير الخازن)) (3/57).

(37) قال ابنُ عطيةَ: (و«السلامُ» هاهنا يحتملُ أن يكونَ السلامةَ، ويحتملُ أن يكونَ التحيةَ).
((تفسير ابن عطية)) (3/363).

وقال الشوكاني: (معنى بِسَلَامٍ آمِنِينَ بسلامةٍ من الآفات، وأمْنٍ من المخافاتِ، أو مُسلِّمينَ على بعضِهم بعضًا، أو مُسلَّمًا عليهم من الملائكةِ، أو مِن اللهِ عزَّ وجلَّ).
((تفسير الشوكاني)) (3/161).

وقال ابنُ عاشور: (قولُه: ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ...
السلامُ ظاهرٌ في التحيَّة؛ لتقييدِه بـ آمِنِينَ، ولو كان السلامُ مُرادًا به السلامةُ، لكان التقييدُ بآمِنِينَ تَوكيدًا، وهو خلافُ الأصلِ).
((تفسير ابن عاشور)) (12/89)، ويُنظر: (14/55).

وقال الرازي: (وقولُه: ادْخُلُوهَا بِسَـــلَامٍ آمِنِينَ المرادُ: ادخُلوا الجنَّةَ معَ السَّــلامةِ مِنْ كلِّ الآفاتِ في الحالِ، ومعَ القطعِ ببقاءِ هذه السَّلامةِ، والأمنِ مِنْ زوالِها).
((تفسير الرازي)) (19/148).

ومن جمَع بينَ المعنيينِ: أي: سالمينَ، مسلَّمًا عليكم: ابنُ كثيرٍ، والبقاعي.
يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (4/537)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (11/63).

وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ.

أي: واقتَلَعْنا وأخرَجْنا ما في صُدورِ هؤلاء المتَّقينَ مِن الحِقدِ والبُغضِ والحَسَدِ، الذي كان بينَهم في الدُّنيا.

عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((يَخلُصُ المُؤمنونَ مِن النَّارِ، فيُحبَسونَ على قَنطرةٍ[38] بين الجنَّةِ والنَّارِ، فيُقَصُّ[39] لِبَعضِهم من بعضٍ مَظالِمُ كانت بينهم في الدُّنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِنَ لهم في دُخولِ الجنَّة، فوالذي نَفسُ مُحمَّدٍ بِيَدِه، لَأحَدُهم أهدى بمَنزِلِه في الجنَّةِ منه بمَنزِلِه كان في الدُّنيا)).[40]

إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ.

أي: حالَ كونِهم إخوانًا،[41] يكونونَ على الأسِرَّةِ بعضُهم في مقابِلِ بَعضٍ، ينظُرونَ إلى وُجوهِ جُلَسائِهم، ولا يَنظُرُ بعضُهم إلى قَفا بعضٍ.

---

(38) القَنطرةُ: الجسرُ، وهي عبارةٌ عن الصراطِ الممدودِ بينَ الجنةِ والنارِ.
يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) (527/5)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (3562/8).
(39) فيُقَصُّ: أي: يمكَّنُ صاحِبُ الحَقِّ مِن أخذِ القِصاصِ، وهو أن يفعلَ به مثلَ فِعلِه، من قتلٍ، أو قَطعٍ، أو ضربٍ أو جرحٍ.
يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (72/4).
(40) رواه البخاري (6535).
(41)

لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (48).

لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ.

أي: لا ينالُ المتَّقينَ في الجنَّةِ أيُّ تَعَبٍ أو مَشَقَّةٍ.

كما قال تعالى: وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ [فاطر: 34-35].

وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ.

أي: وليس المتَّقونَ مِن الجنَّةِ بمُخرَجينَ، بل هم فيها دائِمونَ.

كما قال تعالى: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا [النساء: 57].

وقال سُبحانَه: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا [الكهف: 107- 108].

نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49).

أي: أخبِرْ- يا مُحمَّدُ- عبادي خبرًا جازِمًا مُؤَكَّدًا أنِّي أنا كثيرُ المَغفِرةِ لذُنوبِهم إذا تابُوا، فأستُرُ ذُنوبَهم وأتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم، كثيرُ الرَّحمةِ بهم إذا استقاموا، ومِن رحمتي أنِّي لا أعذِّبهم على الذنوب بعد تَوبتِهم منها.

وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (50).

أي: وأخبِرْ عبادي أيضًا أنَّ عذابي لِمَن أصرَّ على الكُفرِ والمعاصي، فلم يتُبْ منها، هو العذابُ المُوجِعُ الكثيرُ الإيلامِ؛ فلْيَحذَروا أسبابَ عَذابي، ولْيُقبِلوا على التَّوبةِ والإنابةِ إليَّ.

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لو يعلَمُ المؤمِنُ ما عند اللهِ مِن العُقوبةِ، ما طَمِعَ بجَنَّتِه أحَدٌ، ولو يعلَمُ الكافِرُ ما عندَ اللهِ مِن الرَّحمةِ، ما قَنَطَ مِن جَنَّتِه أحَدٌ)).[42]

(42) رواه البخاري (6469)، ومسلم (2755)، واللفظ له.

سورةُ الحِجْرِ

الآيات (51–60)

وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (51) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (52)
قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (53) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ
تُبَشِّرُونَ (54) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (55) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ
رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (56) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (57) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ
مُجْرِمِينَ (58) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (59) إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ
(60)

غريب الكلمات:

وَجِلُونَ: أي: خائِفونَ، وأصلُ الوجَلِ: يدلُّ على استشعارِ الخَوفِ.

الْقَانِطِينَ: أَي: اليائِسينَ، والقُنُوطُ: اليأسُ مِن الخيرِ، وأصلُ (قنط) يدُلُّ عَلَى اليأْسِ مِنَ الشَّيءِ.

خَطْبُكُمْ: أي: شَأنُكم وأمْرُكم الذي جِئتُم له، والخَطْبُ: الأمرُ العَظيمُ الذي يَكثُرُ فيه التَّخاطُبُ، ولا يَكادُ يُقالُ (الخَطبُ) إلَّا في الأمرِ الشَّديدِ، وأصل: (خطب): يدُلُّ على الكَلامِ بين اثنَينِ.

الْغَابِرِينَ: أي: الباقِينَ في العذابِ، والغابرُ مِن الأضدادِ، يُراد به الباقي والماضي، وأصلُ (غبر): يدلُّ على البقاءِ.

تفسير الآيات:

وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (51).

أي: وأخبِرْ عبادي- يا مُحمَّدُ- عن قِصَّةِ الملائكةِ؛ ضُيوفِ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فإنَّ في قَصِّك عليهم ذلك ما يُوجِبُ لهم العِبرةَ.

إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (52).

إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا.

أي: حينَ دخَلَ الملائِكةُ على إبراهيمَ، فقالوا له عَقِبَ دُخولِهم: نسلِّمُ عليك سَلامًا.

كما قال تعالى: وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ [هود: 69].

قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ.

أي: قال لهم إبراهيمُ بعدَ أن ردَّ عليهم السَّلامَ: إنَّا منكم خائِفونَ.[43]

---

(43) قال الشِّنقيطيُّ: (لم يُبيِّنْ تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ هل ردَّ إبراهيمُ السَّلامَ على الملائكةِ أو لا؛ لأنَّه لم يذكُرْ هنا ردَّه السَّلامَ عليهم، وإنَّما قال عنه إنَّه قال لهم: إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ، وبيَّنَ في هودٍ والذَّارياتِ أنَّه ردَّ عليهم السَّلامَ، بقَولِه في هودٍ: قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ [هود: 69]، وقَولِه في الذَّاريات: سَـــلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ [الذاريات: 25- 26].

كما قال تعالى: إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً [الذاريات: 25 – 28].

قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (53).

قَالُوا لَا تَوْجَلْ.

أي: قالت الملائكةُ لإبراهيمَ: لا تخَفْ منَّا.

كما قال تعالى: فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ [الذاريات: 28].

ثمَّ علَّلوا ذلك بقولِهم مؤكِّدينَ لِقَلعِ ما في نفسِه من الوجَلِ المُنافي للبُشرى:

إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ.

أي: إنَّا نبشِّرُك بمولودٍ لك غزيرِ العِلمِ بالشَّريعةِ الإلهيَّةِ.

كما قال تعالى: وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ * قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ [الذاريات: 28–30].

وبيَّنَ أنَّ الوجَلَ المذكورَ هنا هو الخوفُ؛ لِقَولِه في القِصَّةِ بعَينِها في هودٍ: وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ [هود: 70]، وقَولِه في الذاريات: فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ [الذاريات: 28]..

وبيَّنَ أنَّ سبَبَ خَوفِه هو عدَمُ أكلِهم، بقولِه: فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً [هود: 70]).

((أضواء البيان)) (280/2).

وقال سبحانه: وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ [هود: 71].

وقال تعالى: وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ [الصافات: 112].

قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (54).

قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ.

أي: قال إبراهيمُ للملائكةِ مُتعَجِّبًا: أبشَّرتُموني بولدٍ مع كِبَرِ سِنِّي؟!

فَبِمَ تُبَشِّرُونَ.

أي: فبأيِّ شيءٍ عَجيبٍ تُبشِّرونَني؟! فإنَّ البِشارةَ بما لا يُتصوَّرُ وقوعُه عادةً لا تصِحُّ.

قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (55).

قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ.

أي: قالت الملائكةُ لإبراهيمَ: بشَّرْناك بولَدٍ قد قضى اللهُ أنَّه كائِنٌ بلا شَكٍّ.

فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ.

أي: فلا تكُنْ- يا إبراهيمُ- من اليائسينَ مِن فَضلِ اللهِ، الذين يستبعِدونَ وُجودَ الخيرِ، ولكِنْ أبشِرْ بالولَدِ مع الكِبَرِ، واقبَلِ البُشرى بذلك.

قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (56).

أي: قال إبراهيمُ: ومَن ييئَسُ مِن رَحمةِ اللهِ إلَّا الذَّاهِبونَ عن طريقِ الصَّوابِ، الجاهِلون بكَمالِ قُدرةِ ورَحمةِ اللهِ الوهَّابِ.

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (57).

أي: قال إبراهيمُ للملائكةِ: فما شأنُكم الخطيرُ الذي أرسَلَكم اللهُ به سِوى البِشارةِ؟!

قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (58).

أي: قالت الملائكةُ لإبراهيمَ: إنَّا أرسَلَنا اللهُ إلى قومٍ كافرينَ كَثُرَ فسادُهم، وعظُمَ خَبَثُهم؛ لنُهلِكَهم.

إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (59).

أي: لكنَّ لوطًا وأهلَه، لن نُهلِكَهم، وسنُخَلِّصُهم جميعًا من العذابِ.

كما قال تعالى حاكيًا محاورةَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ مع الملائكةِ عليهم السَّلامُ: قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ * فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ [الذاريات: 31–36].

إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (60).

أي: إلَّا امرأةَ لُوطٍ، قَضَينا أنَّها مِن المُهلَكينَ الباقينَ في العذابِ؛ لكُفرِها.

كما قال تعالى: **وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ * قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ** [العنكبوت: 31- 32].

سورةُ الحِجْرِ

الآيات (61-77)

فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (61) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (62) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا
كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (63) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (64) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ
وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (65) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ
أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (66) وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (67) قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ
ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ (68) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ (69) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ
(70) قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (71) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (72)
فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (73) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ
(74) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (75) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ (76) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً
لِلْمُؤْمِنِينَ (77)

غريب الكلمات:

دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ: أي: يُسْتَأْصلونَ عن آخِرِهم حتَّى لا يبقَى منهم أحدٌ، وقطْعُ دابرِ الإنسان: هو إفناءُ نوعِه، ودابِرُ القومِ: آخرُهم، وأصلُ (قطع): يدلُّ على إبانةِ شيءٍ مِن شيءٍ، وأصلُ (دبر): آخِرُ الشَّيءِ وخَلْفُه.

يَمْتَرُونَ: أي: يَشكُّونَ، وماراه مماراةً ومِراءً. وامترى فيه وتمارَى: شكَّ، والمِريةُ: هي الترددُّدُ في الأمرِ، وهي أخصُّ من الشَّكِّ.

فَأَسْرِ: أي: سِرْ ليلًا؛ من السُّرَى: وهو سَيرُ اللَّيلِ.

بِقِطْعٍ: أي: ببقيَّةٍ تبقَى مِن آخِرِه، وأصلُ (قطع): يدلُّ على صَرمٍ وإبانةِ شَيءٍ مِن شَيءٍ.

لَعَمْرُكَ: أي: وحَياتِك، وأصلُ (عمر): يدلُّ على بقاءٍ، وامتدادِ زَمانٍ.

سَكْرَتِهِمْ: أي: غَوايتِهم وضَلالتِهم، وأصلُ (سكر): يدُلُّ على حَيرةٍ.

يَعْمَهُونَ: أي: يتَحيَّرون ويترَدَّدونَ، وأصلُ (عمه): يدلُّ على حَيرةٍ وقِلَّةِ اهتداءٍ.

مُشْرِقِينَ: أي: داخِلينَ في الإشراقِ، وهو سُطوعُ ضَوءِ الشَّمسِ وظُهورُه، وأصلُ (شرق): يدُلُّ على إضاءةٍ.

سِجِّيلٍ: أي: طينٍ مُتحَجِّرٍ، وقيل: أصلُها فارسيٌّ (سَنكِ وكِل) أي: الحَجَر والطِّين.

لِلْمُتَوَسِّمِينَ: أي: المتَفرّسين المُعتَبِرينَ، الناظرينَ في السِّمةِ الدَّالةِ؛ يُقال: توسَّمتُ فيه الخيرَ: إذا رأيتَ مِيسَمَه فيه، أي: علامَتَه التي تدُلُّ عليه، وأصلُ (وسم): يدُلُّ على أثَرٍ ومَعلَمٍ.

لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ: أي: لَبِطَرِيقٍ واضحٍ ثابتٍ، وأصلُ (سبل): يدلُّ على امتدادِ شَيءٍ، وأصلُ (قوم): يدلُّ عَلَى انْتِصابٍ أو عَزْمٍ.

تفسير الآيات:

فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (61).

أي: فلمَّا أتَتِ الملائكةُ لوطًا وأهلَه.

قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (62).

أي: قال لُوطٍ للملائكةِ: إنَّكم قومٌ غيرُ مَعروفينَ لدَيَّ، فلا أدري مَن أنتم!

قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (63).

أي: قالت الملائِكةُ لِلُوطٍ: بل نحنُ مَلائِكةُ الله، جِئناك بعذابِ قَومِك، الذي كانوا يشُكُّونَ في وُقوعِه بهم.

وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (64).

أي: وأتَيناك باليَقينِ مِن عندِ اللهِ- وهو عذابُ قَومِك- وإنَّا لَصادِقونَ فيما أخبَرْناك به مِن هلاكِهم.

كما قال تعالى: مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ [الحجر: 8].

فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (65).

فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ.

أي: فاخرُجْ أنت وأهلُك مِن أرضِ قَومِك بعد مُضيِّ وقتٍ مِن اللَّيلِ؛ حيثُ تكونُ العُيونُ قد نامَت، ولا يعلَمُ أحدٌ بمَسراك.

وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ.

أي: وكنْ- يا لوطُ- مِن وراءِ أهلِك، وامشِ خَلْفَهم حينَ تَسري بهم.

وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ.

أي: ولا ينظُرْ أحدٌ منكم وراءَه، ولْتَجِدُّوا في السَّيرِ فتتباعَدوا عن القريةِ، وتنجوا مِن العذابِ النازلِ بأهلِها.

وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ.

أي: واذهَبوا إلى المكانِ الذي تُؤمَرونَ بالمضيِّ إليه.

وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (66).

أي: وأوحَينا إلى لوطٍ ما قدَّرْناه من الأمرِ العظيمِ؛ أنَّ جميعَ قَومِه مُهلَكونَ عن آخِرِهم هَلاكَ استئصالٍ مَطْلَعَ صَباحِ لَيلتِهم.

كما قال تعالى: إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ [هود: 81].

وقال سبحانه: فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ [الحجر: 73].

وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (67).

أي: وجاء أهلُ مدينةِ قومِ لُوطٍ إلى بيتِ لُوطٍ فَرِحينَ مَسرورينَ، يُبَشِّرُ بَعضُهم بعضًا بقُدومِ أضيافِ لُوطٍ؛ طَمعًا في فِعلِ الفاحشةِ بهم!

كما قال تعالى: وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ [هود: 78].

وقال سُبحانَه: وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ [القمر: 37].

قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ (68).

أي: قال لُوطٌ لِقَومِه: إنَّ هؤلاء الذين تُريدونَ فِعلَ الفاحِشةِ بهم ضُيوفي، وحَقٌّ على الرجُلِ إكرامُ ضُيوفِه، فلا تَفضَحوني في ضُيوفي بتعاطي ذلك الفِعلِ القَبيحِ، فيَلحَقَني العارُ.

وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ (69).

أي: وخافُوا اللهَ أن يُحِلَّ بكم عَذابَه، ولا تُذِلُّوني وتُهينوني بالتعرُّضِ لضيوفي بمَكروهٍ.(44)

---

(44) وممن ذهب إلى أنَّ الخِزيَ هنا بمعنى الذُّلِّ والإهانة: ابنُ جرير، وابنُ عاشور، والشنقيطي.

يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن ذهب إلى أنَّه بمعنى الخجل: البغوي.

يُنظر: ((تفسير البغوي)) (62/3).

وقال القرطبي: (يجوز أن يكونَ مِن الخِزيِ: وهو الذلُّ والهوان، ويجوزُ أن يكون مِن الخزاية: وهو الحياءُ والخجَل).

قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (70).

أي: قال قَومُ لُوطٍ له: أولَمْ نَنهَك– يا لُوطُ– عن ضيافةِ أحدٍ من النَّاسِ؟ فنحن قد أنذَرْناك، ومَن أنذَرَ فقد أعذَرَ.

قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (71).

أي: قال لُوطٌ لِقَومِه: تزوَّجوا مِن نسائِكم،(45) ولا تَفعَلوا ما حرَّمَ اللهُ عليكم من إتيانِ الذُّكورِ، إن كنتُم فاعلينَ.(46)

((تفسير القرطبي)) (39/10).

ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (489/6).

(45) ذهب بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ المرادَ بـ بَنَاتِي: نساءُ أمَّتي؛ لكونِ النبيِّ بمنزلةِ الأبِ لِقَومِه.

وممَّن ذهَب إلى ذلك في الجملةِ: ابنُ جريرٍ، والزجَّاجُ، والزمخشري، وابنُ العربي، وابنُ كثير.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (91/14)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (183/3)، ((تفسير الزمخشري)) (585/2)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (104/3)، ((تفسير ابن كثير)) (542/4).

وممن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: قتادةُ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (91/14)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (2269/7).

وقيل: المراد بهنَّ: بناتُ لوطٍ عليه السلام، فعرَضَ على قومه التزوُّجَ بهنَّ إن أسلَموا.

ومن ذهَب إلى هذا القولِ: البغوي، والخازنُ.

يُنظر: ((تفسير البغوي)) (62/3)، ((تفسير الخازن)) (60/3).

(46) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (91/14)، ((تفسير البغوي)) (62/3)، ((تفسير القرطبي)) (39/10)، ((تفسير الشوكاني)) (165/3).

وفي معنى إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ أقوال: قيل: المراد: إن كنتم فاعلينَ ما آمرُكم به.

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابن جرير، والبغوي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (91/14)، ((تفسير البغوي)) (62/3).

كما قال تعالى: قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ * قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ [هود: 78-79].

لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (72).

أي: أُقسِمُ بحَياتِك- يا محمَّدُ- إنَّ قومَ لوطٍ لَفي ضَلالتِهم وجَهلِهم وغَفلتِهم يتحيَّرونَ، ولا يهتدونَ؛ بسببِ سَكرةِ الهَوى والعِشقِ.[47]

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (73).

وقيل: المرادُ: إن كنتُم مريدينَ لهذا الشَّأنِ- يعني: اللذَّةَ وقَضاءَ الوطَرِ- فعليكم بالتَّزويجِ ببناتي.

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزجَّاج، والواحدي، والشوكاني.

يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (183/3)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 595)، ((تفسير الشوكاني)) (165/3).

وقيل: هذا شَكٌّ في قَبولِهم لقولِه، كأنَّه قال: إن فعلتُم ما أقولُ لكم، وما أظنُّكم تفعلونَ.

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزمخشري، وأبو حيان، والألوسي.

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (585/2)، ((تفسير أبي حيان)) (489/6)، ((تفسير الألوسي)) (315/7).

(47) وممن اختار هذا المعنى المذكورَ: ابنُ عطيةَ، وابنُ القيِّم، والسعدي.

يُنظر: المصادر السابقة.

ونسَبه الواحدي لعامةِ المفسِّرين، وابنُ الجوزي لأكثرِهم.

يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (634/12-635)، ((تفسير ابن الجوزي)) (538/2).

وقيل: المرادُ بقولِه: إنَّهُم المشركونَ في زمنِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم.

وممن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، والسمرقندي، والواحدي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (91/14)، ((تفسير السمرقندي)) (260/2)، ((البسيط)) للواحدي (634/12، 635).

قال القاضي عياض: (اتَّفق أهلُ التفسير في هذا أنَّه قسَمٌ من الله جلَّ جلالُه بمُدَّة حياةِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم).

((الشفا بتعريف حقوق المصطفى)) (31/1).

ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (39/10)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: 429).

أي: فأخَذَتْهم صيحةٌ عَظيمةٌ هائِلةٌ مُهلِكةٌ، وقتَ شُروقِ الشَّمسِ.[48]

فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (74).

فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا.

أي: قَلَبْنا عَليهم مدينَتَهم، فجَعَلْنا أعلاها أسفَلَها.

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ.

أي: وأنزَلْنا عليهم حِجارةً مِن طينٍ مُتحَجِّرٍ.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (75).

---

(48) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (93/14)، ((تفسير القرطبي)) (42/10)، ((تفسير البيضاوي)) (215/3)، ((تفسير ابن كثير)) (543/4)، ((تفسير السعدي)) (ص: 433).

قال الواحدي: (قال المفسِّرون: صاح بهم جبريلُ صَيحةً أهلكَتهم، وقال أهل المعاني: ويجوزُ أن يكون جاءهم صوتٌ عظيمٌ مِن فِعلِ الله عز وجل).

((البسيط)) (636/12).

قال الرازي: (قال أهلُ المعاني: ليس في الآيةِ دلالةٌ على أنَّ تلك الصَّيحةَ صيحةُ جبريلَ عليه السَّلامُ، فإنْ ثبت ذلك بدليلٍ قويٍّ قيل به، وإلا فليس في الآية دَلالةٌ إلَّا على أنه جاءتهم صيحةٌ عظيمةٌ مهلكة).

((تفسير الرازي)) (156/19).

قال الواحدي: (يقال: إنَّ أوَّلَ العذابِ كان مع طلوعِ الصُّبحِ، ثمَّ امتدَّ إلى شروقِ الشَّمسِ؛ لذلك قال: مُصْبِحِينَ، ثم قال: مُشْرِقِينَ).

((الوسيط)) (49/3).

وقال ابنُ عطية: (أُهلِكوا بعد الفجرِ مُصبِحينَ، واستوفاهم الهلاكُ مُشرِقينَ).

((تفسير ابن عطية)) (370/3).

أي: إنَّ في قصَّةِ قَومِ لوطٍ وما فَعَلْناه بهم من العذابِ، وبقاءِ آثارِ هَلاكِهم، لَعلاماتٍ للمُتفرِّسينَ المتأمِّلينَ المتفكِّرينَ، الذين لهم فِكرٌ وفِراسةٌ يفهمونَ بها ما أُريدَ بذلك، فيَعتبِرونَ.

وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ (76).

أي: وإنَّ مدينة قَومِ لُوطٍ لَفي طريقٍ باقٍ واضحٍ ثابتٍ يَسلُكُه النَّاسُ، فيَرى كُلُّ مَن يمُرُّ بها آثارَ تَدميرِها.

كما قال تعالى: وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ [الصافات: 137-138].

وقال سُبحانه: أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا [محمد: 10].

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (77).

أي: إنَّ في إهلاكِنا قَومَ لُوطٍ، وإنجائِنا لوطًا وأهلَه المؤمنينَ، لعلامةً ودَلالةً واضِحةً للمُؤمنينَ على انتقامِ اللهِ مِن الكافرينَ، وإنجائِهم مِن بيْنِ أيديهم سالِمينَ آمِنينَ.

سورةُ الحِجْرِ

الآيات (78-84)

وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (78) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ (79) وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (80) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (81) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (82) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (83) فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (84)

غريب الكلمات:

أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ: أي: قَومُ شعَيبٍ، والأيكةُ: الشَّجَرُ المُلتَفُّ المُجتَمِعُ، وأصلُ (أيك): اجتماعُ شَجَرٍ.

لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ: أي: لَبِطَرِيقٍ واضِحٍ بيّنٍ، وقيل للطَّرِيقِ إمامٌ؛ لأنَّ المُسافِرَ يأتَمُّ به، حتى يصيرَ إلى الموضِعِ الذي يُريدُه، ويُطلَقُ الإمامُ على كُلِّ ما ائتَمَمْتَ به واهتَدَيتَ به، وأصلُ (أم): يدُلُّ على القَصْدِ.

الْحِجْرِ: هو اسمُ وادٍ بينَ المدينةِ والشَّامِ كان يسكُنُه ثَمودُ؛ قَوْمُ صَالِحٍ عليه السَّلامُ.

تفسير الآيات:

وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (78).

أي: وقد كان أصحابُ الغَيضةِ - وهي جماعةُ الشَّجرِ الملتَفِّ المُجتَمِع- ظالِمينَ بِشِركِهم باللهِ، وتَكذيبِهم برَسولِه شُعَيبٍ عليه السَّلامُ، وقَطْعِهم الطريقَ، وتَطفيفِهم في الكَيلِ، وبَخسِهم الناسَ أشياءَهم.(49)

كما قال تعالى: كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ [الشعراء: 176-183].

فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ (79).

فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ.

أي: فانتقَمْنا مِن أصحابِ الأيكةِ الظَّالِمينَ، فأهلَكْناهم.

---

(49) و(إنْ) هي المخففةُ مِن الثقيلةِ، واسمُها ضميرُ الشأنِ المحذوفِ، أي: وإنَّ الشأنَ كان أصحاب الأيكةِ، واللامُ الداخلةُ على (الظالمين) اللامُ الفارقةُ بينَ (إن) التي أصلُها مشددةٌ، وبين (إن) النافيةِ.

وقيل: (إنْ) بمعنى (ما)، واللام في قوله: لَظَالِمِينَ بمعنى إلَّا.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (371/3)، ((تفسير الشوكاني)) (168/3)، ((تفسير ابن عاشور)) (71/14).

كما قال تعالى: فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ [الشعراء: 189].

وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ.

أي: وإنَّ كُلًّا مِن دِيارِ قَومِ لُوطٍ ودِيارِ أصحابِ الأيكةِ لعلى طريقٍ واضِحٍ تُشاهَدُ فيه آثارُ هَلاكِهم، فيَعتَبِرُ بها من يمرُّ عليها.

وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (80).

أي: ولقد كذَّبَ سُكَّانُ الحِجْرِ – وهم ثَمودُ– رَسولَهم صالحًا عليه السَّلامُ، فكذَّبوا بذلك جميعَ المرسَلينَ؛ لأنَّ دَعوتَهم واحِدةٌ.

كما قال تعالى: كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ [الشعراء: 141–142].

وقال سُبحانه: كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ * فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ [القمر: 23–25].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رضِيَ اللهُ عنهما، ((أنَّ النبيَّ – ﷺ – لَمَّا مَرَّ بالحِجرِ قال: لا تَدخُلوا مَساكِنَ الذين ظَلَموا أنفُسَهم إلَّا أن تكونوا باكِينَ؛ أن يُصيبَكم ما أصابَهم)).[50]

---

(50) رواه البخاري (3380) واللفظ له، ومسلم (2980).

وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (81).

أي: وآتينا ثمودَ حُجَجَنا وبراهينَنا الدَّالَّةَ على صِدقِ رَسولِنا صالِحٍ- ومنها الناقةُ- فكانوا لا يتَّعِظونَ بها ولا يعتَبِرونَ.

كما قال تعالى: وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ [الأعراف: 73-74].

وقال سُبحانه: قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ [الشعراء: 153-155].

وقال عزَّ وجلَّ: وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا [الإسراء: 59].

وقال تبارك وتعالى: وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى [فصلت: 17].

وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (82).

أي: وكان قَومُ صالحٍ يَنحِتونَ مِن الجبالِ مَساكِنَ آمِنينَ فيها مِن المخاوِفِ.

كما قال الله حاكيًا قولَ صالحٍ لِقومه: وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ [الأعراف: 74].

وقال سُبحانه حاكيًا أيضًا قَولَ صالحٍ لِقومِه: أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ [الشعراء: 146-149].

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (83).

أي: فأخَذت قومَ صالحٍ صَيحةُ الهلاكِ في الصَّباحِ.

فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (84).

أي: فما دفَعَ العذابَ عنهم، ولا أجزأَ عنهم ما كانوا يعمَلونه.

كما قال تعالى: أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [غافر: 82].

سورةُ الحِجْرِ

الآيات (85–99)

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ
الْجَمِيلَ (85) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (86) وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ
الْعَظِيمَ (87) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ
جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (88) وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (89) كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ
(90) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (91) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا
يَعْمَلُونَ (93) فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (94) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ
(95) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (96) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ
صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (97) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (98) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى
يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ(99)

غريب الكلمات:

فَاصْفَحِ: أي: فأَعْرِضْ، والصَّفحُ: ترْكُ التَّثريبِ واللَّومِ، والإِعراضُ عن الذَّنبِ؛ لأنَّه إذا أعرض عنه فكأنَّه قد ولَّاه صَفْحتَه، أي: عُرْضَه وجانِبَه، وأصلُ الصَّفحِ: عرضُ الشَّيءِ وجانبُه.

سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي: هي سُورةُ الفاتحةِ، وهي سَبعُ آياتٍ، وسُمِّيَت مَثانيَ؛ لأنَّها تُثنَّى– أي: تُكرَّرُ– في كلِّ صلاةٍ، وقيل غير ذلك، وأصلُ (ثني) تكريرُ الشَّيءِ مرَّتينِ، أو جعلُه شيئينِ مُتواليينِ أو متباينينِ.

أَزْوَاجًا مِنْهُمْ: أي: أصنافًا منهم وأمْثالًا وأشباهًا؛ مِن المُزاوَجةِ بين الأشياءِ، وهي المُشاكَلةُ، وأصلُ (زوج): يدُلُّ على مُقارَنةِ شَيءٍ لِشَيءٍ.

وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ: أي: ألِنْ جانِبَك، واسْكُنْ لهم، وارفُقْ بهم، وجَناحُ الإنسانِ: جانِبُه، وأصلُ (جنح): يدُلُّ على المَيلِ؛ وسُمِّيَ الجناحانِ جَناحَينِ؛ لِمَيلهما في الشِّقَّينِ.

الْمُقْتَسِمِينَ: أي: الذين تقَسَّمَت أقوالُهم في القُرآنِ، فقال بعضُهم: سِحرٌ، وقال بعضُهم: كِهانةٌ، وقال بعضُهم: أساطيرُ الأوَّلينَ، وأصلُ (قسم): يدلُّ على تجزئةِ شيءٍ.

عِضِينَ: أي: مُفرَّقًا؛ لأنَّ المُشركينَ فرَّقوا أقاويلَهم فيه، فجعلوه كَذِبًا وسِحرًا وكِهانةً وشِعرًا؛ من عَضَّيتُ الشَّيءَ تعضيةً: أي: فَرَّقتَه، وأصلُ (عضو): يدلُّ على تجزئةِ الشَّيءِ.

فَاصْدَعْ: أي: فاجهَرْ وأظهِرْ، وأصلُ (صدع): يدلُّ على انفراجٍ في الشَّيءِ.

تفسير الآيات:

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (85).

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ.

أي: وما خَلَقْنا السَّمواتِ والأرضَ وما فيهما وما بينَهما إلَّا لِحِكَمٍ ومَصالِحَ عَظيمةٍ، لا عبثًا وباطِلًا، وخلَقَهما سبحانَه بالعدلِ لا بالظلمِ والجورِ.

كما قال تعالى: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ [ص: 27].

وقال سُبحانه: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ [الدخان: 38-39].

وقال عزَّ وجلَّ: أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ * وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ [المؤمنون: 115-117].

وقال تعالى: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ [آل عمران: 190-191].

وقال سُبحانه: وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى [النجم: 31].

وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ.

أي: وإنَّ يومَ القيامةِ لآتٍ وواقِعٌ لا ريبَ فيه؛ وفيه يُجازَونَ بأعمالِهم، ومِنهم مُشرِكو قَومِك الذين كذَّبوك وآذَوك؛ فأعرِضْ- يا محمَّدُ- عن مؤاخَذتِهم في الدُّنيا، واعفُ عنهم عَفوًا حَسَنًا مِن غَيرِ عِتابٍ.

كما قال تعالى: وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ * فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ [الزخرف: 88-89].

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (86).

أي: إنَّ ربَّك- يا محمَّدُ- قادِرٌ على إقامةِ السَّاعةِ؛ لأنَّه هو الذي خلقَ كُلَّ شَيءٍ، فلا يُعجِزُه شَيءٌ، وسيُعيدُ خَلقَ عِبادِه يومَ البَعثِ، وهو العالِمُ بكُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بما تفرَّق من أجسادِ العبادِ، وعِلمُه بجميعِ أعمالِهم.

كما قال تعالى: أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [يس: 81–82].

وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (87).

أي: ولقد أعطَيناك– يا محمَّدُ– سبعَ آياتٍ؛ هي سُورةُ الفاتحةِ التي تتَّصِفُ بأنَّها مَثانٍ،[51] وهي القرآنُ العَظيمُ القَدْرِ.[52]

---

(51) وممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه تعالى: سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي: الفاتحة: الواحدي، والقرطبي، والبقاعي، وابنُ عاشور، والشنقيطي.

يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: 597)، ((تفسير القرطبي)) (55/10)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (85/11)، ((تفسير ابن عاشور)) (80/14)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (315/2).

ونسَب الواحديُّ والشوكاني هذا القولَ إلى أكثرِ المفسرينَ.

يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (51/3)، ((تفسير الشوكاني)) (170/3).

قال الشوكاني: (ومما يُقوّي كونَ السَّبعِ المثاني هي الفاتحةَ: أنَّ هذه السورةَ مكيَّةٌ، وأكثَرُ السَّبعِ الطِّوال مدنيةٌ، وكذلك أكثرُ القرآن وأكثرُ أقسامِه).

((تفسير الشوكاني)) (170/3).

وقال القرطبي: (وقد قدَّمنا في الفاتحةِ أنَّه ليس في تسميتِها بالمثاني ما يمنعُ مِن تسميةِ غيرِها بذلك، إلَّا أنَّه إذا ورَد عن النبي صلَّى الله عليه وسلَّم، وثبَت عنه نصٌّ في شيءٍ لا يَحتمِلُ التأويلَ؛ كان الوقوفُ عندَه).

((تفسير القرطبي)) (55/10).

وهذا النصُّ هو قولُه صلَّى الله عليه وسلَّم: ((أُمُّ القرآنِ هي السَّبعُ المثاني والقرآنُ الْعَظِيمُ)).

قال ابنُ كثير: (فهذا نصٌّ في أنَّ الفاتحةَ السَّبعُ المثاني والقرآنُ العظيمُ، ولكن لا يُنافي وصفَ غيرِها من السَّبعِ الطُّوَلِ بذلك؛ لما فيها من هذه الصِّفة، كما لا ينافي وصفَ القرآنِ بكماله بذلك أيضًا، كما قال تعالى: اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ [الزمر: 23] فهو مَثانٍ مِن وجهٍ، ومتشابهٌ من وجه، وهو القرآنُ العظيم أيضًا، كما أنَّه – عليه السَّلامُ– لَمَّا سُئِل عن المسجد الذي أُسِّسَ على التقوى، فأشار إلى مسجدِه، والآيةُ نزلتْ في مسجدِ قُباء، فلا تنافيَ؛ فإنَّ ذِكرَ الشَّيءِ لا ينفي ذِكرَ ما عداه إذا اشتركَا في تلك الصفةِ، والله أعلمُ).

((تفسير ابن كثير)) (547/4–548).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: عليٌّ، وابنُ مسعود، وابنُ عباس، وأُبيُّ بنُ كعبٍ، والحسنُ، وأبو العالية.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (113/14، 116).

وفي سببِ اتصافِ الفاتحةِ بكونِها مثانيَ أقوالٌ: منها: أنَّها تُثنَّى في كلِّ صلاةٍ، أي: تُقرَأُ في كلِّ ركعةٍ.

وممن قال بذلك: الواحديُّ، وابنُ عاشور.

يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: 597)، ((تفسير ابن عاشور)) (80/14)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (315/2).

وممن قال بهذا القولِ من السلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ، والحسنُ، وقتادةُ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (118/14)، ((تفسير ابن الجوزي)) (542/2).

ومنها: اشتمالُها على الثناءِ على الله تعالى.

ومنها: أنها قسمان: ثناءٌ ودعاءٌ، وأيضًا النصفُ الأوَّلُ منها حقُّ الربوبيةِ وهو الثناءُ، والنصفُ الثاني حقُّ العبوديةِ، وهو الدعاءُ.

يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (649/12)، ((تفسير ابن الجوزي)) (541/2)، ((تفسير الرازي)) (159/19)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (11/85-86).

وقيل: المرادُ بالسبعِ المثاني: السَّبعُ الطِّوالُ.

يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (55/10).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ مسعودٍ، وابنُ عباسٍ في روايةٍ، وابنُ جبيرٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (107/14)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (2272/7).

قال محمد رشيد رضا: (والقولُ بأنَّها السبعُ الطُّوَلُ، رواه النَّسائي والطَّبَريُّ والحاكِمُ عن ابن عباسٍ بإسنادٍ قويّ، كما قال الحافظ. ولا حاجةَ إلى التفصيلِ فيه؛ فإنه مردودٌ؛ لِمخالفتِه للحديثِ الصحيحِ المرفوعِ، ولا قولَ لأحدٍ [مع] قولِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم).

((تفسير المنار)) (80/1).

قال ابنُ الجوزي: (في تسميتِها [أي: السبعِ الطوالِ] بالمثاني قولانِ: أحدهما: لأنَّ الحدودَ والفرائضَ والأمثالَ ثُنيت فيها، قاله ابنُ عباسٍ.

والثاني: لأنَّها تُجاوزُ المائةَ الأولَى إلى المائةِ الثانيةِ، ذكره الماورديُّ).

((تفسير ابن الجوزي)) (542/2).

وقيل: المرادُ بالسبعِ: الفاتحةُ؛ لأنَّها سبعُ آياتٍ، والمرادُ بالمثاني: كلُّ القرآنِ، ويكونُ التقديرُ: ولقد آتيناك سبعَ آياتٍ هي الفاتحةُ، وهي مِن جملةِ المثاني الذي هو القرآنُ.

قال الرازي: (وهذا القولُ عينُ الأوَّلِ [أي: تفسيرِ السبعِ المثاني بأنَّها الفاتحةُ]، والتفاوتُ ليس إلَّا بقليلٍ والله أعلم).

((تفسير الرازي)) (161/19).

ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (121/14، 124).

وقيل: المرادُ بـ سَبْعًا: السبعُ الطوالُ، والمرادُ بالمثاني: القرآنُ.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (373/3).

وفي سببِ تسميةِ القرآنِ بالمثاني أقوالٌ: منها: أنَّ بعضَ الآياتِ يتلو بعضًا، فتُثنى الآخرةُ على الأولَى، ولها مقاطعُ تفصِلُ الآيةَ بعدَ الآيةِ حتى تنقضيَ السورةُ.

ومنها: أنَّه سُمِّي بالمثاني لما يترددُ فيه مِن الثناءِ على الله عزَّ وجلَّ.

وقيل غيرُ ذلك.

يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (542/2).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (124/14).

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ – ﷺ –: ((أمُّ القُرآنِ هي السَّبعُ المَثاني، والقُرآنُ العَظيمُ)).[53]

وكلمةُ (من) في قولِه: مِنَ المَثَانِي لبيانِ الجنسِ، وقيل: للتبعيضِ.

يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (543/2)، ((تفسير ابن عطية)) (373/3).

(52) وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالقرآنِ العظيمِ هنا: الفاتحةُ أيضًا: القرطبي، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (55/10)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (315/2).

قال الشنقيطي: (قيل لها: «القرآنُ العظيمُ»؛ لأنَّها هي أعظمُ سورةٍ؛ كما ثبَت عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في الحديثِ الصحيحِ).

((أضواء البيان)) (315/2).

وقال القرطبي: (لاشتمالِها على ما يتعلَّقُ بأصولِ الإسلامِ).

((تفسير القرطبي)) (55/10).

وقال الخطَّابي في شرحِ حديثِ ((هي السَّبعُ المثاني والقرآنُ العظيم)): (وفيه بيانُ: أنَّها القرآنُ العظيمُ، وأنَّ الواوَ في هذه الآيةِ ليست بواوِ العطفِ الموجبةِ الفصلَ بينَ الشيئينِ، وإنَّما هي الواوُ التي تجيءُ بمعنى التخصيصِ والتفضيلِ، كقوله عزَّ وجلَّ: فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ [الرحمن: 68]، وكقوله: مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ [البقرة: 98] ونحو ذلك).

((أعلام الحديث)) (1798/3).

وقيل: القرآنُ العظيم مرادٌ به جميعُ القرآنِ.

وممن اختار هذا المعنى: ابنُ جرير، والواحدي، وابنُ عاشور.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (126/14)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 597)، ((تفسير ابن عاشور)) (81/14).

قال الزمخشري: (فإن قلتَ: كيف صحَّ عطفُ القرآنِ العظيم على السَّبعِ؟ وهل هو إلَّا عطفُ الشيءِ على نفسِه؟! قلتُ: إذا عُنِيَ بالسَّبعِ الفاتحةُ أو الطوالُ فمَا وراءهنَّ ينطلِقُ عليه اسمُ القرآنِ؛ لأنَّه اسمٌ يقعُ على البعضِ كما يقعُ على الكلِّ، ألا ترى إلى قولِه: بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ يعني سورةَ يوسفَ).

((تفسير الزمخشري)) (319/2).

ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (416/4).

(53) رواه البخاري (4474).

وعن أبي سَعيدِ بنِ المُعلَّى رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كنتُ أصلّي في المسجِدِ، فدعاني رسولُ اللهِ – ﷺ – فلم أُجبْه، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، إنّي كنتُ أصلّي، فقال: ألم يَقُلِ اللهُ: اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ [الأنفال: 24]؟! ثم قالَ لي: لأعلّمَنَّك سورةً هي أعظمُ السُّوَرِ في القُرآنِ قبل أن تخرُجَ مِن المسجِدِ، ثمَّ أخذَ بيدي، فلمَّا أراد أن يخرُجَ قُلتُ له: ألم تقُلْ: لأعلّمَنَّك سورةً هي أعظمُ سورةٍ في القُرآنِ؟ قال: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ هي السَّبعُ المثاني، والقُرآنُ العظيمُ الذي أوتيتُه)).(54)

لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (88).

لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ.

أي: لا تنظُرَنَّ – يا محمَّدُ – وتتطلَّعَنَّ إلى نعيمِ الدُّنيا الَّذي متَّعْنا به أصنافًا مِن الأغنياءِ مِن قومِك، الذين لا يُؤمِنونَ باللهِ واليومِ الآخرِ، ولا تتمنَّاه، واستغنِ بما آتاك اللهُ مِن القرآنِ عمَّا هم فيه مِن المَتاعِ الفاني؛ فقد أُوتيتَ تلك النِّعمةَ العُظمَى، التي كلُّ نِعمةٍ أُخرَى وإن عَظُمَت، فهي حقيرةٌ في جانبِها.

كما قال تعالى: وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى [طه: 131].

---

(54) رواه البخاري (4474).

وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ.

أي: ولا تحزَنْ على الكُفَّارِ أنَّهم لم يُؤمِنوا، فقَدْ بَلَّغْتَ رسالةَ ربِّك.

كما قال تعالى: وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ [آل عمران: 176].

وقال سُبحانه: وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ [النحل: 127].

وقال عزَّ وجلَّ: وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ [لقمان: 23-24].

وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ.

أي: وألِنْ جانِبَك للمُؤمنينَ، وارفُقْ بهم، وتواضَعْ لهم.

كما قال تعالى: وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ [الشعراء: 215].

وقال سُبحانه: فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ [آل عمران: 159].

وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (89).

أي: وقُلْ- يا محمَّدُ- للمُشركِينَ: إِنِّي أنا النَّذيرُ الذي قد أبان إنذارَه، وأظهَرَ الحَقَّ لكم، أُنذِرُكم عذابَ اللهِ إن لم تُؤمِنوا به.

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا [الأحزاب: 45- 46].

وعن أبي موسى الأشعريِّ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: ((مَثَلي ومثَلُ ما بعَثَني اللهُ، كمَثَلِ رجُلٍ أتَى قومًا، فقال: رأيتُ الجيشَ بِعَينَيَّ، وإِنِّي أنا النَّذيرُ العُريانُ،[55] فالنَّجاءَ النَّجاءَ،[56]

---

(55) النذيرُ العُريان: مثلٌ مَشهورٌ سائِرٌ بين العرَبِ، يُضرَبُ لشِدَّةِ الأمرِ، ودنُوِّ المحذورِ، وبراءةِ المُحَذِّرِ عن التُّهمةِ، وأصلُه: أنَّ الرجُلَ إذا رأى العدُوَّ قد هجَم على قومِه، وأراد أن يفاجِئَهم وكان يخشى لُحوقَهم قبل لُحوقِه، تجَرَّدَ عن ثوبِه وجعلَه على رأسِ خَشَبةٍ وصاح؛ ليأخُذوا حِذرَهم.

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (231/1).

(56) فالنَّجاءَ النَّجاءَ: أَي: اطلُبوا النَّجاةَ بأن تُسرِعوا الهرَب.

يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (317/11).

فأطاعَته طائِفةٌ فأَدلَجوا[57] على مَهَلِهم[58] فنَجوا، وكذَّبَته طائفةٌ فصَبَّحَهم الجيشُ[59] فاجتاحَهم[60]).[61]

كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (90).

أي: وأنذِرْ قومَك عذابًا مثلَ العذابِ الذي نزلَ على الذين اقْتَسَموا القرآنَ.[62]

---

(57) فأدلجوا: أي: سارُوا أوَّلَ الليلِ، أو ساروا اللَّيلَ كُلَّه.
يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (231/1).
(58) على مَهَلِهم: المَهَلُ: الهِينةُ والسُّكونُ والتأنِّي.
يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (231/1).
(59) فصَبَّحهم الجَيشُ: أي: أتاهم جيشُ العَدُوِّ صَباحًا للإغارةِ.
يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (231/1).
(60) فاجتاحهم: أي: استأصَلَهم وأهلكَهم بالكُلِّيَّةِ.
يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (231/1).
(61) رواه البخاري (6482) واللفظ له، ومسلم (2283).
(62) اختلف في المعنيّ بـــ ﴿المقتسمين﴾ في هذه الآية على أقوال: الأول: أنهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، اقتسموا القرآن فجعلوه أعضاء، فآمنوا ببعض منها وكفروا ببعض.
الثاني: أنهم أهل الكتاب، اقتسموا القرآن استهزاءً به، فقال بعضهم: هذه السورة لي، وهذه السورة لك.
الثالث: أنهم أهل الكتاب، اقتسموا كتبهم، فآمن بعضهم ببعضها، وآمن آخرون منهم بما كفر به غيرهم وكفروا بما آمن به غيرهم.
الرابع: أنهم رهط من كفار قريش بأعيانهم.
الخامس: أنهم رهط من قوم صالح، الذين تقاسموا على تبييت صالح وأهله.
ووجَّه ابنُ عطية (٥/ ٣١٨) هذا بقوله: «فالمقتسمون –على هذا– مِن القَسَم».
السادس: أنهم قوم من كفار قريش اقتسموا طرق مكة ليتلقوا الواردين إليها من القبائل، فينفروهم عن رسول الله – ﷺ – بأنّه ساحر أو شاعر أو كاهن أو مجنون، حتى لا يؤمنوا به.

كما قال تعالى: فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ [فصلت: 13].

الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (91).

الذين فرَّقوا القرآنَ أجزاءً، وافتروا عليه الباطلَ؛ فقال بعضُهم: هو شعرٌ، وقال بعضُهم: هو سحرٌ، وقال بعضُهم: هو كهانةٌ، وقال بعضُهم: هو أساطيرُ الأولينَ.(63)

ورجَّح ابنُ جرير (١٤/ ١٣٣) مستندًا إلى دلالة عموم ظاهر الآية شمول الآية لجميع الأقوال، فقال: «والصواب من القول في ذلك عندي أن يُقال: إنّ الله -تعالى ذِكْره- أمر نبيَّه - ﷺ - أن يُعلِم قومَه الذين عَضُّوا القرآن ففرَّقوه، أنه نذيرٌ لهم من سخط الله تعالى وعقوبته أن يَحُلَّ بهم على كفرهم ربَّهم وتكذيبِهم نبيَّهم ما حلَّ بالمقتسمين من قبلهم ومنهم».

ثم بيَّن أنّه جائزٌ أن يكون عُني بـ ﴿المقتسمين﴾ أحد هذه الأقوال، ثم قال (١٤/ ١٣٤): «فإذ لم يكن في التنزيل دلالةٌ على أنه عُنِيَ به أحد الفرق الثلاثة دون الآخرين، ولا في خبرٍ عن الرسول - ﷺ -، ولا في فطرة عقلٍ، وكان ظاهر الآية مُحْتَمِلًا ما وصفْتُ؛ وجَبَ أن يكون مَقْضِيًّا بأنّ كلَّ من اقتسم كتابًا لله، بتكذيبِ بعضٍ وتصديق بعض، واقتسم على معصيةِ الله، مِمَّن حلَّ به عاجلُ نقمةِ الله في الدار الدنيا قبل نزول هذه الآية؛ فداخلٌ في ذلك؛ لأنهم لأشكالهم من أهل الكفر بالله كانوا عِبْرةً، وللمتَّعظين بهم منهم عِظَةً».

وانتقد ابنُ عطية (٥/ ٣١٨) القول الخامس مستندًا إلى السياق، قائلًا: «ويقلق هذا التأويل مع قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾».

(63) اختُلِف في معنى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ على أقوال: الأول: الذين جعلوا القرآن فِرَقًا مُفْتَرِقة.

الثاني: الذي عَضَهُوا القرآن، فقالوا: سِحْرٌ، أو هو شعرٌ.

الثالث: عَنَى بالعَضْهِ في هذا الموضع نسبتهم إيّاه إلى أنه سِحْرٌ خاصة، دون غيره من معاني الذَّمّ.

ووجَّه ابنُ جرير (١٤/ ١٣٦) القول الأول، وهو قول ابن عباس من طريق سعيد بن جبير، وابن أبي طلحة، وقول الضحاك وما في معناه بقوله: «فوجَّه قائلو هذه المقالة قوله: ﴿عِضِينَ﴾ إلى أن واحدها: عُضْوٌ، وأن عِضِينَ جمعُه، وأنّه مأخوذٌ مِن قولهم: عَضَّيتُ الشيءَ تَعْضِيَةً، إذا فرَّقته».

واستشهد ببيتين من الشعر.

ووجَّهه ابنُ عطية (٥/ ٣٢٠)، فقال: «ومن قال: جعلوه أعضاءً.

فإنّما أراد: قسَّموه كما يقسم الجزور أعضاءً».

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما قال: (هم أهلُ الكتابِ؛ جَزَّؤوه أجزاءً، فآمَنوا ببَعضِه، وكَفَروا ببعضِه)، يعني: قولَ الله تعالى: الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ.(64)

فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92).

أي: فأُقسِمُ بربِّك– يا مُحَمَّدُ– لنسألَنَّهم يومَ القيامةِ أجمعين.

عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93).

ووجَّه ابنُ جرير (١٤/ ١٣٦) لفظة ﴿عِضِينَ﴾ على القول الثاني بقوله: «هي جمع عِضَةٍ، جُمِعَت عِضِين كما جُمِعَت البُرَةُ: بُرِين، والعِزَةُ: عِزِين، فإذا وُجِّه ذلك إلى هذا التأويل كان أصل الكلام: عِضَهَةً، ذهبت هاؤها الأصلية، كما نَقَصُوا الهاء من الشَّفَة، وأصلها: شَفَهَةٌ، ومن الشاة وأصلها: شاهةٌ، يدلُّ على أنّ ذلك الأصلَ تصغيرُهم الشَّفَةَ: شُفَيْهَةً، والشاة: شُوَيْهَةً، فيَرُدُّون الهاء التي تسقُطُ في غير حال التصغير إليها في حال التصغير، يقال منه: عَضَهْتُ الرجل أعْضَهُهُ عَضْهًا إذا بَهَتَّه وقذَفْته ببُهتانٍ».

ثم رجَّح مستندًا إلى السياق، ودلالة واقع الحال «أن يقال: إن الله –تعالى ذِكْره– أمر نبيَّه – ﷺ – أن يُعْلِم قومًا عَضَهُوا القرآن، أنّه لهم نذيرٌ مِن عقوبةٍ تَنزِل بهم بِعَضْهِهم إيّاه، مثل ما أنزَلَ بالمقتسمين، وكان عَضْهُهم إيّاه قَذْفَهُمُوه بالباطل، وقيلَهم: إنّه شعرٌ وسحرٌ، وما أشبه ذلك.

وإنّما قلنا إنّ ذلك أولى التأويلات به لدلالة ما قبله من ابتداء السورة وما بعده، وذلك قوله: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾، على صحة ما قلنا، وإنه إنما عَنَى بقوله: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ مشركي قومه، وإذ كان ذلك كذلك فمعلومٌ أنه لم يكن في مشركي قومه مَن يؤمن ببعض القرآن ويكفر ببعض، بل إنما كان قومه في أمره على أحد معنيين: إما مؤمنٌ بجميعه، وإما كافرٌ بجميعه، وإذ كان ذلك كذلك، فالصحيح من القول في معنى قوله: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ قول الذين زعموا أنهم عَضَهُوه، فقال بعضهم: هو سحرٌ.

وقال بعضهم: هو شعرٌ.

وقال بعضهم: هو كهانةٌ.

وما أشبه ذلك من القول، أو عَضَّوْه ففَرَّقوه، بنحو ذلك من القول، وإذا كان ذلك معناه، احتمل قوله: ﴿عِضِينَ﴾ أن يكون جمعَ: عِضَةٍ، واحتمل أن يكون جمع: عُضْوٍ».

(64) رواه البخاري (3945).

أي: عمَّا كانوا يعمَلونَه في الدُّنيا.

فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (94).

فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ.

أي: فاجهَرْ بدينِ اللهِ– الذي أمَرْناك بتبليغِه– وأظْهِرْه علانيةً، وفرِّقْ بين الحَقِّ والباطِلِ حتى تقومَ على النَّاسِ الحُجَّةُ.

وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ.

أي: بلِّغْ ما أُنزِلَ إليك من ربِّك، ولا تلتَفِتْ إلى المُشركِينَ الذين يَصدُّونَك عن تبليغِ دينِ اللهِ، ولا تُبالِ باستِهزائِهم، واكفُفْ عن قِتالِهم.(65)

---

(65) وهذه الآيةُ قيل: إنَّها منسوخةٌ بآيةِ السيفِ، وهي قولُه تعالى: فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، وابنُ عطية، والشنقيطي، ونسبه ابنُ الجوزي إلى أكثرِ المفسِّرينَ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (145/14)، ((تفسير ابن عطية)) (375/3)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: 93).

ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (545/2).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (145/14).

وقيل: إنها مُحكَمةٌ.

وممن قال بذلك: السخاوي، والقنوجي.

يُنظر: ((جمال القراء)) للسخاوي (740/2)، ((تفسير القنوجي)) (200/7).

قال ابن جُزي: (إن كان معناه: أعرِضْ عمَّا يدعونَك إليه أو عن مجادلتِهم، فهو مُحكَم، وإن كان عن قتالِهم وعقابِهم فهو منسوخٌ).

((تفسير ابن جزي)) (272/1).

كما قال تعالى: اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ [الأنعام: 106].

وقال عزَّ وجلَّ: فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ [السجدة: 30].

وقال تبارك وتعالى: وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا [المزمل: 10].

إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (95).

أي: إنَّا كَفَيناك الذين يَستهزِئونَ بك وبما جئتَ به، وسنَحفَظُك منهم ونعاقِبُهم؛ فبلِّغْ ما أمَرَك اللهُ ولا تخشَهم.

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ [المائدة: 67].

ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (673/12)، ((معترك الأقران)) للسيوطي (276/3)، ((تفسير أبي السعود)) (171/3).

ومن أهلِ العلمِ مَن ذهب إلى أنَّ هذه الآيةَ وغيرَها مِن الآياتِ التي فيها الصَّفحُ والكَفُّ عمَّن لم يقاتِلْ من المشركين، ليست منسوخةً بآيةِ السيفِ، وأنَّ آيةَ السيفِ إنَّما يُعملُ بها في حالِ العزَّةِ والقوةِ والمنعةِ للمسلمينَ، وأمَّا آياتُ الموادعةِ والصفحِ والكفِّ فيُعملُ بها في حالِ الضعفِ والعجزِ، وأنَّ الأمرَ موكولٌ إلى وليِّ الأمرِ؛ إن شاء قاتَلَ، وإن شاء كفَّ، وإن شاء قاتلَ قومًا دون قومٍ، على حسبِ القوَّةِ والقدرةِ والمصلحةِ للمسلمينَ.

قال ابن باز: (وهذا القولُ أظهرُ وأبينُ في الدليلِ؛ لأنَّ القاعدةَ الأصوليَّةَ أنَّه لا يُصارُ إلى النسخِ إلَّا عند تعذُّرِ الجمعِ بين الأدلَّة، والجمعُ هنا غيرُ متعَذِّر).

((مجموع فتاوى ابن باز)) (194/3).

ويُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: 221).

الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (96).

الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ.

أي: نكفيك هؤلاء المُستَهزِئينَ الذين يتَّخِذونَ مع الله– المستحِقّ للعبادةِ وَحدَه– شريكًا في عبادتِه يَعبُدونَه معه.

فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ.

أي: فسوف يعلمونَ– يومَ القيامةِ– ما يَلقَونَ مِن العذابِ.

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (97).

أي: وإنَّا لنعلَمُ– يا محمَّدُ– أنَّك يضيقُ صَدرُك؛ بسبَبِ ما تسمَعُه مِن مُشرِكي قَومِك، مِن تكذيبٍ واستهزاءٍ، وطعنٍ في دينِ الله سُبحانَه.

كما قال تعالى: قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ [الأنعام: 33].

وقال سُبحانه: فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ [هود: 12].

فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (98).

أي: فافزَعْ- فيما نابك مِن أمرٍ تَكرهُه منهم- إلى تنزيهِ رَبِّك عن كُلِّ ما لا يليقُ به تنزيهًا مُتلَبِّسًا بحَمدِه سُبحانَه، وافزَعْ إلى الصَّلاةِ لِرَبِّك.

كما قال تعالى: فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى [طه: 130].

وقال سُبحانه: فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ [غافر: 55].

وقال تعالى: يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ [البقرة: 153].

وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (99).

أي: وتقَرَّبْ إلى رَبِّك على وجهِ الذُّلِّ والخضوعِ والمحبَّةِ له، وداوِمْ على عبادتِه، حتى يأتيَك الموتُ وأنت على ذلك.

كما قال تعالى: وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ [المدثر: 45-47].

وعن أمِّ العَلاءِ الأنصاريَّةِ رضِيَ اللهُ عنها، ((أنَّ النبيَّ – ﷺ – قال لَمَّا توفِّيَ عُثمانُ بنُ مَظعونٍ: أمَّا عُثمانُ فقد جاءه– واللهِ– اليَقينُ)).[66]

وعن أبي هُريرةَ رضِيَ اللهُ عنه، عن رسولِ اللهِ – ﷺ – أنَّه قال: ((مِن خيرِ مَعاشِ النَّاسِ لهم رجلٌ مُمسِكٌ عِنانَ[67] فَرَسِه في سَبيلِ الله، يطيرُ على مَتنِه،[68] كلَّما سمِعَ هَيعةً[69] أو فَزعةً طار عليه؛ يبتغي القَتلَ والموتَ مَظانَّه، أو رجلٌ في غُنيمةٍ في رأسِ شعَفةٍ[70] مِن هذه الشَّعَفِ، أو بطنِ وادٍ مِن هذه الأوديةِ، يُقيمُ الصَّلاةَ، ويُؤتي الزَّكاةَ، ويَعبُدُ رَبَّه حتى يأتيَه اليقينُ، ليس مِن النَّاسِ إلَّا في خيرٍ)).[71]

---

(66) رواه البخاري (2687).

(67) العِنانُ: اللِّجامُ الذي تُمسَكُ به الدَّابَّةُ.

يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (414/35).

(68) يطيرُ على مَتْنِه: أي: يُسرِعُ راكِبًا على ظَهرِه.

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (2459/6).

(69) هَيْعةً: أي: صَيحةً.

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (2459/6).

(70) في رأس شَعَفةٍ: أي: رأسِ جَبَلٍ.

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (2460/6).

(71) رواه مسلم (1889).

تَفْسِيرُ
سُورَةِ النَّحلِ

سورةُ النَّحلِ

سورةُ النَّحلِ

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (النَّحلِ).[72]

فعن أُبيّ بنِ كَعبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّه قال: ((سَمِعتُ رَجُلًا يقرأُ في سورةِ النَّحلِ قِراءةً تُخالِفُ قراءتي، ثم سمِعتُ آخَرَ يَقرؤُها قراءةً تُخالِفُ ذلك، فانطلقتُ بهما إلى رَسولِ اللهِ - ﷺ -، فقلتُ: إنِّي سَمِعتُ هذين يقرأانِ في سورة النَّحلِ، فسألتُهما: مَن أقرَأهما؟ فقالا: رسولُ اللهِ - ﷺ -...)).[73]

---

(72) سُمِّيَت هذه السورةُ سورةَ النَّحلِ؛ لِمَا فيها من عجائِبِ النَّحلِ في قَولِه تعالى: وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ... [النحل: 68-69]، ولأنَّ لفظَ النَّحلِ لم يُذكَرْ في سورةٍ أخرى.

يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (278/1)، ((تفسير ابن عاشور)) (93/14)، ((تفسير أبي زهرة)) (4120/8).

وتُسمَّى أيضًا عندَ بعضِ السلفِ بسورةِ (النِّعَم)؛ وذلك بسبَبِ ما عدَّدَ اللهُ فيها مِن نِعَمِه على عبادِه.

يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (65/10)، ((تفسير ابن عاشور)) (93/14).

(73) أخرجه ابن جرير في ((التفسير)) (38).

وذكَر ابنُ جريرٍ أنَّه ثابتٌ، وصحَّح إسنادَه ابنُ كثيرٍ في ((فضائل القرآن)) (100).

والحديث أصله في ((صحيح مسلم)) (820).

بيان المكي والمدني:

سورةُ النَّحلِ سورةٌ مكِّيَّةٌ.(74)

مِن أهمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:

1- إقامةُ الأدلةِ على وحدانيةِ الله تعالى، وعلى اليومِ الآخرِ، وإثباتُ صِدق الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم، وما جاء به.

2- الردُّ على شُبَهِ المشركينَ، وزجرُهم عمَّا هم عليه، وإنذارُهم.

3- بيانُ آلاءِ الله تعالى ونِعمِه على خلقِه.

مِن أهمِّ الموضوعاتِ التي اشْتَمَلت عليها هذه السُّورةُ:

1- التأكيدُ على أنَّ يومَ القيامةِ حقٌّ، وأنَّه آتٍ لا ريبَ فيه.

2- إثباتُ وَحدانيَّةِ اللهِ، وبيانُ قُدرتِه في خَلقِ السَّمواتِ والأرضِ، وخَلقِ الإنسانِ والحيوانِ، وإنزالِ الماءِ مِن السماءِ، وتسخيرِ الشمسِ والقمرِ، والليلِ والنهارِ إلى غيرِ ذلك.

---

(74) وقيل: مكِّيَّةٌ إلا ثلاثَ آياتٍ منها نزلتْ بالمدينةِ، وهي قولُه تعالى: وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا [النحل: 95] إلى قولِه تعالى: وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [النحل: 97] نزَلتْ بعدَ قتلِ حمزةَ بأُحُدٍ.
وقيل: مكيَّةٌ غيرَ ثلاثِ آياتٍ في آخِرِها.
يُنظر: ((تفسير الطبري)) (158/14)، ((تفسير الماوردي)) (177/3)، ((الوسيط)) للواحدي (55/3)، ((تفسير الزمخشري)) (592/2).

3- ذِكرُ النِّعَمِ المتنوِّعةِ على الإنســـانِ، ومنها ما فى الأنعامِ مِن المنافعِ، وما فى المراكبِ من الزِّينةِ، إلى غيرِ ذلك من النِّعَمِ التي لا تُحصى.

4- التَّحذيرُ ممَّا حلَّ بالأممِ التي أشـركَت باللهِ وكذَّبَت رسُـلَه- عليهم الســلامُ- من عذابِ الدنيا، وما ينتظرُهم من عذابِ الآخرة؛ ومقابلةُ ذلك بضِـدِّه من نعيمِ المتَّقين المصـدِّقين، والصَّـابرين على أذى المشركين، والذين هاجروا في سبيلِ الله تعالى.

5- ذكرُ عادةِ أهلِ الجاهليَّةِ في كراهيةِ البَناتِ، ووأدِهم أحياءً.

6- ضربُ الأمثالِ للمؤمنِ والكافرِ، والشاكرِ والجاحدِ، والإلهِ الحقّ والآلهةِ الباطلةِ.

7- ذكرُ حالِ المُشركِينَ مع الأوثانِ يومَ القيامةِ.

8- ذِكرُ بَعضِ مكارمِ الأخلاقِ؛ مِن العَدلِ والإحســانِ والبَذلِ، والنَّهيِ عن الفَحشــاءِ والمُنكَر والبَغيِ، والدَّعوةِ إلى الوفاءِ بالعَهدِ، والنَّهيِ عن نَكثِ العُهودِ والأيمانِ.

9- ذِكرُ بعضِ الشُّبُهاتِ التي أثارها المشركون حولَ القرآنِ، مع الردِّ عليها بما يَدحَضُها.

10- بيانُ بعضِ آدابِ المُؤمنِ عندَ قراءةِ القُرآنِ.

11- ذِكْرُ جانبٍ مِن قصةِ إبراهيمَ عليه السلامُ، كمثالٍ للشَّاكرينَ.

12- بيانُ أنَّ التَّحليلَ والتَّحريمَ مِن اللهِ وَحدَه.

13- ذِكرُ حُكمِ من يكفُرُ بعد إيمانِه، ومَن يُكرَهُ على الكُفرِ وقَلبُه مُطمئِنٌّ بالإيمانِ، ومن فُتِنوا عن دينِهم ثمَّ هاجَروا وجاهَدوا وصَبروا.

14- ذكرُ أهمّ الأساليبِ في الدعوةِ إلى الله تعالى، وفي معاملةِ الناس، مِن الدعوةِ بالحكمةِ، والموعظةِ الحسنةِ، والجدالِ بالتي هي أحسنُ، وفضيلةِ الصبرِ إلى غير ذلك.

سورةُ النَّحلِ

الآيات (1-4)

أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (1) يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ
أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (2) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (3) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (4)

غريب الكلمات:

بِالرُّوحِ: أي: بِالوَحْيِ، وسُمِّيَ رُوحًا؛ لأنَّه حَياةٌ مِن مَوتِ الكُفرِ، فصار يحيا به النَّاسُ كالرُّوحِ الذي يحيا به الجَسدُ، أو: لأنَّ الوحيَ به حياةُ الأرواحِ.

نُطْفَةٍ: النُّطفةُ: المنيُّ، وقيل: الماءُ الصَّافي قلَّ أو كَثُر، وقيل: الماءُ القليلُ، وأصلُ (نطف): يدُلُّ على نَدوةٍ وبَلَلٍ.

خَصِيمٌ: أي: مُخاصِمٌ، جَدِلٌ بِالباطِلِ، وأصلُ (خصم): يدُلُّ على المُنازَعةِ.

تفسير الآيات:

أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (1).

أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ.

أي: قَرُبَ مجيءُ يومِ القيامةِ بأهوالِه، وقَضاءُ اللهِ بعَذابِكم– أيُّها الكُفَّارُ– فلا تَستعجِلوا ذلك؛ فإنَّه آتٍ لا مَحالةَ.[75]

---

(75) اختلف في معنى: ﴿أتى أَمْرُ اللَّهِ﴾ في هذه الآية على أقوال: الأول: أمر الله: فرائضه وأحكامه.

الثاني: أنه وعيدٌ من الله لأهل الشرك به.

الثالث: خروج رسول الله – ﷺ –.

الرابع: أنه القيامة.

ورجَّح ابنُ جرير (١٤/ ١٥٩) مستندًا إلى السياق القول الثاني، وعلَّل ذلك بقوله: «وذلك أنه عقَّب ذلك بقوله: ﴿؟ عَمّا يُشْرِكُونَ﴾، فدل بذلك على تقريعه المشركين به، ووعيده لهم».

وانتقد القول الأول مستندًا إلى ظاهر لفظ الآية والواقع، وعلَّل ذلك بقوله: «فإنه لم يَبْلُغنا أن أحدًا من أصحاب رسول الله – ﷺ – استعجل فرائض قبل أن تُفرَض عليهم؛ فيقال لهم مِن أجل ذلك: قد جاءتكم فرائض الله فلا تستعجلوها.

وأما مستعجلو العذاب من المشركين فقد كانوا كثيرًا».

وكذا ابن كثير (٨/ ٢٨٩) فوصفه بأنه قولٌ عجيب.

وكذا ابنُ عطية (٥/ ٣٢٥)، فقال: «ويُبعِده قوله: ﴿فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾؛ لأنّا لا نعرف استعجالًا إلا ثلاثة: اثنان منها للكفار في القيامة، وفي العذاب، والثالث للمؤمنين في النصر وظهور الإسلام».

ثم وجَّهه بقوله: «وقوله: ﴿أتى﴾ –على هذا القول– إخبارٌ عن إتيان ما سيأتي، وصح ذلك على جهة التأكيد».

ووجَّه (٣/ ٣٧٧ ط. دار الكتب العلمية) القول الرابع بقوله: «ومن قال: إن الأمر القيامة.

قال: إن قوله: ﴿فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ ردٌّ على المكذبين بالبعث القائلين متى هذا الوعد».

وزاد ابنُ عطية (٥/ ٣٢٥) قولين آخرين: الأول: أنه نصر محمد – ﷺ –.

والثاني: أنه تعذيب كفار مكة بقتل محمد عليه الصلاة والسلام لهم وظهوره عليهم.

كما قال تعالى: اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ [الأنبياء: 1].

وقال تبارك وتعالى: اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ [القمر: 1].

وقال سُبحانه: وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ [العنكبوت: 53-54].

وقال عزَّ وجلَّ: يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ [الشورى: 18].

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ.

أي: تنزَّهَ اللهُ عن أن يكونَ له شريكٌ، وعمَّا يَصِفُه به المُشرِكونَ ممَّا لا يليقُ به تعالى، ومِن ذلك وصفُهم له بعدمِ القدرةِ على بَعثِ الأمواتِ.

ووجَّه القول الثاني منهما بقوله: «ومن قال: إن الأمر تعذيب الكفار بنصر محمد - ﷺ - وقتله لهم. قال: إن قوله: ﴿فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ ردٌّ على القائلين: ﴿عَجِّلْ لَنا قِطَّنا﴾ ونحوه من العذاب، أو على مستبطئي النصر من المؤمنين في قراءة من قرأ بالتاء -وهي قراءة الجمهور- على مخاطبة المؤمنين، أو على مخاطبة الكافرين، بمعنى: قل لهم: فلا تستعجلوه».

يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ

(2).

يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ.

أي: يُنزِّلُ اللهُ جبريلَ بالوَحيِ – الذي هو كَلامُه – مِنْ أمْرِه، على من يَشاءُ مِن عِبادِه الذين اختارهم للنبُوَّةِ. (76)

---

(76) اختلف في معنى «الروح» في هذه الآية على أقوال: الأول: الوحي.

الثاني: النبوة.

الثالث: الرحمة والوحي.

الرابع: كل كلام الله روح.

الخامس: أنه لا ينزل ملك إلا ومعه روح.

وهو قول مجاهد.

وأن الروح خلق من الملائكة.

وهو قول ابن جريج.

وزاد ابن عطية (٥/ ٣٢٦، ٣٢٧) قولًا نسبه إلى الزجاج: أنّ الروح: ما تحيا به القلوب من هداية الله تعالى لها.

ثم علَّق عليه بقوله: «وهذا قول حسن».

ووجَّهه بقوله: «وكأن اللفظة على جهة التشبيه بالمقايسة، أي: إن هذا الذي أُمِر الأنبياء أن ينذروا به الناس من الدعاء إلى التوحيد هو بالمقايسة إلى الأوامر التي هي في الأفعال والعبادات كالروح للجسد، ألا ترى قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وجَعَلْنا لَهُ نُورًا﴾ [الأنعام: ١٢٢]».

ثم بيَّن معنى ﴿مِن﴾ على هذا القول وعلى باقي الأقوال، فقال: «و﴿مِن﴾ في هذه الآية –على هذا التأويل الذي قدرناه– للتبعيض، وعلى سائر الأقوال لبيان الجنس».

ونقل ابن عطية عن ابن جريج قوله: «الروح: شخص له صورة كصورة بني آدم، ما نزل جبريل قط إلا وهو معه، وهم كثير، وهم ملائكة».

وانتقده مستندًا إلى عدم الدليل على صحته قائلًا: «وهذا قول ضعيف لم يأتِ به سند».

كما قال تعالى: اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ [الحج: 75].

وقال سُبحانه: يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ [غافر: 15].

وقال تبارك وتعالى: وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا [الشورى: 52].

أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ.

أي: بأن أنذِروا– أيُّها الرُّسُلُ– الناسَ عذابي إن أشرَكوا بي؛ فإنَّه لا يستحِقُّ العبادةَ غَيري، فاحذَروني– أيُّها النَّاسُ– بإخلاصِ العبادةِ لي، وامتثالِ أوامِري، واجتنابِ نواهِيَّ؛ لتَنْجوا مِن عذابي.

كما قال تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ [الأنبياء: 25].

وقال سُبحانه: وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ [النحل: 36].

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (3).

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ.

أي: خَلقَ اللهُ السَّمواتِ والأرضَ بالعَدلِ، ولم يخلُقْهنَّ عَبثًا؛ وذلك ليُعبَدَ وَحدَه، ولِيَعلمَ النَّاسُ عَظَمةَ خالِقِها، ويَعلَموا قُدرتَه على إعادةِ خَلقِه يومَ القيامةِ الذي يُجازي فيه كلَّ عاملٍ بحسَبِ عَمَلِه.

تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ.

أي: تعاظَمَ اللهُ عن شِركِ المُشرِكِينَ، وترفَّعَ أن يكونَ له شَرِيكٌ؛ فهو المُنفَرِدُ بالخَلقِ، المُستحِقُّ وَحدَه لعبادةِ خَلقِه؛ فلا يكونُ إلهًا إلَّا مَن يخلُقُ بقُدرتِه مثلَ السَّمواتِ والأرضِ، فيُحدِثُها مِن غيرِ شَيءٍ، على غيرِ مثالٍ سابقٍ، وليس ذلك في قُدرةِ أحدٍ سوى اللهِ الواحِدِ.

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (4).

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ.

أي: خلقَ اللهُ الإنسانَ مِن منيّ الرَّجُلِ ومَنيّ المرأةِ.

كما قال تعالى: وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى [النجم: 45-46].

وقال سُبحانه: إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ [الإنسان: 2].

وقال عزَّ وجلَّ: أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ [المرسلات: 20-23].

وقال جلَّ جلالُه: قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ [عبس: 17- 19].

وقال تبارك وتعالى: فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ [الطارق: 5-7].

فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ.

أي: فإذا بهذا الإنسانِ– الذي خلقَه اللهُ مِن نُطفةٍ– يُصبحُ مُخاصِمًا ظاهِرَ الخُصومةِ، يُبِينُ عن خُصومتِه بمَنطِقِه، فيُخاصِمُ خُصومةً شديدةً في قُدرةِ اللهِ على البعثِ وغيرِه، ويُكَذِّبُ بالحقّ، ولا يشكُرُ ربَّه على نِعَمِه![77]

كما قال تعالى: أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ [يس: 77– 78].

وقال سُبحانه: وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا * أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا [مريم: 66–67].

وقال عزَّ وجلَّ: وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا * وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا [الفرقان: 54–55].

---

(77) ذكر ابنُ عطية (٥/ ٣٢٧) في معنى ﴿خصيم﴾ احتمالين، فقال: «يحتمل: أن يريد به الكفرة الذين يختصمون في الله، ويجادلون في توحيده وشرعه.

ذكره ابن سلام عن الحسن البصري.

ويحتمل أن يريد أعمّ من هذا».

ثم علَّق بقوله: «على أن الآية تعديد نعمة الذهن والبيان على البشر، ويظهر أنها إذ تقرر في خصام الكافرين ينضاف إلى العبرة وعيد ما».

وعن بُسرِ بنِ جِحاشٍ القُرَشيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، ((أنَّ النبيَّ – ﷺ – بزَقَ يومًا في كَفِّه، فوضع عليها أُصبُعَه، ثمَّ قال: قال اللهُ: ابنَ آدمَ، أنَّى تُعجِزُني، وقد خلقتُك مِن مِثلِ هذه؟! حتى إذا سَوَّيتُك وعَدَّلتُك، مَشَيتَ بين بُردَينِ[78] وللأرضِ مِنك وَئيدٌ،[79] فجَمَعْتَ ومَنَعْتَ، حتى إذا بلَغَتِ التَّراقيَ، قلتَ: أتصَدَّقُ! وأنَّى أوانُ الصَّدَقةِ؟!)).[80]

(78) البُرْدُ: نوعٌ من الثيابِ.
يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (116/1).
(79) الوئيدُ: صوتُ شِدَّةِ الوطءِ على الأرضِ.
يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (143/5).
(80) أخرجه ابن ماجه (2707)، وأحمد (17844)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (32/2) (1193)، والحاكم في ((المستدرك)) (3855).
صحَّح إسنادَه الحاكم، والبوصيري في ((مصباح الزجاجة)) (143/3)، وصحَّح الحديثَ الألباني في ((صحيح الجامع)) (8144).

سورةُ النَّحلِ

الآيات (5–9)

وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (5) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ
وَحِينَ تَسْرَحُونَ (6) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ
لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (7) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8) وَعَلَى
اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (9)

غريب الكلمات:

تُرِيحُونَ: أي: تَرُدُّونَهَا بالعَشِيِّ مِن مراعيها إلى مَبارِكِها التي تأوي إليها؛ ومنه الرَّواحُ؛ رَواحُ العَشِيِّ: وهو مِن الزَّوالِ إلى اللَّيلِ، وأصلُ (روح): يدُلُّ على سَعةٍ وفُسحةٍ واطِّرادٍ.

تَسْرَحُونَ: أي: تُخرِجُونَهَا بالغداةِ إلى مَراعِيها، وأصلُ (سرح): يدُلُّ على انطِلاقٍ.

بِشِقِّ الْأَنْفُسِ: أي: بمشقَّتِها، والشِّقُّ: المشقَّة، والانكسارُ الذي يلحقُ النَّفسَ، والبدنَ، وأصلُ (شقق) يدُلُّ على انصداعٍ في الشَّيءِ.

لَرَءُوفٌ: أي: شديدُ الرَّحمةِ، والرؤوفُ: ذو الرأفةِ، والرأفةُ أعلَى معاني الرحمةِ وأرقُّها، وأصلُ (رأف): يدُلُّ على رِقَّةٍ ورحمةٍ.

قَصْدُ السَّبِيلِ: أي: الطَّريقُ القاصِدُ المُستقيمُ الذي لا اعوِجاجَ فيه؛ يقال: طَريقٌ قَصدٌ وقاصِدٌ: إذا أدَّاك إلى مَطلوبك، وقصَدَ بك ما تريدُ، وأصلُ (قصد): يدُلُّ على إتيانِ شَيءٍ وأَمِّه.

جَائِرٌ: أي: عادِلٌ عن القَصدِ مائِلٌ، وأصلُ (جور): يدلُّ على مَيلٍ عن الطَّريقِ.

تفسير الآيات:

وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (5).

وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا.

أي: وخلَقَ اللهُ الإبِلَ والبقَرَ والغنَمَ، فسخَّرها لِمصالِحِكم أيُّها النَّاسُ.(81)

لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ.

أي: لكم- أيُّها النَّاسُ- في أصوافِ الأنعامِ وأوبارِها وأشعارِها مَلابِسُ وفُرُشٌ، وأغطيةٌ وأبنيةٌ تُدَفِّئُكم من البَرِدِ، ولكم فيها فوائِدُ كثيرةٌ مِن نَسلِها وألبانِها ودُهونِها، وبالحَرثِ بها، والسَّقيِ عليها، ورُكوبِها وبَيعِها، وغيرِ ذلك مِن مَنافِعِها.(82)

---

(81) قال الواحدي: (وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا؛ يعني: الإبلَ والبقَرَ والغنَمَ، ثم ابتدأ فقال: لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ، ويجوزُ أن يكون تمامُ الكلامِ عند قوله: لَكُمْ ثمَّ يبتدِئُ فيقول: فِيهَا دِفْءٌ).

((الوسيط)) (56/3).

وقال الرازي: (قال صاحبُ النظمِ [أبو علي الجرجاني]: أحسَنُ الوَجهينِ أن يكونَ الوَقفُ عند قَولِه: خَلَقَهَا والدَّليلُ عليه أنَّه عطَف عليه قولَه: وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ والتقديرُ: لكم فيها دفءٌ، ولكم فيها جمالٌ).

((تفسير الرازي)) (175/19).

(82) ذكر ابنُ عطية (٥/ ٣٢٨) أن الدِّفْء: السَّخانة وذهاب البرد بالأكسية.

وحكى ابن عطية عن الأموي -نقلًا عن النحاس- «قال: الدِّفْء في لغة بعضهم: تناسل الإبل».

ونقل عن ابن عباس أن الدِّفْء: نسل كل شيء.

ثم رجَّح قائلًا: «والمعنى الأول هو الصحيح».

ولم يذكر مستندًا.

كما قال تعالى: وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ [النحل: 80].

وقال سُبحانه: وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ [المؤمنون: 21-22].

وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ.

أي: ومن لُحومِ الأنعامِ تأكُلونَ.

كما قال تعالى: أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ [يس: 71 - 73].

وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (6).

أي: ولكم- أيُّها النَّاسُ- في الأنعامِ حُسْنٌ وجَمالٌ يَجلِبُ لكم السُّرورَ والسَّعادةَ، وذلك حين تَرجِعونَها مَساءً مِن المَرعَى إلى مَنازِلِها، وحين تَذهَبونَ بها صَباحًا إلى مَراعيها.

كما قال تعالى: الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا [الكهف: 46].

وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (7).

وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ.

أي: وتَحملُ الأنعامُ أبدانَكم وأمتِعتَكم في أسفارِكم مِن بلدٍ إلى آخَرَ لم تكونوا واصِلينَ إليه– مِن دُونِ الأنعامِ– إلَّا بجهدٍ شَديدٍ مِن أنفُسِكم، ومَشقَّةٍ كبيرةٍ.(83)

كما قال تعالى: اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ [غافر: 79–80].

إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ.

أي: إنَّ ربَّكم– الذي خلقَ الأنعامَ، وسخَّرها لِمَصالِحِكم– لَذو رأفةٍ ورَحمةٍ بكم.

كما قال تعالى: وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ [الزخرف: 12–13].

وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8).

(83) نقل ابنُ عطية (٥/ ٣٣٠) عن الفراء أن معنى «﴿بِشِقِّ الْأَنْفُسِ﴾ أي: بذهاب نصفها، كأنها قد ذابت تعبًا ونصبًا».
ثم علَّق عليه بقوله: «كما تقول لرجل: لا تقدر على كذا إلا بذهاب جُلِّ نفسك، وبقطعة من كبدك. ونحو هذا من المجاز».

وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً.

أي: وخلَقَ اللهُ لكم- أيُّها النَّاسُ- الخَيلَ والبِغالَ والحَميرَ؛ لِتَركبوا على ظُهورِها، وجعَلَها اللهُ زينةً لكم.

وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ.

أي: ويَخلقُ ما لا يُحيطُ عِلمُكم به مِن المخلوقاتِ، غيرَ ما أخبَرَكم به، وعدَّدَه لكم.(84)

(84) اختُلِف في الاستدلال بهذه الآية على تحريم أكل لحوم الخيل على قولين: الأول: أن في هذه الآية دلالة على تحريم أكل لحوم الخيل.

الثاني: أنها لا تدل على تحريم شيء.

ورجَّح ابنُ جرير (١٤/ ١٧٥ - ١٧٦) مستندًا إلى الدلالة العقلية القول الثاني، وهو قول إبراهيم النخعي، وقول الأسود، وعلَّل ذلك بأنه «لو كان في قوله -تعالى ذكره-: ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾ دلالةٌ على أنها لا تصلح -إذ كانت للركوب- للأكل، لكان في قوله: ﴿فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ دلالة على أنها لا تصلح -إذ كانت للأكل والدِّفْءِ- للركوب، وفي إجماع الجميع على أن ركوب ما قال -تعالى ذِكْره-: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ جائزٌ حلالٌ غير حرام، دليلٌ واضحٌ على أن أكل ما قال: ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾ جائزٌ حلالٌ غير حرامٍ، إلا بما نصَّ على تحريمه، أو وضَع على تحريمه دلالة من كتابٍ أو وحيٍ إلى رسول الله -ﷺ-، فأما بهذه الآية فلا يُحرَّمُ أكلُ شيءٍ».

وذكر ابنُ عطية (٥/ ٣٣٠) احتجاج ابن عباس ومالك بهذه الآية على كراهة لحوم الخيل والبغال والحمير، واحتجاج الحكم بن عيينة بها على حرمة لحوم الخيل والبغال والحمير، ثم استدرك قائلًا: «وهذه الحجة غير لازمة عند جماعة من العلماء، قالوا: إنما ذكر الله تعالى عظم منافع الأنعام، وذكر عظم منافع هذه وأهم ما فيها، وليس يقضي ذلك بأن ما ذكره لهذه لا تدخل هذه فيه».

ثم ذكر (٥/ ٣٣١) قول ابن جرير بأن في «إجماعهم على جواز ركوب ما ذكر للأكل دليل على جواز أكل ما ذكر للركوب»، وعلق قائلًا: «وفي هذا نظر، ولحوم الخيل عند كثير من العلماء حلال، وفي جواز أكلها حديث أسماء بنت أبي بكر، وحديث جابر بن عبد الله: كنا نأكل الخيل في عهد النبي - ﷺ -.

والبغال والحمير مكروهة عند الجمهور، وهو تحقيق مذهب مالك».

كما قال تعالى: سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ [يس: 36].

وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (9).

وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ.

أي: وإلى اللهِ ينتهي طريقُ الحقِّ المُستَقيمُ، فيُوصِلُ مَن سلَكه إلى اللهِ، ونَيلِ رِضاه وجَنَّتِه.

كما قال تعالى: إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [هود: 56].

وقال سبحانه: قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ [الحجر: 41].

وقال عزَّ وجلَّ: إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى [الليل: 12].

وعن عبدِ اللهِ بن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((خَطَّ لنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خطًّا ثم قال: هذا سبيلُ اللهِ؛ ثم خَطَّ خُطوطًا عن يمينِه وعن شِمالِه؛ ثم قال: هذه سُبُلٌ- قال يَزيدُ هو ابنُ هارونَ

ذكر ابن عطية (٥/ ٣٣٠) رواية «أن الله تعالى خلق ألف نوع من الحيوان، منها في البَرِّ أربعمائة، وبثَّها بأعيانها في البحر، وزاد فيه مائتين ليستا في البَرِّ».

ثم علَّق عليها بقوله: «وكل من خصَّص في تفسير هذه الآية شيئًا -كقول من قال: سوس الثياب وغير ذلك- فإنما هو على جهة المثال، لا أن ما ذكره هو المقصود في نفسه».

أحدُ رواةِ الحديثِ: مُتفرّقةٌ- على كُلِّ سبيلٍ منها شَيطانٌ يدعو إليه، ثمَّ قرأ: وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ [الأنعام: 153])).[85]

وَمِنْهَا جَائِرٌ.

أي: ومِن الطُّرُقِ المَسلوكةِ طُرُقٌ مُعوجَّةٌ، غيرُ مُستقيمةٍ، لا تُوصِلُ سالِكَها إلى اللهِ، ونَيلِ رِضاه وجَنَّتِه.

وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ.

أي: ولو شاء اللهُ لَهَداكم جميعًا- أيُّها النَّاسُ- إلى سُلوكِ الطَّريقِ المُستَقيمةِ، ولكِن اقتَضَت حِكمتُه أن يهديَ مَن يشاءُ بفَضلِه، ويُضِلَّ مَن يشاءُ بعَدلِه.[86]

---

(85) أخرجه أحمد (4142) واللفظ له، والدارمي (202)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (11174)، وابن حبان (7).
ذكر ابنُ القيِّم في ((طريق الهجرتين)) (152) أنَّه ثابتٌ، وصحَّح إسنادَه أحمدُ شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (89/6)، وصحَّحه ابنُ باز في ((مجموع فتاواه)) (281/4)، والألباني في ((شرح الطحاوية)) (525).

(86) نقل ابنُ كثير (٨/ ٢٩٦ - ٢٩٧) في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ قول ابن عباس، وقول مجاهد، والضحاك، وقتادة، ونقل عن السدي أن ﴿قصد السبيل﴾ معناه: الإسلام.
ثم علَّق بقوله: «وقول مجاهد هاهنا أقوى من حيث السياق؛ لأنه تعالى أخبر أن ثَمَّ طرقًا تسلك إليه، فليس يصل إليه منها إلا طريق الحق، وهي الطريق التي شرعها ورضيها، وما عداها مسدودة، والأعمال فيها مردودة».
[٣٦٤٣] بيَّن ابنُ عطية (٥/ ٣٣١) أن معنى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ «أي: على الله تقويم طريق الهدى وتبيينه، وذلك بنصب الأدلة وبعث الرسل، وإلى هذا ذهب المتأوّلون».
ثم ذكر احتمالًا آخر: «أن يكون المعنى: إن من سلك السبيل القاصد فعلى الله رحمته ونعيمه وطريقه، وإلى ذلك مصيره».
ثم وجَّهه بقوله: «فيكون هذا مثل قوله تعالى: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٥١]، وقول النبي - ﷺ -:» والشَّرُّ ليس إليك «.

أي: لا يُفضي إلى رحمتك».

ونقل ابنُ تيمية (٤/ ١٥٢) قولًا ولم ينسبه: أن «معنى قصد السبيل: سيركم ورجوعكم، والسبيل واحدة بمعنى الجمع».

ثم انتقده مستندًا إلى دلالة اللغة، ولفظ الآية قائلًا: «هذا قول بعض المتأخرين، جعل القصد بمعنى: الإرادة، أي: عليه قصدكم للسبيل في ذهابكم ورجوعكم، وهو كلام مَن لم يفهم الآية، فإنّ السبيل القصد هي السبيل العادلة، أي: عليه السبيل القصد، والسبيل اسم جنس، ولهذا قال: ﴿ومِنها جائِرٌ﴾.

أي: عليه القصد من السبيل، ومن السبيل جائر، فأضافه إلى اسم الجنس إضافة النوع إلى الجنس، أي: القصد من السبيل، كما تقول: ثوب خز.

ولهذا قال: ﴿ومِنها جائِرٌ﴾.

وأمّا من ظن أن التقدير: قصدكم السبيل.

فهذا لا يطابق لفظ الآية ونظمها من وجوه متعددة».

وذكر ابنُ عطية (٥/ ٣٣٢) أن «الألف واللام في ﴿السَّبِيلِ﴾ للعهد، وهي سبيل الشرع، وليست للجنس، ولو كانت للجنس لم يكن فيها جائر».

وانتقده ابن تيمية (٤/ ١٥٥) مستندًا إلى الدلالة العقلية، فقال: «وأما قوله: ﴿قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ هي سبيل الشرع، وهي سبيل الهدى، والصراط المستقيم، وأنها لو كانت للجنس لم يكن منها جائر، فهذا أحد الوجهين في دلالة الآية، وهو مرجوح، والصحيح الوجه الآخر: أن السبيل اسم جنس، ولكن الذي على الله: هو القصد منها، وهي سبيل واحدة، ولما كان جنسًا قال: ﴿ومِنها جائِرٌ﴾، والضمير يعود على ما ذُكِرَ بلا تكلف.

وقوله: لو كان للجنس لم يكن منها جائر.

ليس كذلك، فإنها ليست كلها عليه، بل إنما عليه القصد منها، وهي سبيل الهدى، والجائر ليس من القصد، وكأنه ظن أنه إذا كانت للجنس يكون عليه قصد كل سبيل، وليس كذلك، بل إنما عليه سبيل واحدة، وهي الصراط المستقيم، هي التي تدل عليه، وسائرها سبل الشيطان، كما قال: ﴿وأَنَّ هَذا صِراطِي مُسْتَقِيمًا فاتَّبِعُوهُ ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقد أحسن في هذا الاحتمال، وفي تمثيله ذلك بقوله: ﴿هَذا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر: ٤١]».

نقل ابنُ عطية (٥/ ٣٣٢) عن الزجاج أن قوله تعالى: ﴿ولَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أجْمَعِينَ﴾ «معناه: لو شاء لعرض عليكم آية تضطركم إلى الإيمان والاهتداء».

ثم انتقده بقوله: «وهذا قول سوءٍ لأهل البدع الذين يرون الله لا يخلق أفعال العباد؛ لم يُحَصِّله الزجاج، ووقع فيه رحمة الله عليه عن غير قصد».

كما قال تعالى: وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ [يونس: 99–100].

وقال سُبحانه: وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ [هود: 118–119].

وقال عزَّ وجلَّ: وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ [السجدة: 13].

سورةُ النَّحلِ

الآيات (10–18)

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (10) يُنْبِتُ لَكُمْ
بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ
(11) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (12) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ
يَذَّكَّرُونَ (13) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً
تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (14) وَأَلْقَى فِي
الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (15) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ
يَهْتَدُونَ (16) أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (17) وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا
تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (18)

غريب الكلمات:

تُسِيمُونَ: أي: ترعَونَ أنعامَكم، وأصلُ (سوم): يدُلُّ على طلَبِ الشَّيءِ.

وَسَخَّرَ: أي: ذلَّل، والتَّسْخِيرُ: سياقةٌ إلى الغَرَضِ المختصِّ قهرًا، وأصل (سخر): يدلُّ على استذلالٍ.

ذَرَأَ: أَي: خلَق؛ يُقالُ: ذرأ اللهُ الخَلقَ: أي: أظهَرَهم بالإيجادِ بعد العدَمِ، وأصلُ (ذرأ): يدُلُّ على الإظهارِ.

مَوَاخِرَ: أي جواريَ تَشقُّ الماءَ مع صَوتٍ، وأصلُ (مخر): يدُلُّ على شَقٍّ وفَتحٍ.

رَوَاسِيَ: أي: جبالًا ثوابِتَ، وأصلُ (رسو): يدلُّ على ثباتٍ.

تَمِيدَ: أي: تَضطَرِب، وتتحَرَّك يَمنةً ويَسرةً، وأصلُ (ميد): يدُلُّ على حَركةٍ في شَيءٍ.

وَسُبُلًا: أي: طُرُقًا، وسُمِّي الطَّريقُ بذلك؛ لامتِدادِه، وأصلُ (سبل): يدُلُّ على امتِدادِ شيءٍ.

وَعَلَامَاتٍ: أي: مَعالِمَ للطُّرُقِ نَهارًا، وأصلُ (علم): يدلُّ على أثَرٍ بالشَّيءِ يتميَّزُ به عن غَيرِه.

تفسير الآيات:

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (10).

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً.

أي: اللهُ الذي أنعَمَ بكُلِّ تلك النِّعَمِ، هو الذي أنزلَ مِن السَّحابِ مطَرًا.

لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ.

أي: لكم مِن المطَرِ ماءٌ عَذْبٌ تَشرَبونَه، وأخرج اللهُ لكم به شجرًا تَرعَونَ فيه أنعامَكم.

يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (11).

يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ.

أي: يُخرِجُ اللهُ لكم بماءِ المطَرِ أنواعَ الزُّروعِ، والزَّيتونَ، والنَّخيلَ، والأعنابَ.

وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ.

أي: ويخرِجُ لكم به مِن كُلِّ أنواعِ الفَواكِهِ أنواعًا أخرى غيرَ ذلك.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ.

أي: إنَّ في إنباتِ اللهِ أنواعَ الزُّروعِ والثِّمارِ بالمطَرِ لدَلالةً واضِحةً لِمَن شأنُهم وعادتُهم أن يتفكَّروا في مَخلوقاتِ الله، وما أقامه من الحُجَجِ، فيَستَدِلُّوا بها على وحدانيَّتِه، وكَمالِ قُدرتِه على البَعثِ وغَيرِه، وعلى رَحمتِه، وأنَّه المُبدِعُ الحَكيمُ الذي أنبت أصنافًا مختلفةً مِن ماءٍ واحدٍ.

كما قال تعالى: أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ [النمل: 60].

وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (12).

وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ.

أي: وذلَّل اللهُ لكم- أيُّها النَّاسُ- اللَّيلَ والنَّهارَ يتعاقبانِ عليكم؛ فالليلُ لسُكونِكم وراحتِكم، والنهارُ لانتِشارِكم في مَعايشِكم ومنافِعِكم، وذلَّلَ لكم الشَّمسَ والقمَرَ يجريانِ باستمرارٍ؛ لتحقيقِ مَنافِعِكم ومصالِحِكم؛ كمعرفةِ الأوقاتِ، ونُضجِ الثِّمارِ، وغيرِ ذلك.

كما قال تعالى: يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى [فاطر: 13].

وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ.

أي: والنُّجومُ مُذَلَّلاتٌ لكم في السَّماءِ، تجري في فَلَكِها بإذنِ اللهِ؛ لتَهتَدوا بها في ظُلُماتِ البَرِّ والبَحرِ.

كما قال تعالى: إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ [الأعراف: 54].

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ.

أي: إنَّ في تَسخيرِ اللهِ الليلَ والنهارَ، والشمسَ والقمرَ والنجومَ، لَدَلالاتٍ واضحاتٍ لِمَن شأنُهم وعادتُهم أن يفهَموا عن اللهِ ما أخبرَ به من الحُجَجِ والدَّلالاتِ على قُدرتِه العظيمةِ وغَيرِها.

كما قال تعالى: إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ [الجاثية: 3-6].

وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (13).

وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ.

أي: وسخَّر اللهُ لكم ما بثَّ ونشَرَ في الأرضِ، كالدَّوابِّ والثِّمارِ والنَّباتِ، والمعادنِ والجماداتِ، مُختلِفًا ألوانُها، مُتعَدِّدًا أصنافُها وأشكالُها ومَنافِعُها.(87)

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ.

أي: إنَّ فيما ذرأ اللهُ في الأرضِ مُختَلِفًا ألوانه لَدَلالةً وعِبرةً لِمَن شأنُهم وعادتُهم أن يتَّعِظوا فيستدلُّوا بذلك على وحدانيَّةِ اللهِ، وكمالِ قُدرتِه، وسَعةِ رَحمتِه، ويَشكُروه على نِعَمِه.

قال تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ [الزمر: 21].

وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (14).

---

(87) ذكر ابنُ عطية (٥/ ٣٣٦) أن قوله تعالى: ﴿أَلْوَانُهُ﴾ «معناه: أصــنافه، كما تقول: هذه ألوان من التَّمر ومن الطعام، ومن حيث كانت هذه المبثوثات في الأرض أصــنافًا عُدَّت في النعمة، وظهر الانتفاع بها أنه على وجوه، ولا يظهر ذلك من حيث هي متلونة حُمرة وصُفرة وغير ذلك، ويحتمل أن يكون التنبيه على اختلاف الألوان حمرة وصفرة».
ثم رجَّح قائلًا: «والأول أبْيَن».

وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا.

أي: والذي أنعمَ عليكم بتلك النِّعَمِ، هو اللهُ- وَحدَه- الذي ذلَّلَ لكم البَحرَ- مِلْحًا كان أو عَذبًا- كي تأكُلوا منه سَمَكًا طَرِيًّا.

كما قال تعالى: وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا [فاطر: 12].

وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا.

أي: ولِتَستخرِجوا منه اللآلئَ وغيرَها، فتتزَيَّنوا بلُبسِها.

كما قال تعالى: يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ [الرحمن: 22].

وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ.

أي: وترى السُّفُنَ جاريةً في البحرِ، وهي تشقُّ المياهَ والرِّياحَ بصَدرِها، فيُسمَعُ لجَرِيها صوتٌ، فتَستَدِلُّونَ بعدَمِ رُسوبِها وغَرَقِها في الماءِ- مع ثِقَلِها ومُيوعةِ الماءِ ورِقَّتِه وشِدَّةِ لطافتِه- على وحدانيَّةِ الإلهِ وقُدرتِه سُبحانَه.[88]

---

(88) ذكر ابن عطية (٥/ ٣٣٧) أن «المَخْرَ في اللغة: الصوت الذي يكون من هبوب الرِّيح على شيءٍ يُشَقُّ، أو يصحب في الجملة الماء.

فيترتب منه أن يكون» المَخْرَ «من الريح، وأن يكون من السفينة ونحوها، وهو في هذه الآية من السفن.

ثم نقل عن» بعض اللغويين أن «المَخْر» في كلام العرب: الشَّقُّ، يقال: مَخَرَ الماء في الأرض «.

كما قال تعالى: وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ * إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ [الشورى: 32-34].

وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ.

أي: وسخَّر اللهُ لكم البحرَ لحملِ السُّفنِ؛ لتركبوها في طلبِ معايشِكم، وتنقلوا عليها البضائعَ مِن بلدٍ إلى بلدٍ؛ طلبًا للرزقِ مِن فضلِ الله.

وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ.

أي: وسخَّر الله لكم هذه المَخلوقاتِ؛ لعلَّكم تَشكُرونَ نِعَمَ اللهِ بالثَّناءِ عليه، وطاعتِه، وتوحيدِه.

وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (15).

ثم علَّق بقوله:» فهذا بيِّنٌ أن يقال فيه للفلك: مواخر «.

ونقل أيضًا قول الضحاك، وقول الحسن من طريق يزيد بن إبراهيم، وقتادة، ومقاتل، أن ﴿مَوَاخِرَ﴾ معناه: تجيء وتذهب بريح واحدة، ثم علَّق على ما سبق بقوله:» وهذه الأقوال ليست تفسيرًا لِلَّفظة، وإنما أرادوا بها أنها مواخر لهذه الأحوال، فنَصُّوا على هذه الأحوال، إذ هي موضع النعم المعدودة، إذ نَفْس كون الفلك ماخرة لا نعمة فيه، وإنما النعمة في مخرها بهذه الأحوال في التجارات، والسفر فيها، وما يمنح الله فيها من الأرباح والمِنَن".

وذكر ابنُ كثير (٨/ ٢٩٩ بتصرف) «أن السفن تمخر البحر، أي: تشقه، وقيل: تمخر الرياح،».

ثم علَّق عليهما بقوله: «وكلاهما صحيح».

وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ.

أي: ومن نِعَمِ اللهِ عليكم- أيُّها النَّاسُ- أنْ جعلَ في الأرضِ جِبالًا تُثَبِّتُ الأرضَ؛ لئلَّا تضطَرِبَ بكم، وتتحَرَّكَ يمينًا وشِمالًا.(89)

كما قال تعالى: وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ [الأنبياء: 31].

وَأَنْهَارًا.

أي: وجعل اللهُ في الأرضِ أنهارًا تجري بالماءِ مِن مَوضعٍ إلى آخَرَ؛ لِسَقيِ النَّاسِ، والأنعامِ، والحَرثِ.

وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ.

أي: وطُرُقًا مُيسَّرةً وممتَدَّةً، تَسلُكونَها بيُسرٍ وسُهولةٍ في قضاءِ حوائِجِكم، وطلَبِ مَعايشِكم وغيرِها؛ رحمةً بكم؛ لِتهتَدوا بهذه الطُّرُقِ إلى كلِّ موضعٍ تُريدونَ الوصولَ إليه، فلا تَضِلُّوا، ولا تتحَيَّروا.

كما قال تعالى: وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ [الأنبياء: 31].

---

(89) استدل ابن عطية (٥/ ٣٣٧، ٣٣٨) بهذا الأثر على أن «ألقى» ليست بمعنى: خَلَقَ وجَعَلَ كما ذكر ذلك بعض المفسرين، بل هي أخَصُّ من ذلك؛ لأن «ألْقى» تقتضي أن الله أحدث الجبال ليس من الأرض، لكن من قدرته واختراعه، فقال: «ويؤيد هذا النظر ما روي في القصص عن الحسن عن قيس بن عباد أن الله تعالى لما خلق الأرض جعلت تمور، فقالت الملائكة: ما هذه بمُقِرَّة على ظهرها أحدًا.

فأصبحت ضحى وفيها رواسيها».

واستدل على ذلك أيضا بالإجماع على أن قوله تعالى: ﴿وَأَنْهَارًا﴾ «منصوب بفعل مضمر، تقديره: وجَعَلَ أو خَلَقَ أنهارًا».

فقال: «وإجماعهم على إضمار هذا الفعل دليل على خصوص ﴿ألْقى﴾، ولو كان ﴿ألْقى﴾ بمعنى: خَلَقَ، لم يحتج إلى الإضمار».

وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (16).

أي: وجعلَ لكم– أيُّها النَّاسُ– معالِمَ، كالجِبالِ وغيرِها، تَستدِلُّونَ بها نهارًا، ونجومًا تستدِلُّونَ بها ليلًا على طُرُقِكم في أسفارِكم.(90)

(90) اختلف في المعنِيّ بـ «العلامات» في هذه الآية على أقوال: الأول: معالم الطرق بالنهار.

الثاني: عُنِيَ بها النجوم.

الثالث: عُنِيَ بها الجبال.

وبيَّن ابنُ جرير (١٤/ ١٩٤) مستندًا إلى العموم أن «أوْلى الأقوال في ذلك بالصواب أن يُقال: إن الله –تعالى ذِكْره– عدَّد على عباده من نعمه إنعامه عليهم بما جعل لهم من العلامات التي يهتدون بها في مسالكهم وطرقهم التي يسيرونها، ولم يَخْصُص بذلك بعض العلامات دون بعض، فكلُّ علامةٍ استدل بها الناس على طُرُقِهم وفِجاج سُبُلِهم فداخلٌ في قوله: ﴿وعَلاماتٍ﴾، والطُّرُقُ المسبولة الموطوءة علامةٌ للناحية المقصودة، والجبال علاماتٌ يُهتَدى بهنَّ إلى قَصْدِ السبيل، وكذلك النجوم بالليل».

ثم رجَّح القول الأول مستندًا إلى الدلالة العقلية، فقال: «غير أن الذي هو أوْلى بتأويل الآية أن تكون العلامات من أدلة النهار، إذ كان الله قد فَصَل منها أدلة الليل بقوله: ﴿وبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾، وإذ كان ذلك أشبه وأولى بتأويل الآية فالواجب أن يكون القول في ذلك ما قاله ابن عباسٍ في الخبر الذي رُوِّيناه عن عطية عنه، وهو أن العلامات معالم الطُّرُقِ وأماراتها التي يُهتَدى بها إلى المستقيم منها نهارًا، وأن يكون النَّجْمُ الذي يُهتَدى به ليلًا هو الجَدْيُ والفَرْقدان؛ لأن بها اهتداء السفر دون غيرها من النجوم».

وفرَّق ابنُ عطية (٥/ ٣٣٩ بتصرف) في المعنى بين تعلُّق اللفظة بما قبلها وبين عدم تعلُّقها، ففي حال تعلُّقها بما قبلها فالأظهر عنده –مستندًا إلى الدلالة العقلية– أن المعنى: «﴿وعلامات﴾ أي: عبرة وإعلامًا في كل سلوك، فقد يُهتَدى بالجبال والأنهار والسبل».

وفي حال عدم تعلُّقها بما قبلها «فالصواب أن اللفظة تعمُّ هذا وغيره، وذلك أن كل ما دلَّ على شيءٍ أو علم به فهو علامة، وأحسن الأقوال المذكورة قول ابن عباس – رضي الله عنهما – لأنه عموم بالمعنى».

وذكر ابنُ تيمية (النبوات ٢/ ٧٥٧) أن النجوم، والجبال، والطرق، وأعلام الطرق: كلها آيات، وأعلام، وعلامات على ما هو لازم لها في العادة، وذكر قولًا ولم ينسبه: أن العلامات هي النجوم.

ثم رجَّح (٤/ ١٥٥ – ١٥٦) القول الأول مستندًا إلى دلالة ظاهر الآية، والدلالة اللغوية قائلًا: «وقول الأكثرين أصحّ؛ فإنّ العلامات كلّها يهتدى بها، ولأنّه قد قال: ﴿وأَلْقى فِي الأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وأَنْهارًا وسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وعَلاماتٍ﴾

أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (17).

أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ.

أي: أفمن يخلُقُ مِثلَ تلك المخلوقاتِ العَجيبةِ التي أنعَمَ عليكم بها– وهو الله– كمَن لا يَخلقُ شَيئًا لا قليلًا ولا كثيرًا، ولا يُنعِمُ عليكم بشيءٍ، فتُشرِكونَ معه في العبادةِ غيرَه؟!

وهذا كلّه ممّا ألقاه في الأرض، وهو منصوب بـ» ألقى «، أو بفعل من جنسه كما قال بعضهم، أي: وجعل في الأرض أنهارًا؛ لأن الإلقاء من جنس الجعل».

وعلَّق (٤/ ١٥٦) على القول الثالث بأن العلامات: هي الجبال.

بقوله: «وهي أيضًا مما يُستدلّ به، ولهذا سمّاها الله أعلامًا في قوله: ﴿ومن آياتِهِ الجَوارِ في البَحْرِ كالأَعْلام * فبأيّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾ [الرحمن: ٢٤ – ٢٥] أي: كالجبال، والأعلام جمع عَلَم، والعَلَم: ما يُعلَّم به كالعلامة ...

فالجبال أعلامٌ، وهي علاماتٌ لمن في البر والبحر يُستدلّ بها على ما يُقاربها من الأمكنة؛ فإنّه يلزم من وجودها وجوده، وهي لا تزال دالّة ما دامت موجودة، ومدلولها موجودًا، وهي أثبت من غيرها؛ فقد يكون عندها قرية وسكّان فيكون علَمًا عليهم، ثم قد تخرب القرية ويذهب السكّان؛ فتزول الدلالة لزوال الملزوم».

ونقل ابنُ عطية (٥/ ٣٣٩) عن أبيه: «أنه سمع بعض أهل العلم بالمشرق يقول: إن في بحر الهند الذي يجرى فيه من اليمن إلى الهند حيتانًا طوالًا رقاقًا كالحيّات في ألوانها وحركتها والتوائها، وأنها تسمى العلامات، وذلك أنها علامة الوصول إلى بلاد الهند، وأمارة النجاة والانتهاء إلى الهند لطول ذلك البحر وصعوبته، وأن بعض الناس قال: إنها التي أراد الله تعالى في هذه الآية.

قال القاضي أبو محمد: قال أبي؟: وأنا ممن شاهد تلك العلامات في البحر المذكور وعاينها، فحدثني منهم عدد كثير».

نقل ابنُ عطية (٥/ ٣٤٠) في المراد بـ «النجم» ثلاثة أقوال: الأول: أنه الجَدْيُ والفَرْقدان.

ونسبه للفراء.

الثاني: أنه القطب الذي لا يجري.

الثالث: أنه اسم جنس، والمراد جميع النجوم.

ثم رجَّح الثالث قائلًا: «وهذا هو الصواب».

ولم يذكر مستندًا.

أَفَلَا تَذَكَّرُونَ.

أفلا تتذكَّرونَ- أيُّها المُشرِكونَ- نِعَمَ اللهِ عليكم، وعظيمَ سُلطانِه وقُدرتِه، وعجْزَ مَعبوداتِكم، وأنَّها لا تجلِبُ نفعًا، ولا تَدفَعُ ضُرًّا، فتَعرِفوا بذلك خطأَ ما أنتم عليه مِن الشِّركِ باللهِ، وتَعرِفوا أنَّ المُنفَرِدَ بالخَلقِ أحَقُّ بالعبادةِ كُلِّها، فتُخلِصوا العبادةَ له؟!

وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (18).

وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا.

أي: وإن تعُدُّوا- أيُّها النَّاسُ- نِعَمَ اللهِ عليكم، لا تُطيقوا إحصاءَ عَدَدِها، فضلًا عن شُكرِها.

كما قال تعالى: أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً [لقمان: 20].

إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ.

أي: إنَّ اللهَ يتجاوزُ عن عبادِه تقصيرَهم في شُكرِ نِعَمِه، رحيمٌ بهم، لا يقطَعُ عنهم إحسانَه، ولا يُعذِّبُهم بسبَبِ تقصيرِهم، يرضى من عبادِه الشُّكرَ القَليلَ، ويُجازيهم عليه الثَّوابَ الكثيرَ.

سورةُ النَّحلِ

الآيات (19-25)

وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (19) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (20) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (21) إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (22) لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (23) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (24) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (25)

غريب الكلمات:

أَيَّانَ: أي: متى، أو: أيُّ حينٍ أو وقتٍ، وهو سُؤالٌ عن زمَانٍ، وقيل: أصلُه: أيُّ أوانٍ، أي: أيُّ وقتٍ، فحُذِف الألفُ ثم جُعل الواوُ ياءً فأُدغِم فصار أيَّان.

لَا جَرَمَ: أي: حقًّا، وأصلُ (جرم): يدُلُّ على قَطعٍ.

أَسَاطِيرُ: أي: أباطيلُ وتُرَّهات؛ جمعُ أُسطورةٍ، وهي: ما سُطِرَ مِن أخبارِ الأوَّلِينَ وكَذِبِهم.

يَزِرُونَ: أي: يَحمِلونَ، والوِزرُ: الثِّقلُ المُثقِلُ للظَّهرِ، وأصلُ (وزر): يدُلُّ على الثِّقلِ في الشَّيءِ.

تفسير الآيات:

وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (19).

أي: واللهُ يعلَمُ- أيُّها النَّاسُ- الذي تُخفُونَه في أنفُسِكم، ويعلَمُ الذي تُظهِرونَه أمامَ الآخرينَ مِن الأقوالِ والأفعالِ، فيُحصِيها عليكم ويُجازيكم بها يومَ القيامةِ؛ إنْ خَيرًا فخيرٌ، وإنْ شَرًّا فشَرٌّ.

وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (20).

أي: والأصنامُ التي يعبُدُها المُشرِكونَ مِن دونِ اللهِ لا تستطيعُ أن تخلُقَ شَيئًا، بل هي مخلوقةٌ، فكيف يكون إلهًا ما كان مخلوقًا لا يَملِكُ نَفعًا ولا ضَرًّا؟!

أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (21).

أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ.

أي: الأصنامُ التي يعبُدُها المُشرِكونَ جَماداتٌ لا أرواحَ فيها، فلا تسمَعُ ولا تُبصِرُ ولا تَعقِلُ شيئًا، فكيف تُتَّخَذُ هذه آلِهةً؟[91]

(91) ذكر ابنُ عطية (٥/ ٣٤١) في قوله تعالى: ﴿والَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ قراءتان: الأولى: (يُدْعَوْنَ) بضم الياء وفتح العين، على ما لم يُسَمَّ فاعله، وعلَّق عليها بقوله: «و﴿أمْواتٌ﴾ يراد به الذين يدعون من دون الله، ورفع على ابتداء خبر مضمر تقديره: هم أموات، ويجوز أن يكون خبرًا لقوله: ﴿والَّذِينَ﴾ بعد الخبر في قوله: ﴿لا يَخْلُقُونَ﴾، ووصفهم بالموت مجازًا، وإنما المراد أنهم لم يقبلوا حياةً قط ولا اتَّصفوا بها».

وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ.

أي: وما تدري هذه الأصنامُ متى يَبعَثُها اللهُ، فكيف يُرتجَى عندَ هذه نفعٌ أو ثوابٌ وجزاءٌ؟

كما قال تعالى: قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ [النمل: 65].

إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (22).

إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ.

أي: مَعبودُكم- أيُّها النَّاسُ- الذي يستحِقُّ عبادتَكم دونَ سائرِ الأشياءِ، مَعبودٌ واحِدٌ؛ فلا تُشرِكوا به شيئًا.

الثانية: ﴿يدعُون﴾ بفتح الياء وضم العين، وعلَّق على هذه القراءة بأنه «يجوز أن يراد بالأموات الكفار الذين ضميرهم في ﴿يَدعُونَ﴾، شبَّههم بالأموات غير الأحياء من حيث هم ضلال غير مهتدين، ويستقيم -على هذا- فيهم قوله: ﴿وما يَشْعُرُونَ أيّانَ يُبْعَثُونَ﴾، والبعث هنا: هو الحشر من القبور».

ثم نقل ابنُ عطية عن فرقة: أن الضمير في: ﴿وما يَشْعُرُونَ﴾ و﴿أيّانَ يُبْعَثُونَ﴾ للكفار، ونقل عن فرقة أخرى: أن الضمير في ﴿وما يَشْعُرُونَ﴾ للأصنام، و﴿أيّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: أيّان يُبعَث الكفار، وذكر احتمالًا آخر: «أن يكون الضميران للأصنام، [ويكون البعث الإثارة،] كما تقول: بعثت النائم من نومه.

إذا نبهته، وكما تقول: بعث الراعي سهمه.

فكأنه وصفهم بغاية الجمود، أي: وإن طلبتَ حركاتهم بالتحريك لم يشعروا بذلك».

ثم وجَّه قول الفرقة الأولى بقوله: «وعلى تأويل من يرى الضميرين للكفار ينبغي أن يُعتَقد في الكلام الوعيد، أي: وما يشعر الكفار متى يُبعَثون إلى التعذيب، ولو اختصر هذا المعنى لم يكن في وصفهم بأنهم لا يشعرون وأيان يبعثون طائل؛ لأن الملائكة والأنبياء والصالحين كذلك هم في الجهل بوقت البعث».

فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ.

أي: فالذين لا يُؤمنونَ بيومِ القيامةِ والجنَّةِ والنَّارِ، قُلوبُهم تُنكِرُ ما أخبَرَ به مِن قُدرتِه وعَظَمتِه ونِعَمِه، وتُنكِرُ إفرادَ اللهِ بالعبادةِ، وأنَّ الألوهيَّةَ لا تَصلُحُ لِغَيرِه، وهم مُمتَنِعونَ كِبرًا عن قَبولِ الحَقّ، والانقيادِ إليه.

كما قال تعالى: وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ [ص: 4–5].

وقال عزَّ وجلَّ: وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ [الزمر: 45].

وقال سُبحانه: إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ [الصافات: 35].

وقال عزَّ وجلَّ: إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ [غافر: 60].

لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (23).

لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ.

أي: حقًّا أنَّ اللهَ يَعلَمُ ما يُسِرُّه المُشرِكونَ في قُلوبِهِم مِن إنكارِهِم للحَقِّ، واعتقادِهِم بالباطِلِ، ويعلَمُ حَقًّا ما يُعلِنونَه مِن الكُفرِ والمعاصي، وسيُجازيهِم على أعمالِهِم الظَّاهِرةِ والباطنةِ.(92)

إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ.

أي: إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُستكبِرينَ عن تَوحيدِه، وإفرادِه بالعبادةِ، فهو يُبغِضُهم وسيُعاقِبُهم.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (24).

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ.

أي: وإذا قيلَ لهَؤلاءِ المُشرِكينَ: ما الذي أنزَلَه ربُّكم مِن الوحيِ على نبيِّه مُحمَّدٍ– عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؟

قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ.

أي: قال المُشرِكونَ: لم ينزِلْ عليه شيءٌ، وهذا القُرآنُ الذي يزعُمُ محمَّدٌ أنَّ اللهَ أنزَلَه عليه، هو ما سَطَرَه الأقدَمونَ في كُتُبِهم من الأكاذيبِ والأباطيلِ والقِصَصِ التي يتناقَلُها النَّاسُ جِيلًا بعد جِيلٍ.

---

(92) نقل ابنُ عطية (٥/ ٣٤٣) عن يحيى بن سلام والنقاش أن «المراد هنا بـــ ﴿ما يُسِرُّون﴾: تشاورهم في دار الندوة في قتل النبي – ﷺ –».

كما قال تعالى: وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ [الأنفال: 31].

وقال سُبحانه: وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا [الفرقان: 5].

لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (25).

لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

أي: لِيحمِلوا ذُنوبَهم كامِلةً يومَ القيامةِ.(93)

وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ.

أي: ولِيحمل المُشركونَ المَتبوعونَ أيضًا بعضَ ذُنوبِ أتباعِهم الذين يُضِلُّونَهم فيقلدونهم بغيرِ عِلمٍ.(94)

---

(93) ذكر ابن عطية (٥/ ٣٤٤) في لام ﴿لِيَحْمِلُوا﴾ ثلاثة احتمالات: الأول: «أن تكون لام العاقبة؛ لأنهم لم يقصدوا بقولهم: ﴿أساطيرُ الأَوَّلِينَ﴾ أن يحملوا الأوزار».

والثاني: «أن تكون صريح لام كي، على معنى: قَدَّرَ هذا».

والثالث: «أن تكون لام الأمر، على معنى: الحتم عليهم بذلك والصغار الموجب لهم».

(94) ذكر ابنُ عطية (٥/ ٣٤٤) في معنى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ احتمالين: الأول: «أن يريد بها: المضِلّ، أي: أضلَّ بغير برهان قام عنده».

والثاني: «أن يريد: بغير علم من المقلدين الذين يضلونهم».

كما قال تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ [العنكبوت: 12–13].

وعن أبي هُريرةَ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((مَن دعا إلى هُدًى، كان له مِن الأجرِ مِثلُ أجُورِ مَن تبِعَه، لا ينقُصُ ذلك مِن أجورِهم شيئًا، ومَن دعا إلى ضَلالةٍ، كان عليه مِن الإثمِ مِثلُ آثامِ مَن تبِعَه، لا ينقُصُ ذلك مِن آثامِهم شيئًا)).[95]

أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ.

أي: ألا بِئسَ ما يحمِلُه المُشرِكونَ على ظُهورِهم مِن الذُّنوبِ الثَّقيلةِ.

كما قال تعالى: وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ [الأنعام: 31].

(95) رواه مسلم (2674).

سورةُ النَّحلِ

الآيات (26–29)

قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ
وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (26) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ
الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ
(27) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى
إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (28) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى
الْمُتَكَبِّرِينَ (29)

غريب الكلمات:

تُشَاقُّونَ: أي: تُخالِفونَ، وتُعادونَ، وتُخاصمونَ، والمشاقةُ عبارةٌ عن كونِ كلِّ واحدٍ مِن الخَصمينِ في شقٍّ غيرِ شقِّ صاحبِه، وأصلُ (شقق): يدُلُّ على انصداعٍ في الشَّيءِ.

السَّلَمَ: أي: الاستِسلامَ والانقيادَ.

تفسير الآيات:

قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (26).

قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ.

أي: قد مكرَ الكُفَّارُ- الذين كانوا مِن قَبلِ مُشرِكي قُرَيشٍ- بالرُّسُلِ وأتباعِهم، وصَدُّوا النَّاسَ عن دِينِ اللهِ، فأتاهم عذابُ اللهِ الذي اجتَثَّ بُنيانَهم مِن أصلِه وأساسِه.[96]

---

(96) وعامةُ المفسِّرين على أنَّه بُنيانٌ سَقَط، واختلفوا في هؤلاء الذين خَرَّ عليهم السَّقفُ، فذهب أكثَرُ المفسِّرين إلى أنَّ المرادَ به نمروذُ بنُ كنعان؛ حيث بنى بناءً عظيمًا ببابل، ورام الصعودَ إلى السماءِ ليُقاتِلَ أهلَها، فأهبَّ اللهُ الريحَ، فخرَّ ذلك البناءُ عليه وعلى قومِه فهلكوا.

وقيل: إنَّه بُختنصَّر وأصحابه.

وقيل: هم المقتَسِمون الذين تقدَّم ذِكرُهم في سورة الحِجرِ.

يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (2/555)، ((تفسير الرازي)) (20/198)، ((تفسير الشوكاني)) (3/189).

كما قال تعالى: وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا [الرعد: 42].

وقال سُبحانه: وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ [إبراهيم: 46].

فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ.

قال ابن جرير: (وأولى القولينِ بتأويلِ الآيةِ قَولُ من قال: معنى ذلك: تساقطت عليهم سقوفُ بيوتِهم؛ إذ أتى أصولَها وقواعِدَها أمرُ الله، فائتفكت بهم منازِلُهم؛ لأنَّ ذلك هو الكلامُ المعروفُ مِن قواعدِ البُنيان وخَرِّ السَّقفِ، وتوجيهُ معاني كلامِ الله إلى الأشهَرِ الأعرَفِ منها أولى من توجيهِها إلى غيرِ ذلك ما وُجِدَ إليه سبيلٌ.

وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ [النحل: 26] يقولُ تعالى ذكره: وأتى هؤلاءِ الذين مكَروا من قَبلِ مُشركي قُريشٍ عذابُ اللهِ مِن حيثُ لا يَدرون أنَّه أتاهم منه).

((تفسير ابن جرير)) (206/14).

قال الشوكاني: (والأولى أنَّ الآيةَ عامَّةٌ في جميعِ المُبطِلين من المتقَدِّمين الذين يحاولون إلحاقَ الضُّرِّ بالمحِقِّين، ومعنى المكر هنا: الكيدُ والتدبيرُ الذي لا يطابِقُ الحَقَّ، وفي هذا وعيدٌ للكُفَّار المعاصِرين له صلَّى الله عليه وسلَّم بأنَّ مَكرَهم سيعودُ عليهم كما عاد مكرُ مَن قبلَهم على أنفُسِهم).

((تفسير الشوكاني)) (189/3).

وقيل: هذا من بابِ المَثَل؛ لإبطال ما صنعه هؤلاء الذين كفَروا بالله وأشركوا في عبادتِه غيرَه، والمعنى: أهلكهم فكانوا بمنزلةِ من سقط بنيانُه عليه.

يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: 242)، ((تفسير ابن عاشور)) (135/14).

قال السعدي: (وهذا من أحسَنِ الأمثالِ في إبطالِ اللهِ مَكرَ أعدائه؛ فإنهم فكَّروا وقدَّروا فيما جاءت به الرسُلُ لَمَّا كذَّبوهم، وجعلوا لهم أصولًا وقواعدَ مِن الباطِلِ يَرجِعون إليها، ويرُدُّون بها ما جاءت به الرسُلُ، واحتالوا أيضًا على إيقاعِ المكروه والضَّرَرِ بالرسُلِ ومَن تَبِعَهم، فصار مكرُهم وبالًا عليهم، فصار تدبيرُهم فيه تدميرَهم؛ وذلك لأنَّ مَكرَهم سَيِّئٌ، وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ [فاطر: 43]).

((تفسير السعدي)) (ص: 438).

نقل ابنُ عطية (٥/ ٣٤٥) عن فرقة أن «المراد بـ ﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: جميع من كفر من الأمم المتقدمة ومكر، ونزلت به عقوبة من الله تعالى».

ثم وجَّهه بقوله: «وقوله –على هذا-: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾ إلى آخر الآية تمثيل وتشبيه، أي: حالهم كحال مَن فُعِل به هذا».

أي: فسقَطَ السَّقفُ على أولئك الكُفَّارِ مِن فَوقِ رُؤوسِهم، فأهلَكَهم اللهُ.

وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ.

أي: وأتاهم عذابُ اللهِ بَغتةً مِن حيثُ لا يَحتَسِبونَ ولا يتوقَّعونَ؛ إذ ظَنُّوا أنَّهم في أمانٍ منه.

ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (27).

ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ.

أي: ثُمَّ يومَ القيامةِ يُذِلُّ اللهُ الكافرينَ ويُهينُهم بالعذابِ، ويُظهِرُ فَضائِحَهم، فما كانت تُخفِيه ضمائِرُهم يَجعَلُه علانِيَةً.

وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ.

أي: ويَقولُ اللهُ يومَ القيامةِ للمُشرِكينَ: أين الذين كُنتُم تَعبُدونَهم في الدُّنيا، وتَزعُمونَ أنَّهم شُركائي، وتتَّخِذونَهم أولياءَ مِن دوني، وتُعادُونَ اللهَ وحِزبَه بسَبَبِهم؟! فلْيَدفَعوا عنكم هذا العَذابَ.

قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ.

أي: قال الذينَ آتاهم اللهُ العِلمَ: إنَّ الذِّلَّةَ والهَوانَ يومَ القيامةِ والعذابَ كائِنٌ على الكافِرينَ.

الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (28).

الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ.

أي: إنَّ الخِزيَ والسُّوءَ على الكافِرينَ الذين تَقبِضُ الملائِكةُ أرواحَهم، والحالُ أنَّهم ظالِمونَ لأنفُسِهم بالكُفرِ والشِّركِ والمعاصي، فأورَدوها بذلك مواردَ الهَلاكِ.

فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ.

أي: فاستسلَمَ أولئك الظَّالِمونَ عندَ المَوتِ لله، وانقادُوا لطاعةِ رَبِّهم حين عايَنوا المَوتَ، وقالوا للمَلائِكةِ الذين يَقبِضونَ أرواحَهم، مُنكِرينَ كُفرَهم ومَعاصِيَهم: ما كُنَّا نَكفُرُ باللهِ، ولا نُشرِكُ به ولا نَعصِيه![97]

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا [النساء: 97].

---

(97) قال ابنُ عطية (٥/ ٣٤٧) في معنى: ﴿ما كُنّا نَعْمَلُ مِن سُـــوءٍ﴾: «ويحتمل قولهم: ﴿ما كُنّا نَعْمَلُ مِن سُـــوءٍ﴾ وجهين: أحدهما: أنهم كذبوا وقصدوا الكذب اعتصامًا منهم به، على نحو قولهم: ﴿واللَّهِ رَبِّنا ما كُنّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].
والآخر: أنهم أخبروا عن أنفسهم أنهم لم يكونوا يعملون سوءًا، فأخبروا عن ظنهم بأنفسهم، وهو كذب في نفسه».

بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.

أي: فيُقالُ لهم: ليس الأمرُ كما تزعُمونَ، بل كُنتُم تَعمَلونَ السُّوءَ، إنَّ اللهَ عَليمٌ بالذي كُنتُم تعمَلونه مِن الكُفرِ والشِّركِ والمعاصي، فلا ينفَعُكم إنكارُكم، وسيُجازيكم على أعمالِكم.

فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (29).

فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا.

أي: يُقالُ لهم: ادخُلوا أبوابَ جَهنَّمَ، فكُلٌّ منكم يُعذَّبُ في طبقةٍ مِن طَبَقاتِها بحسَبِ عمَلِه، ماكثِينَ في جهنَّمَ أبدًا.

كما قال تعالى: لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ [الحجر: 44].

فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ.

أي: فلَبِئسَ مَنزِلُ المتكبِّرينَ عن الإيمانِ باللهِ وتَوحيدِه، نارُ جهنَّمَ.

كما قال تعالى: وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ [آل عمران: 151].

سورةُ النَّحلِ

الآيات (30–32)

وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (30) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (31) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (32)

تفسير الآيات:

وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآَخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (30).

وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا.

أي: وقيلَ للمُتَّقينَ: ماذا أنزَلَ ربُّكم مِن الوَحيِ على نَبيِّه مُحمَّدٍ– عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؟ قالوا: أنزَلَ اللهُ خيرًا عَظيمًا في الدُّنيا والآخِرةِ– وهو القُرآنُ– رَحمةً وهُدًى وبَرَكةً لِمَن آمنَ به واتَّبَعَه.

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ.

أي: للمُؤمِنينَ الذين أحسَنوا في عِبادةِ اللهِ، وأحسَنوا إلى عِبادِ اللهِ، ثوابٌ حَسَنٌ عاجِلٌ في الدُّنيا، بالحياةِ الطَّيِّبةِ والرِّزقِ الحسَنِ، وحُصولِ السُّرورِ، وتحَقُّقِ السَّعادةِ.

كما قال تعالى: وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ [النحل: 41].

وقال سُبحانه: وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ [هود: 3].

وقال تعالى: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [النحل: 97].

وقال عزَّ وجلَّ: قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ [الزمر: 10].

وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ.

أي: وجَزاءُ المُؤمنينَ في الدَّارِ الآخرةِ في الجنَّةِ خيرٌ لهم مِن الجزاءِ المُعَجَّلِ لهم في دارِ الدُّنيا.

كما قال تعالى: لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ [آل عمران: 198].

وقال سُبحانه: وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا [القصص: 80].

وقال عزَّ وجلَّ: بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى [الأعلى: 16-17].

وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ.

أي: ولَنِعْمَ دارُ المُتَّقينَ- الذين يمتثِلونَ أوامِرَ اللهِ، ويجتنِبونَ نواهيَه- الجنةُ في الآخرةِ.

جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (31).

جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ.

أي: بَساتينُ إقامةٍ يَدخُلُها المُتَّقونَ، ولا يَرحَلونَ عنها، تَجري مِن تَحتِ أشجارِها وقُصورِها الأنهارُ.

لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ.

أي: للمتَّقينَ في جناتِ عدنٍ كُلُّ ما تَشتَهيه أنفُسُهم وما يُريدونَه.

كما قال تعالى: وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ [الزخرف: 71].

كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ.

أي: مِثلَ هذا الجَزاءِ الحسَنِ يَجزي اللهُ كُلَّ مَن آمنَ به واتَّقاه، وأحسَنَ عَمَلَه.

الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (32).

الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ.

أي: يَجزي اللهُ بذلك المتَّقينَ الذين تَقبِضُ ملائِكةُ المَوتِ أرواحَهم، والحالُ أنَّهم طَيِّبونَ بطَهارتِهم من الشِّركِ والمعاصي، ومِن كُلِّ ما يُخِلُّ بإيمانِهم.

يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ.

أي: تقولُ ملائِكةُ الموتِ للمُتَّقينَ عند قَبضِ أرواحِهم: سَلامٌ عليكم، تحيَّةٌ كامِلةٌ لكم، وسَلامةٌ لكم مِن كُلِّ مَكروهٍ وآفةٍ.

ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.

أي: ويقولون أيضًا: ادخلوا الجنَّةَ بسبَبِ ما كُنتُم تعمَلونَه في حياتِكم الدُّنيا مِن الأعمالِ الصَّالحةِ؛ طلبًا لِمَرضاةِ اللهِ تعالى.

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ [فصلت: 30–31].

وقال سُبحانَه: وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ * وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ [الزمر: 73– 74].

سورةُ النَّحلِ

الآيتان (33-34)

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (33) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (34)

غريب الكلمات:

وَحَاقَ: أي: أحاطَ، ونزَل، وأصلُ (حيق): يدُلُّ على نُزولِ الشَّيءِ بالشَّيءِ.

تفسير الآيتين:

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (33).

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ.

أي: هل يَنتَظِرُ هؤلاء المُشرِكونَ- المُتقاعِسونَ عن الإيمانِ بالرُّسُلِ فيما أنزلَ إليهم ربُّهم- إلَّا أن تأتيَهم الملائِكةُ لِقَبضِ أرواحِهم وهم ظالِمونَ لأنفُسِهم؟

أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ.

أي: أو يأتي أمرُ اللهِ بحَشرِهم يومَ القيامةِ.

كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ.

أي: كما يفعَلُ هؤلاءِ المُشرِكونَ فعَل أسلافُهم الكفرةُ ذلك أيضًا، فأصرُّوا على كفرِهم، وتمادَوا في شركِهم إلى أن هلكوا.

وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ.

أي: وما ظلَمَ اللهُ الكافرينَ بعدَ أن أقامَ عليهم الحُجَّةَ بإرسالِ الرُّسُلِ، وإنزالِ الكتُبِ، ولكِنْ كانوا يَظلِمونَ أنفُسَهم بالكُفرِ والمعاصي، ومُخالَفةِ الرُّسُلِ، فاستحَقُّوا عذابَ اللهِ.

فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (34).

فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا.

أي: فأصاب أولئك الكافرينَ مِن الأُمَمِ الماضيةِ- الذين فَعَلوا فِعلَ مُشرِكي قُرَيشٍ- عُقوباتُ كُفرِهم، وأعمالِهم السَّيِّئةِ التي اكتَسَبوها.

وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ.

أي: ونزَل وأحاطَ بالكافرينَ عذابُ اللهِ الذي كانوا يَسخَرونَ منه، ومِن الرُّسُلِ إذا توعَّدوهم به.

سورةُ النَّحلِ

الآيات (35-37)

وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ
دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (35)
وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ
مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (36) إِنْ
تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (37)

غريب الكلمات:

الطَّاغُوتَ: الطَّاغُوتُ هو كُلُّ ذِي طُغْيَانٍ عَلَى اللهِ، فكلُّ مَعْبُودٍ مِن دُونِ اللهِ إذا لم يَكُنْ كارِهًا لذلك: طاغوتٌ؛ إنسانًا كان ذلك المعبودُ، أو شَيْطانًا، أو وَثَنًا، أو صَنَمًا، كَائِنًا ما كان من شيءٍ، والمُطاعُ في معصيةِ اللَّهِ طاغوتٌ، وكذلك السَّاحِرُ والكاهِنُ، واشتقاقُه من الطُّغْيان: وهو الظُّلْم والبغْيُ، يقال: طَغَا فُلانٌ يَطْغَى: إذا عَدا قَدْرَه فتجاوَز حَدَّه، وأصلُ (طغو): يدلُّ على مُجاوَزةِ الحَدِّ في العِصيانِ.

تفسير الآيات:

وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (35).

وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ.

أي: وقال المُشرِكونَ مُحتجِّينَ- كَذِبًا- بالقَدَرِ على شِركِهم، وتَحريمِهم ما لم يُحَرِّمْه اللهُ: لو شاءَ اللهُ ما عَبَدْنا شَيئًا مِن دُونِه، ولا حَرَّمْنا شيئًا مِن الأنعامِ التي ابتَدَعْنا تحريمَها، فِفعْلُنا إذَن لذلك دليلٌ على رِضاه عن أعمالِنا، وإلَّا لقدَّرَ غيرَ ذلك!

كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ.

أي: مثلَ هذا الإشراكِ وتحريمِ ما أحَلَّ اللهُ والاحتجاجِ الباطِلِ الصَّادِرِ مِن المُشرِكينَ على مَشروعيَّةِ ذلك تكذيبًا للرُّسُلِ، فعَلَ مَن قَبلَهم مِن المُشرِكينَ، فأهلَكَهم اللهُ، فهلَّا استدَلُّوا بهلاكِ أولئك على أنَّ اللهَ غيرُ راضٍ عن فِعلِهم، وعلى عدَمِ صِحَّةِ حُجَّتِهم؟!

كما قال تعالى: سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ * قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ [الأنعام: 148-149].

فقال اللهُ أيضًا ردًّا على شُبهتِهم:

فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ.

أي: ليس الأمرُ كما تقولونَ مِن أنَّ اللهَ رَضِيَ أفعالَكم هذه، بل أنكَرَها عليكم، ونَهاكم عنها على ألسِنَةِ رُسُلِه، فإنَّما وظيفتُهم تبليغُ الرِّسالةِ تبليغًا واضِحًا مُوضِّحًا لطريقِ الحَقِّ بما لا يَبقَى معه حُجَّةٌ لأحدٍ، فقد بلَّغُوكم، وأوضَحُوا لكم، فصار وَبالُ كُفْرِكم وعِصيانِكم عليكم.

وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (36).

وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ.

أي: ولقد بعَثْنا في كلِّ طائفةٍ مِن النَّاسِ رَسولًا يأمُرُهم بعبادةِ اللهِ وَحدَه، وتَرْكِ عبادةِ كُلِّ مَن دونَه، كالشَّياطينِ والأصنامِ، فحُجَّتُه سُبحانَه قد قامَتْ على جميعِ الأُمَمِ.(98)

(98) قال ابنُ القيِّمِ: (الطاغوتُ اسمٌ لكُلِّ ما عَبَدوه مِن دونِ الله، فكلُّ مُشركٍ إلهُه طاغوتُه).
((مدارج السالكين)) (3/447).

فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ.

أي: فمِنَ الأُمَمِ مَن هداهم اللهُ، فأرشَدَهم إلى دينِه، ووفَّقَهم للإيمانِ به، واتِّباعِ رُسُلِه وطاعتِه.

وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ.

أي: ومِن الأُمَمِ مَن وجَبَت عليهم الضَّلالةُ، ولَزِمَهم الكُفرُ، فأهلَكَهم اللهُ.

كما قال تعالى: فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ [هود: 105].

وقال سُبحانه: فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ [الشورى: 7].

وقال عزَّ وجلَّ: وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ * فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ [الأعراف: 28-30].

فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ.

أي: فسِيروا في الأرضِ للاعتبارِ، فانظُروا إلى آثارِ عَذابِ اللهِ للأُمَمِ السَّابقةِ مِن الذين كَذَّبوا الرُّسُلَ، فصار آخِرَ أمرِهم الهَلاكُ.

كما قال سُبحانه: فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ [الحج: 45-46].

وقال عزَّ وجلَّ: أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا [محمد: 10].

وقال تبارك وتعالى: وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ [الملك: 18].

إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (37).

أي: إنْ تحرِصْ- يا مُحمَّدُ- على هدايةِ المُشركِينَ لاتِّباعِ الحقِّ، فإنَّ اللهَ لا يهدي إليه مَن قدَّر بحِكمتِه وعَدلِه دوامَ ضَلالِه، فلن يهتَديَ أبدًا ولو حَرَصْتَ على هدايتِه، فلا تُجهِدْ نفسَك في أمْرِه، وبلِّغْه ما أُرسِلْتَ به؛ لِتقومَ عليه الحُجَّةُ.

كما قال تعالى: وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا [المائدة: 41].

وقال سُبحانه: مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ [الأعراف: 186].

وقال عزَّ وجلَّ: إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ [يونس: 96-97].

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

قولُه تعالى: يَهْدِي فيه قِراءتانِ:

1- قراءةُ يَهْدِي بفتحِ الياءِ، وكسرِ الدالِ، والمعنى: إنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَن قدَّر دوامَ ضلالِه. وقيل: المعنى: إنَّ اللهَ مَن يُضلُّ لا يَهْدي، أي: لا يَهْتَدي.(99)

2- قراءةُ يُهْدَى بضمِّ الياءِ، وفتحِ الدالِ، أي: من أضلَّهُ اللهُ لَا يهديه أحدٌ، كما قال تعالى: مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ [الأعراف: 186].(100)

وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ.

أي: وما للضَّالِّينَ مِن ناصِرين يَمنَعونَ عنهم عُقوبةَ اللهِ، ويُنقِذونَهم مِن عَذابِه.

---

(99) قرأ بها حمزةُ وعاصِمٌ والكسائيُّ.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (304/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: 211)، ((معاني القراءات)) للأزهري (79/2)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 389)، ((تفسير ابن عاشور)) (122/13).

(100) قرأ بها الباقون.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (304/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: 210)، ((معاني القراءات)) للأزهري (79/2)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 389).

سورةُ النَّحلِ

الآيات (38-40)

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (38) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (39) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (40)

غريب الكلمات:

جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ: أي: أقوَى الأيمانِ وأغلَظَها مُجتَهِدينَ في تَوكيدِها. وحقيقةُ الجَهدِ: التَّعَبُ والمشَقَّةُ، ومُنتهى الطَّاقةِ، ثمَّ أطلِقَ على أشَدِّ الفِعلِ ونِهايةِ قُوَّتِه؛ لِما بينَ الشِّدَّةِ والمَشقَّةِ مِن المُلازَمةِ.

تفسير الآيات:

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (38).

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ.

أي: وحلفَ مُشرِكو قُرَيشٍ باللهِ، وغَلَّظوا الأيمانَ وأكَّدُوها، على أنَّ اللهَ لا يَبعَثُ الموتَى بعدَ أنْ صاروا تُرابًا!

بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا.

أي: بلى سيبعَثُ اللهُ الموتى، وعَدَ سبحانَه بذلك وعدًا، ولا يُخلِفُ اللهُ وَعدَه.

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ.

أي: ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ أنَّ اللهَ باعِثُهم يومَ القيامةِ بعد مَوتِهم، فيُخالِفونَ الرُّسُلَ؛ لجَهلِهم، ويَقعونَ في الكُفرِ.

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ - ﷺ - قال: ((قال اللهُ: كَذَّبَني ابنُ آدمَ ولم يكُنْ له ذلك، وشَتَمَني ولم يكُنْ له ذلك؛ فأمَّا تكذيبُه إيَّايَ فقَولُه: لن يُعيدَني كما بَدَأني، وليس أوَّلُ الخَلقِ

بأهْوَنَ عليَّ مِن إعادتِه، وأمَّا شَتمُه إيَّايَ فقَولُه: اتَّخَذَ اللهُ ولدًا، وأنا الأحَدُ الصَّمَدُ، لم ألِدْ ولم أُولَدْ، ولم يكُنْ لي كُفئًا أحَدٌ)).[101]

لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (39).

لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ.

أي: سيَبعَثُ اللهُ الموتى؛ لِيُظهِرَ لهم في الآخرةِ الحقَّ الذي كانوا يَختَلِفونَ فيه في الدُّنيا- ومِن ذلك اختِلافُهم في ثُبوتِ البَعثِ- ويَحكُمَ بينهم، ويَجزيَ كلًّا بما عَمِلَه.[102]

وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ.

أي: ولِيَعلَمَ الذين كَفَروا باللهِ تعالى، وأنكَروا البَعثَ أنَّهم كانوا في الدُّنيا كاذِبينَ في حَلِفِهم على أنَّ اللهَ لا يَبعَثُ مَن يَموتُ.

إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (40).

إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ.

---

(101) رواه البخاري (4974).

(102) قال ابنُ عاشور: (اللهُ تعالى حكيمٌ لا تجري أفعالُه على خلافِ الحِكمةِ التامَّةِ، أي: جعلَ البعثَ؛ ليُبَيِّنَ للنَّاسِ الشيءَ الذي يختلِفون فيه من الحَقِّ والباطل، فيظهر حَقُّ المحِقِّ، ويظهَر باطِلُ المُبطِل في العقائِدِ ونحوها من أصولِ الدينِ وما ألحِقَ بها. وشَمِل قولُه: يَخْتَلِفُونَ كُلَّ معاني المحاسَبةِ على الحقوقِ؛ لأنَّ تمييزَ الحقوقِ مِن المظالِمِ كُلَّه محلُّ اختلافِ النَّاسِ وتنازُعِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (155/14).

أي: إنَّما قَولُنا لشَيءٍ نُريدُ إيجادَه أن نقولَ له مَرَّةً واحِدةً: كُنْ، فيكونُ كما أرَدْنا بلا تأخيرٍ، ولا تعَبٍ، ولا مشَقَّةٍ علينا، ومن ذلك إحياءُ الموتى.

كما قال تعالى: وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [يس: 78–82].

وقال سُبحانه: وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ [القمر: 50].

سورةُ النَّحلِ

الآيتان (41–42)

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (41) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (42)

غريب الكلمات:

لَنُبَوِّئَنَّهُمْ: أي: لَنُسكِنَنَّهم ولَنُنزِلَنَّهم؛ مِن التبَوُّءِ: وهو الحُلولُ بالمكانِ، والنُّزولُ به، وأصلُ (بوأ): يدلُّ على الرُّجوعِ إلى الشَّيءِ.

تفسير الآيتين:

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (41).

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً.

أي: والذين تَرَكوا أوطانَهم وقَومَهم؛ ابتغاءَ مرضاةِ اللهِ مِن بعدِ ما ظَلَمَهم الكُفَّارُ وعَذَّبوهم لِيَردُّوهم عن دينِهم- لَنُسكِنَنَّهم في الدُّنيا بلدًا يَرضَونَها، ولَنرزُقَنَّهم رِزقًا واسعًا، وعيشًا هنيئًا، ولنجازينَّهم جزاءً حَسَنًا.[103]

---

(103) قال الرسعني: (لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً أي: بلدةً أو دارًا حسنةً، وهي المدينةُ، في قولِ ابنِ عباسٍ، والحسنِ، ومجاهدٍ، وقتادةَ، والأكثرينَ).

((تفسير الرسعني)) (31/4).

قال ابنُ كثيرٍ: (لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً قال ابنُ عبَّاسٍ، والشَّعبيُّ، وقتادةُ: المدينةُ.

وقيل: الرِّزقُ الطَّيِّبُ، قاله مجاهِدٌ.

ولا مُنافاةَ بينَ القولينِ).

((تفسير ابن كثير)) (572/4).

قال الشوكاني في قولِه تعالى: لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً: (اختُلِف في معنى هذا على أقوالٍ، فقيل: المرادُ: نزولُهم المدينةَ، قاله ابنُ عبَّاسٍ، والحسنُ، والشعبيُّ، وقتادةُ.

وقيل: المرادُ: الرِّزقُ الحسَنُ، قاله مجاهدٌ.

وقيل: النصرُ على عدوِّهم، قاله الضحَّاكُ.

وقيل: ما استولَوا عليه مِن فتوحِ البلادِ، وصار لهم فيها مِن الولاياتِ.

وقيل: ما بقيَ لهم فيها مِن الثناءِ وصار لأولادِهم من الشَّرفِ.

ولا مانعَ من حملِ الآيةِ على جميعِ هذه الأمورِ).

((تفسير الشوكاني)) (196/3).

قال ابن تيمية: (سببُ نزولها المهاجرونَ إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلم، وهي عامَّةٌ في كلِّ من اتَّصفَ بهذه الصِّفةِ).

((مجموع الفتاوى)) (326/8).

وقال ابن كثير: (يحتملُ أن يكونَ سببُ نزول هذه الآية الكريمة في مُهاجِرةِ الحبشةِ الذين اشتَدَّ أذى قومِهم لهم بمكَّةَ، حتى خرجوا من بين أظهُرِهم إلى بلادِ الحبشةِ؛ ليتمكَّنوا مِن عبادةِ ربِّهم، ومِن أشرافِهم: عثمانُ بنُ عفانَ، ومعه زوجتُه رُقيَّة بنتُ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وجعفرُ ابنُ أبي طالبٍ، ابنُ عمِّ الرسولِ، وأبو سلمةَ بنُ عبدِ الأسدِ، في جماعةٍ، قريب مِن ثمانينَ، ما بينَ رجلٍ وامرأةٍ).

((تفسير ابن كثير)) (572/4).

ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (560/2).

اختُلِف في نزول هذه الآية على قولين: الأول: أنها نزلت في أبي جندل بن سهيل.

الثاني: أنها نزلت في خمسة نفر.

ورجَّح ابنُ عطية (٥/ ٣٥٦) مستندًا إلى أحوال النزول أن هذه الآية في المهاجرين إلى الحبشة من مؤمني مكة، وأنه قول الجمهور، ثم قال: «وهو الصحيح في سبب هذه الآية؛ لأن هجرة المدينة لم تكن وقت وقوع الآية».

وانتقد القول الأول مستندًا إلى أحوال النزول قائلًا: «وهذا ضعيف؛ لأن أمر أبي جندل إنما كان والنبي – ﷺ – بالمدينة».

ثم علَّق على القول الثاني بقوله: «وعلى كل قول فالآية تتناول بالمعنى كلَّ من هاجر أولًا وآخرًا».

وذهب ابنُ تيمية (٤/ ١٦٤) إلى أن «سبب نزولها المهاجرون إلى رسول الله – ﷺ –، وهي عامَّة في كل من اتَّصف بهذه الصفة».

اختُلِف في معنى: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ في هذه الآية على قولين: الأول: لنُسْكِنَنَّهم في الدنيا مَسْكَنًا يَرضَونَه صالحًا، وهو المدينة.

الثاني: لنَرْزُقَنَّهم في الدنيا رِزقًا حسنًا.

ورجَّح ابنُ جرير (١٤/ ٢٢٥) مستندًا إلى لغة العرب والنظائر القول الأول، وهو قول الشعبي، وقتادة، وعلَّل ذلك بقوله: «لأن التَّبَوُّءَ في كلام العرب: الحلول بالمكان والنزول به، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ [يونس: ٩٣]».

ونقل ابنُ عطية (٥/ ٣٥٧ بتصرف) عن فرقة: أن الحسنة هنا: لسان الصدق الباقي عليهم في غابر الدهر.

ثم وجَّهه قائلًا: «وفي قوله: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ على هذا التأويل في لسان الصدق تجوُّز كثير، واستعارة بعيدة».

ونقل عن فرقة أخرى: «أن الحسنة عامة في كل أمر مستحسن يناله ابن آدم».

ثم علَّق عليه بقوله: «وتخِفُّ الاستعارة المذكورة على هذا التأويل، وفي هذا القول يدخل ما روي عن عمر بن الخطاب؟ أنه كان يعطي المال وقت القسمة للرجل من المهاجرين، ويقول له: خذ ما وعدك الله في الدنيا، ولأجر الآخرة أكبر.

ثم يتلو هذه الآية.

كما قال تعالى: وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً [النساء: 100].

وقال سُبحانه: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ [الزمر: 10].

وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ.

أي: ولَثوابُ اللهِ للمُهاجِرينَ في الجنَّةِ أعظَمُ مِن ثوابِهِ لهم في الدُّنيا. لو كان المتخَلِّفونَ عن الهِجرةِ يَعلَمونَ ثوابَ اللهِ للمُهاجرينَ في الدُّنيا والآخرةِ، لَمَا تخلَّفَ أحدٌ منهم عن الهِجرةِ

كما قال تعالى: الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ *خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ [التوبة: 20-22].

ويدخل في هذا القول: النصر على العدو، وفتح البلاد، وكل أمل بَلَغَه المهاجرون».

وعلَّق ابنُ كثير (٨/ ٣١٣) على القولين الأول والثاني بقوله: «ولا منافاة بين القولين، فإنهم تركوا مساكنهم وأموالهم، فعوَّضهم الله خيرًا منها في الدنيا، فإن من ترك شيئًا لله عوَّضه الله بما هو خير له منه، وكذلك وقع، فإنهم مكَّن الله لهم في البلاد، وحكَّمهم على رقاب العباد، فصاروا أمراء حكامًا، وكل منهم للمتقين إمامًا».

الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (42).

الَّذِينَ صَبَرُوا.

أي: المُهاجِرونَ الذين وصَفَهم اللهُ هم الذين صَبَروا في اللهِ على امتثالِ أوامِرِه، وتجنُّبِ نواهيه، وصَبَروا على أقدارِه المُؤلِمةِ، وأذَى النَّاسِ.

وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ.

أي: وعلى ربِّهم يَعتَمِدونَ، وبه وَحدَه يَثِقونَ، ويُفوِّضونَ إليه أمورَهم.

سورةُ النَّحلِ

الآيات (43–47)

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (43) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (44) أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (45) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (46) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (47)

غريب الكلمات:

بِالْبَيِّنَاتِ: أي: بالحُجَجِ والأدِلَّةِ الواضِحةِ؛ يُقالُ: بان الشَّيءُ وأبانَ: إذا اتَّضحَ وانكَشفَ.

وَالزُّبُرِ: أي: الكُتُبِ، جَمْعُ زَبورٍ، وأصلُ (زبر): يدُلُّ على الفَخامةِ والغِلَظ؛ يقال: زبَرْتُ الكِتابَ: إذا كَتبْتَه كِتابةً غليظةً، وكلُّ كتابٍ غليظِ الكِتابةِ يُقالُ له: زَبُورٌ.

تَقَلُّبِهِمْ: أي: تَصَرُّفِهم في البِلادِ، وتَرَدُّدِهم في أسفارِهم، وأصلُ (قلب): يدُلُّ على رَدِّ شَيءٍ مِن جِهةٍ إلى جِهةٍ.

تَخَوُّفٍ: أي: تَنَقُّصٍ؛ إمَّا بقَتلٍ أو بموتٍ، يَنقُصُ مِن أطرافِهم ونَواحيهم الشَّيءَ بعد الشَّيءِ حتى يُهْلِكَ جميعَهم. أو: حالَ تخَوُّفٍ وتوَقُّعٍ للبَلايا. وعلى المعنى الثَّاني فأصلُ (خوف): يدلُّ على ذُعرٍ وفزَعٍ.

تفسير الآيات:

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (43).

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ.

أي: وما أرسَلْنا الأنبياءَ مِن قَبلِك- يا مُحَمَّدُ- إلَّا رِجالًا بَشَرًا مِن بني آدمَ لا ملائِكةً، نُوحي إليهم الشَّرائِعَ والأحكامَ.

كما قال تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى [يوسف: 109].

وقال سُبحانه: وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ [الفرقان: 20].

فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ.

أي: فاسألوا- أيُّها المُشرِكونَ- أهلَ الكِتابِ الذين قَرَؤوا الكُتُبَ مِن قَبلِكم كالتَّوراةِ والإنجيلِ، إنْ كُنتُم لا تَعلَمونَ أنَّ رُسُلَ اللهِ كانوا رِجالًا من البشَرِ لا مَلائِكةً، فاسألُوهم: هل كان الأنبياءُ والرُّسُلُ بشرًا أو ملائِكةً؟!

بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (44).

بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ.

أي: أرسَلْنا الأنبياءَ السَّابِقينَ بالحُجَجِ والكُتُبِ.

وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ.

أي: وأنزَلْنا إليك- يا مُحَمَّدُ [104]- القُرآنَ؛ لتوضِّحَ للنَّاسِ ما نزَّلَ اللهُ إليهم فيه- لفظًا بتلاوتِه، ومَعنًى بتفسيرِه، وبيانِ ما أشكَلَ عليهم منه- وتُفصِّلَ لهم بسُنَّتِك القَوليَّةِ والفِعليَّةِ ما أُجمِلَ مِن أحكامِه.[105]

كما قال سُبحانه: إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ [النساء: 105].

وقال سُبحانه: وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ [النحل: 64].

---

(104) قال ابنُ كثير: (لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ من ربِّهم، أي: لعِلمِك بمعنى ما أُنزِلَ عليك، وحِرصِك عليه، واتِّباعِك له، ولعِلْمِنا بأنَّك أفضلُ الخلائِقِ، وسَيِّدُ ولَدِ آدَمَ).

((تفسير ابن كثير)) (574/4).

(105) قال ابنُ الجوزي: (قولُه تعالى: وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ وهو القرآنُ، بإجماع المفسِّرين).

((تفسير ابن الجوزي)) (562/2).

ذكر ابنُ عطية (٥/ ٣٥٩) احتمالين في معنى: ﴿لِتُبَيِّنَ﴾، فقال: «يحتمل أن يريد: لتُبَيِّن بِسَرْدِك نص القرآن ما نزل. ويحتمل أن يريد: لتُبَيِّن بتفسيرك المجمل، وبشرحك ما أشكل مما نُزِّل».

ثم علَّق بقوله: «فيدخل في هذا ما تُبَيِّنُه السنة من أمر الشريعة. وهذا قول مجاهد».

وَلَعَلَّهُمْ يَتفَكَّرُونَ.

أي: وأنزَلْنا إليك القُرآنَ؛ كي يتفكَّرَ النَّاسُ في آياتِه، ويَعتَبِروا بها ويتَّعِظوا، فيَهتَدوا بالعمَلِ بها.

كما قال تعالى: كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ [ص: 29].

أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (45).

أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ.

أي: أفأمِنَ الذين كَفَروا باللهِ وعَصَوه- ومِن ذلك سَعيُهم في إبطالِ الإسلامِ، وكَيدُهم بالمُسلِمينَ لإيذائِهم- أن تبتَلِعَهم الأرضُ فيَغيبوا في بَطنِها؟[106]

كما قال تعالى: أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ [الملك: 16].

أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ.

---

(106) رجَّح ابنُ جرير (١٤/ ٢٣٣) مستندًا إلى السياق أنّ المقصود بقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئاتِ﴾ هم مشركو مكة، ومكرهم السيئات: شركهم وتكذيبهم، وعلَّل ذلك بقوله: «لأن ذلك تهديدٌ من الله أهل الشرك به، وهو عقيب قوله: ﴿وما أرسَلْنا من قَبْلِكَ إلا رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾، فكان تهديدُ مَن لم يُقِرَّ بحجة الله الذي جرى الكلام بخطابه قبل ذلك أحرى من الخبر عمَّن انقطع ذِكرُه عنه».

ثم ذكر أثر قتادة.

واستظهر ذلك ابنُ عطية (٥/ ٣٥٩)، ولم يذكر مستندًا.

أي: أو يأتيَهم عذابُ اللهِ غِرَّةً مِن حيثُ لا يَشعُرونَ بمَجيئِه إليهم، ولا يَدرونَ مِن أين يأتيهم.

أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (46).

أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ.

أي: أو يُهلِكَ اللهُ الكافرينَ بالعذابِ في حالِ سَفَرِهم وتصَرُّفِهم في مَعايشِهم وأشغالِهم.

كما قال تعالى: أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ [الأعراف: 98– 99].

فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ.

أي: فلَيسوا بفائتِينَ اللهَ، ولا مُمتَنِعينَ عليه؛ فهُم في قَبضتِه، يُهلِكُهم متى شاء، ولا مَهرَبَ لهم.

أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (47).

أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ.

أي: أو يُهلِكَهم بنَقصٍ مِن أطرافِهم ونَواحيهم شيئًا بعد شَيءٍ، حتى يُهلِكَ جميعَهم.(107)

---

(107) ذكر ابنُ عطية (٥/ ٣٦١) أن «هذا التنقيص يتَّجه الوعيد به على معنيين: أحدهما: أن يهلكهم ويخرج أرواحهم على تخوف، أي: أفذاذًا، يتَنَقَّصهم بذلك الشيء بعد الشيء».

ثم علَّق عليه بقوله: «وهذا لا يدَّعي أحد أنه يأمنه، وكأن هذا الوعيد إنما يكون بعذاب ما يلقون بعد الموت، وإلا فهكذا تهلك الأمم كلها، ويؤيد هذا قوله: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾، أي: أن هذه الرتبة من الوعيد فيها رأفة ورحمة وإمهال ليتوب التائب ويرجع الراجع».

فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ.

أي: فإنَّ ربَّكم لا يُعاجِلُ الكافرينَ والعاصينَ بالعُقوبةِ؛ لأنَّه رؤوفٌ رَحيمٌ بعبادِه، يَرزُقُهم ويُعافيهم، ويُمهِلُهم ليتُوبوا.

عن أبي موسى رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: ((ما أحدٌ أصبرَ على أذًى يَسمَعُه مِن الله تعالى؛ إنَّهم يجعَلونَ له نِدًّا، ويَجعَلونَ له ولدًا، وهو مع ذلك يَرزُقُهم ويُعافيهم ويُعطيهم!)).(108)

وعن أبي موسى رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ لَيُملي للظَّالِمِ حتى إذا أخَذَه لم يُفلِتْه. قال: ثمَّ قرأ: وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ [هود: 102])).(109)

«والآخر: ما قال الضحاك: أن يأخذ بالعذاب طائفة أو قرية، ويترك أخرى، ثم كذلك حتى يهلك الكل».

(108) رواه البخاري (6099)، ومسلم (2804).

(109) رواه البخاري (4686)، ومسلم (2583).

سورةُ النَّحلِ

الآيات (48-55)

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ
دَاخِرُونَ (48) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا
يَسْتَكْبِرُونَ (49) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (50) وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا
إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (51) وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ
وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (52) وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ
(53) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (54) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ
فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (55)

غريب الكلمات:

يَتَفَيَّأُ: أي: يَرجِعُ ويَمِيلُ؛ مِن الفَيءِ، يقال: فاء الظِّلُّ يَفيءُ فَيْئًا: إذا رجعَ وعادَ، وأصلُه يدلُّ على الرُّجوعِ.

دَاخِرُونَ: أي: أذِلَّاءُ صاغِرونَ، وأصلُ (دخر): يدلُّ على الذُّلِّ.

وَاصِبًا: أي: دائِمًا ثابِتًا واجِبًا، وأصلُ (وصب): يدلُّ على دوامِ شَيءٍ.

تَجْأَرُونَ: تَرفَعونَ أصواتَكم بالدُّعاءِ وتَستَغيثونَ، وأصلُه: مِن جُؤارِ الثَّورِ: إذا رفع صوتًا شديدًا مِن جُوعٍ أو غيرِه.

تفسير الآيات:

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (48).

أي: أولَمْ يَنظُرْ هؤلاء- الذين مَكَروا السَّيِّئاتِ- إلى مخلوقاتِ اللهِ القائمةِ التي لها ظِلٌّ، كالأشجارِ والجِبالِ وغيرِها، تَرجِعُ ظِلالُها مِن مَوضِعٍ إلى آخَرَ، فتَميلُ ذاتَ اليَمينِ أوَّلَ النَّهارِ، وذاتَ الشِّمالِ في آخِرِه، منقادةً لأمْرِه خاضِعةً لعَظَمتِه بمَيَلانِها ودَوَرانِها مِن جانبٍ إلى جانبٍ آخَرَ، وهم صاغِرونَ تحتَ تَسخيرِه وتَدبيرِه وقَهْرِه سُبْحانَه؟![110]

كما قال تعالى: وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ [الرعد: 15].

---

(110) اختلف في معنى: ﴿سُجَّدًا لِلَّهِ﴾ في هذه الآية على أقوال: الأول: أن ظل كل شيء سجوده.

الثاني: أن سجود الظلال سجود أشخاصها.

الثالث: أن سجود الظلال كسجود الأشخاص تسجد لله خاضعة.

ووجَّه ابنُ عطية (٥/ ٣٦٥) القول الأول بقوله: «هو سجود عبادة حقيقية».

ووجَّه القول الثالث بقوله: «عبَّر عن الخضوع والطاعة وميلان الظلال ودورانها بالسجود».

ورجَّح ابنُ جرير (١٤/ ٢٤٢) مستندًا إلى دلالة اللغة، وأقوال السلف القول الثالث، وهو قول ابن عباس من طريق العوفي، فقال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبر في هذه الآية أن ظلال الأشياء هي التي تسجد.

وسجودها: مَيَلانُها ودَوَرانُها من جانبٍ إلى جانبٍ، وناحيةٍ إلى ناحيةٍ.

كما قال ابن عباس.

يقال من ذلك: سجَدَتِ النخلة إذا مالت، وسجَدَ البعير وأسْجَدَ: إذا مُيِّل للركوب».

وقال سُبحانَه: أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا [الفرقان: 45].

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (49).

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ.

أي: ولله وحدَه يسجُدُ جميعُ ما في السَّموات، وجميعُ ما في الأرضِ مِن كلِّ ما يَدِبُّ ويتحَرَّكُ سجودَ ذلٍّ وخضوعٍ، فكلُّ أحدٍ خاضعٌ لربوبيتِه، ذليلٌ لعزَّتِه، مقهورٌ تحتَ سلطانِه.

كما قال تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ [الحج: 18].

وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ.

أي: والملائِكةُ يَسجُدونَ لله، وهم لا يَستكبِرونَ عن عِبادتِه، والتَّذَلُّلِ له بطاعتِه.

كما قال تعالى: لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ [النساء: 172].

وقال سُبحانَه: وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ [الأنبياء: 19-20].

وقال عزَّ وجلَّ: فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ [فصلت: 38].

يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (50).

يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ.

أي: يخافُ الملائِكةُ مِن اللهِ الذي هو فوقَهم بذاتِه وقَهرِه وكَمالِ صِفاتِه.

وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ.

أي: ويَفعَلُ الملائِكةُ ما يأمُرُهم اللهُ بفِعلِه، ولا يَعصُونَه.

وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (51).

وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ.

أي: وقال اللهُ لعِبادِه: لا تَعبُدوا مَعبُودَينِ اثنَينِ، فتَجعَلوا لي شَريكًا في العبادةِ.

إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ.

أي: إنَّما المعبودُ المُستحِقُّ للعبادةِ واحِدٌ، وهو اللهُ وَحدَه؛ فلا تَعبُدوا غَيرَه.

فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ.

أي: فخافُوني وَحْدِي، وامتَثِلوا أمْري، واجتَنِبوا نَهْيِي، ولا تُشرِكوا بي شَيئًا.

وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (52).

وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

أي: ولله وَحْدَه مُلْكُ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ مِن خَلقِه، وكُلُّهم عبيدُه.

وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا.

أي: ولله وَحْدَه الطَّاعةُ والإخلاصُ والخُضوعُ والذُّلُّ دائِمًا في جميعِ الأوقاتِ؛ فطاعتُه واجِبةٌ وثابتةٌ على عبادِه أبدًا، لا تنقَطِعُ ولا تزولُ، بخلافِ طاعةِ غَيرِه سُبحانَه.

أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ.

أي: أفغَيرَ اللهِ- أيُّها النَّاسُ- تخافونَ وتُطيعونَ، وهو المَعبودُ الحَقُّ، المتفَرِّدُ بالخَلقِ والمُلْكِ والتدبيرِ؟!

وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (53).

وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ.

أي: كلُّ ما لديكم- أيُّها النَّاسُ- من نِعَمٍ ظاهرةٍ وباطنةٍ، فهو مِن اللهِ وَحْدَه، لا مِن غَيرِه.

ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ.

أي: ثمَّ إذا أصابَكم مَرَضٌ أو فقرٌ أو شِدَّةٌ وبلاءٌ، فإلى اللهِ تَصرُخونَ بالدُّعاءِ، وبه تَستَغيثونَ؛ ليَكشِفَ عنكم ما أصابَكم مِن شِدَّةٍ؛ لعِلْمِكم أنَّه وَحْدَه القادِرُ على إغاثَتِكم.

ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (54).

أي: ثمَّ إذا أزال اللهُ عنكم الشِّدَّةَ، ورفع البلاءَ، إذا جماعةٌ منكم- أيُّها النَّاسُ- يجعلون لربِّهم شريكًا في عبادته!

كما قال تعالى: حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ [يونس: 22- 23].

وقال سُبحانَه: وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا [الإسراء: 67].

لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (55).

لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ.

أي: لِيَكفُرَ(111) المُشرِكونَ بما آتيناهم مِن نِعمةِ كَشْفِ الضُّرِّ عنهم.

---

(111) قال ابن عطية: (قوله: لِيَكْفُرُوا يجوزُ أن تكونَ اللامُ لامَ الصَّيرورةِ، أي: فصار أمرُهم ليَكفُروا، وهم لم يقصِدوا بأفعالِهم تلك أن يكفُروا.

ويجوز أن تكونَ لامَ أمرٍ على معنى التهديدِ والوعيدِ، كقوله: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ [فصلت: 40] .

والكفرُ هنا يحتمِلُ أن يكون كُفرَ الجَحدِ باللهِ والشِّرك، ويؤيدُه قولُه: بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ، ويحتَمِلُ أن يكون كُفرَ النِّعمةِ، وهو الأظهرُ؛ لِقَولِه: بِمَا آتَيْنَاهُمْ أي: بما أنعمْنا عليهم).

((تفسير ابن عطية)) (401/3).

فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ.

أي: فتَمَتَّعوا في حياتِكم الدُّنيا قليلًا- أيُّها المُشرِكونَ- فسوف تَعلَمونَ عاقِبةَ كُفرِكم.

ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (115/10).

وممَّن قال: إنَّ اللام للعاقبة والصيرورة، أي: آل أمرُهم إلى الكفر: الألوسي، والقاسمي.

يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (406/7)، ((تفسير القاسمي)) (379/6).

وقال الشوكاني: (اللامُ في لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ لام كي، أي: لكي يكفُروا بما آتيناهم مِن نِعمةِ كَشفِ الضُّرِّ، وحتى كأنَّ هذا الكُفرَ منهم الواقِعَ في موضعِ الشُّكرِ الواجِبِ عليهم، غَرَضٌ لهم ومَقصِدٌ مِن مقاصِدِهم، وهذا غايةٌ في العتُوِّ والعنادِ ليس وراءَها غايةٌ).

((تفسير الشوكاني)) (203/3).

وممَّن جعل اللامَ هنا لامَ كي: ابنُ جرير، والواحدي، والقرطبي، والشوكاني، وابنُ عاشور.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (499/18)، ((الوسيط)) (66/3)، ((تفسير القرطبي)) (115/10)، ((تفسير الشوكاني)) (203/3)، ((تفسير ابن عاشور)) (178/14).

سورةُ النَّحلِ

الآيات (56–60)

وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (56) وَيَجْعَلُونَ
لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ (57) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا
وَهُوَ كَظِيمٌ (58) يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي
التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (59) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى
وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (60)

غريب الكلمات:

كَظِيمٌ: أي: مُمسِكٌ على حُزنِه، لا يُظهِرُه، ولا يَشكوه، وأصلُ (كظم): يدلُّ على إمساكِ الشَّيءِ، وجَمعِه.

يَتَوَارَى: أي: يختفي ويتغيَّبُ، وأصلُه مِن الوَراءِ، وهو جِهةُ الخَلفِ.

هُونٍ: أي: هَوانٍ، وأصلُ (هون): يدلُّ على ذُلٍّ.

يَدُسُّهُ: أي: يُخفِيه ويَئِدُه، وأصلُ (دسس): يدُلُّ على دُخولِ الشَّيءِ تحت خَفاءٍ وسِرٍّ.

الْمَثَلُ الْأَعْلَى: أي: الصفةُ العُلْيا، التي هي أعلَى مِن كلِّ صفةٍ، مِن تنزُّهِه عن الولدِ، وسائرِ ما لا يليقُ بجلالِه، وأصلُ (مثل): يَدُلُّ على مناظرةِ الشَّيءِ للشَّيءِ.

تفسير الآيات:

وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (56).

وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ.

أي: ويجعَلُ المُشرِكونَ للأصنامِ- التي لا يعلَمونَ لها حَقًّا، ولا ضَرًّا ولا نَفعًا، ولا حُجَّةَ لهم في عِبادتِها- حظًّا مِمَّا رزَقْناهم من الأموالِ، كالحَرْثِ والأنعامِ؛ يتقَرَّبونَ بها إليها![112]

كما قال تعالى: وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ [الأنعام: 136].

---

(112) قال ابنُ الجوزي: (في الذينَ لَا يَعْلَمُونَ قولان: أحدهما: أنَّهم الجاعِلونَ، وهم المُشرِكونَ، والمعنى: لِمَا لا يَعلَمونَ لها ضَرًّا ولا نَفعًا، فمفعولُ العلمِ محذوفٌ، وتقديرُه: ما قُلْنا، هذا قولُ مجاهدٍ وقتادةَ.
والثاني: أنَّها الأصنامُ التي لا تعلَمُ شيئًا، وليس لها حِسٌّ ولا معرفةٌ، وإنَّما قال: يَعْلَمُونَ؛ لأنَّهم لَمَّا نَحلوها الفهمَ، أجراها مجرى مَن يَعقِلُ على زَعْمِهم، قاله جماعةٌ من أهلِ المعاني).
((تفسير ابن الجوزي)) (2/565).
وممن اختار القولَ الأولَ: ابنُ جريرٍ، وابنُ عطيةَ، والقرطبي، وأبو حيان، وابنُ عاشورٍ.
ونسَبه الواحديُّ إلى عامةِ المفسِّرين.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (14/253)، ((البسيط)) للواحدي (13/89)، ((تفسير ابن عطية)) (3/401)، ((تفسير القرطبي)) (10/115)، ((تفسير أبي حيان)) (6/547)، ((تفسير ابن عاشور)) (14/181).
وممن اختار القول الثاني: الواحدي، والسعدي.
يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (13/89-90)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 609)، ((تفسير السعدي)) (ص: 442).

تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ.

أي: واللهِ- أيُّها المُشرِكونَ- ليَسألنَّكم اللهُ يومَ القيامةِ عَمَّا كُنتُم تختَلِقونه في الدُّنيا مِن الكَذِب عليه، بادِّعائِكم أنَّه أمَرَكم بعبادةِ غَيرِه، وسيُعاقِبُكم على ذلك.

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ (57).

أي: ويَنسُبُ المُشرِكونَ لله البناتِ- إذ زَعَموا أنَّ الملائِكةَ بَناتُه تعالى- تنزَّه اللهُ عن أن يكونَ له ذلك، ولهم ما يُحِبُّونَ، وهم الذُّكورُ!

كما قال تعالى: فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ * فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ [الصافات: 149 – 159].

وقال سُبحانَه: أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ [الزخرف: 16 – 18].

وقال عزَّ وجلَّ: أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى [النجم: 21– 22].

وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (58).

أي: وإذا أُخبِرَ أحدُ المُشرِكينَ- الذين يجعَلونَ لله البَناتِ- بوِلادةِ بنتٍ له، يظَلُّ وَجهُه متغيِّرًا؛ من كآبتِه وكراهِيَتِه الشَّديدةِ لذلك، قد امتلأ غمًّا وغضَبًا وغيظًا!

يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (59).

يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ.

أي: يَختَفي عن أنظارِ قَومِه؛ مِن كَراهِيَتِه للبِنتِ، ومِمَّا يَلحَقُه مِن الحُزنِ والعارِ والحَياءِ![113]

أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ.

أي: يتحَيَّرُ ويترَدَّدُ بين أمرينِ: هل يُمسِكُها على هَوانٍ وذِلَّةٍ، أم يُخفِيها في التُّرابِ بدَفنِها حَيَّةً؟!

كما قال تعالى: وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ [التكوير: 8-9].

أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ.

(113) قال ابنُ عطية (٥/ ٣٧٢): «وقوله: ﴿يَتَوارى مِنَ القَوْمِ﴾ الآية، هذا التواري الذي ذكر الله تعالى إنما هو بعد البشارة بالأنثى، وما يحكى أن الرجل منهم كان إذا أصاب امرأته الطلق توارى حتى يخبر بأحد الأمرين فليس المراد في الآية، ويُشبه أن ذلك كان إذا أخبر بسارٍّ خرج، وإن أخبر بسوء بقي على تواريه ولم يحتج إلى إحداثه».

أي: ألا بِئسَ الحُكمُ ما يَحكُمُ به هؤلاء المُشرِكونَ، في نِسبتِهم البناتِ- اللاتي لا يَرضَونَهنَّ لأنفُسِهم ويكرَهونَهنَّ- إلى اللهِ، ونِسبتِهم البَنينَ الذين يُحِبُّونَهم إلى أنفُسِهم!

لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (60).

لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ.

أي: لهؤلاءِ المُشرِكينَ- الذين لا يُصَدِّقونَ بالبَعثِ والثَّوابِ والعِقابِ- المَثَلُ القَبيحُ، والعَيبُ والنَّقصُ.

وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى.

أي: ولله الوَصفُ الأفضَلُ والأطيَبُ والأحسَنُ، مِن تَوحيدِه، وتنَزُّهِه عن الولَدِ، وأنَّ له جميعَ صِفاتِ الكَمالِ المُطلَقِ مِن جَميعِ الوُجوهِ.(114)

---

(114) ذكر ابنُ عطية (٥/ ٣٧٢ - ٣٧٣) في قوله: ﴿مثل﴾ قولًا، وانتقده مســـتندًا لظاهر اللفظ، فقال: «قالت فرقة: ﴿مَثَلُ﴾ في هذه الآية بمعنى: صفة، أي: لهؤلاء صفة السوء، ولله الوصف الأعلى.

وهذا لا نضطر إليه، لأنه خروج عن اللفظ».

وعلّق عليه ابنُ القيم (٢/ ١١٢) بقوله: «وهذا قول صحيح، فالمثل كثيرًا ما يرد بمعنى: الصفة. قاله جماعة من المتقدمين».

ثم رجّح ابنُ عطية مستندًا إلى دلالة العقل أن قوله: «﴿مَثَلُ﴾ على حاله، وذلك أنهم إذا قالوا: إنّ البنات لله. فقد جعلوا له مثلًا، فالبنات من البشـر، وكثرة البنات عندهم مكروه ذميم، فهو مثل السـوء الذي أخبر الله تعالى أنه لهم ليس في البنات فقط، لكن لما جعلوه هم في البنات جعله هو لهم على الإطلاق في كل سوء، ولا غاية بعد عذاب النار، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ على الإطلاق أيضًا في الكمال المستغني».

كما قال تعالى: وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ [الروم: 27].

وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

أي: واللهُ ذو العِزَّةِ، القاهِرُ لكُلِّ شَيءٍ،(115) الحَكيمُ الذي يضَعُ الأشياءَ في مَواضِعِها اللَّائقةِ بها، بلا خَللٍ ولا خَطأٍ في تدبيرِه.

وذكر ابنُ القيم (٢/ ١١٢ – ١١٣) عدة أقوال في معنى الآية، ثم علّق بقوله: «قلت: المثل الأعلى يتضمن الصفة العليا، وعلم العالمين بها، ووجودها العلمي، والخبر عنها، وذكرها، وعبادة الرب سبحانه بواسطة العلم والمعرفة القائمة بقلوب عابديه وذاكريه، فهاهنا أربعة أمور، الأول: ثبوت الصفات العليا لله سبحانه في نفس الأمر، علمها العباد أو جهلوها، وهذا معنى قول مَن فسره بالصفة.

الثاني: وجودها في العلم والتصور، وهذا معنى قول مَن قال من السلف والخلف: إنه ما في قلوب عابديه وذاكريه من معرفته وذكره ومحبته وإجلاله وتعظيمه.

وهذا الذي في قلوبهم من المثل الأعلى لا يشترك فيه غيره معه، بل يختص به في قلوبهم، كما اختص في ذاته، وهذا معنى قول مَن قال من المفسرين: أهل السماء يعظمونه ويحبونه ويعبدونه، وأهل الأرض يعظمونه ويجلونه.

الثالث: ذكر صفاته والخبر عنها وتنزيهها عن النقائص والعيوب والتمثيل.

الرابع: محبة الموصوف بها وتوحيده والإخلاص له والتوكل عليه والإنابة إليه، وكلما كان الإيمان بالصفات أكمل كان هذا الحب والإخلاص أقوى.

فعبارات السلف تدور حول هذه المعاني الأربعة لا تتجاوزها».

(115) قال ابنُ جريرٍ: (واللهُ ذو العزةِ التي لا يمتنعُ عليه معها عقوبةُ هؤلاء المشركينَ- الذين وصَف صفتَهم في هذه الآياتِ- ولا عقوبةُ مَن أراد عقوبتَه على معصيتِه إيّاه، ولا يتعذَّر عليه شيءٌ أراده وشاءه؛ لأنَّ الخلقَ خلقُه، والأمرَ أمرُه).

((تفسير ابن جرير)) (259/14).

سورةُ النَّحلِ

الآيات (61-64)

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا
جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (61) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ
أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ (62) تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا
إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (63) وَمَا
أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (64)

غريب الكلمات:

مُفْرَطُونَ: أي: مُخَلَّفونَ، مَتروكونَ في النَّارِ، مَنسيُّونَ فيها. وقيل: مُعَجَّلونَ إلى النَّارِ مُقَدَّمونَ إليها؛ مِن الفَرَطِ: وهو السَّابِقُ إلى الوِرْدِ.

تفسير الآيات:

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (61).

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ.

أي: ولو يُعاجِلُ اللهُ النَّاسَ بالعُقوبةِ؛ بسَبَبِ شِرْكِهم وكُفرِهم، وافتِرائِهم على اللهِ، وعِصيانِهم له- لأهلَكَ بسببِ شؤمِ ذلك جميعَ النَّاسِ وغيرهم مِن الدَّوابِّ.

كما قال تعالى: وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا [فاطر: 45].

وقال سُبحانَه: وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا [الكهف: 58].

وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى.

أي: ولكِنْ يُمهِلُ اللهُ بحِلْمِه الظَّالِمينَ، فلا يُعاجِلُهم بالعُقوبةِ إلى وقتٍ وَقَّتَه لهم.

كما قال تعالى: وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ [إبراهيم: 42].

وعن أبي موسى رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله – ﷺ –: ((إنَّ اللهَ لَيُملي للظَّالِمِ حتى إذا أخَذَه لم يُفلِتْه، ثمَّ قرأ: وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ [هود: 102])).(116)

فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ.

أي: فإذا جاء الوَقتُ المُقَدَّرُ لهلاكِ الظَّالِمينَ، لا يُؤخَّرونَ عن الهَلاكِ ساعةً فيُمهَلونَ، ولا يتقدَّمون عنه فيُهلَكونَ قَبلَه، فلْيَحْذروا ما داموا في وَقتِ الإمهالِ قبل أن يَحِينَ الوَقتُ الذي لا يُمهَلونَ فيه.

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ (62).

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ.

أي: وينسبُ المُشرِكونَ لله البَناتِ اللَّاتي يَكرَهونَهنَّ لأنفُسِهم، ويَعُدُّونَ نِسبَتَهنَّ إلى أحَدِهم نقصًا وعيبًا، ويَجعَلونَ له شُرَكاءَ مِن عَبيدِه في عبادتِه، وهم يَكرهونَ أن يكونَ عبيدُهم شُرَكاءَ لهم في أموالِهم.

كما قال تعالى: وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ [النحل: 57 – 59].

(116) رواه البخاري (4686) واللفظ له، ومسلم (2583).

وقال سبحانه: وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ * أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ * وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ [الزخرف: 15– 19].

وقال عزَّ وجلَّ: ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [الروم: 28].

وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى.

أي: ويَكذِبُ المُشركونَ بألسِنتِهم، فيَزعُمونَ أنَّ لهم الجَزاءَ الحسَنَ في الدُّنيا وفي الآخِرةِ.(117)

كما قال تعالى: وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ [فصلت: 50].

---

(117) في قوله: ﴿الحسنى﴾ قولان: الأول: أن المراد به: الذكور من الأولاد.

الثاني: أن المراد به: الجنة.

وقد ذكر ابنُ عطية (٥/ ٣٧٤ – ٣٧٥) القول الأول، وعلّق عليه بقوله: «وهو الأسبق من معنى الآية».

وعلّق على القول الثاني بقوله: «ويؤيد هذا قوله: ﴿لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾، ومعنى الآية على هذا التأويل: يجعلون لله المكروه، ويدَّعون مع ذلك أنهم يدخلون الجنة.

كما تقول لرجل: أنت تعصي الله، وتقول مع ذلك أنت تنجو.

أي: هذا بعيد مع هذا».

وقال عزَّ وجلَّ: وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا [الكهف: 35-36].

وقال سُبحانَه: أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا * أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا [مريم: 77-78].

لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ.

أي: حَقًّا لا بُدَّ مِنه أنَّ لهم النَّارَ يومَ القيامةِ.

وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ.

أي: وحقًّا أنَّهم مُعجَّلونَ ومُقدَّمونَ إلى النَّارِ، مَنْسِيُّونَ ومَترُوكونَ فيها أبدًا.(118)

---

(118) قال ابنُ كثيرٍ: (قال مجاهدٌ، وسعيدُ بن جُبير، وقتادةُ وغيرُهم: مَنْسِيُّونَ فيها مُضَيَّعونَ.
وعن قتادة أيضًا: مُفْرَطُونَ أي: مُعَجَّلونَ إلى النَّارِ، من الفَرَط: وهو السَّابِقُ إلى الوِردِ، ولا مُنافاةَ؛ لأنَّهم يُعَجَّلُ بهم يومَ القيامةِ إلى النَّارِ، ويُنسَونَ فيها، أي: يُخَلَّدونَ).
((تفسير ابن كثير)) (4/580).
وذكر السَّعدي نحو ذلك، فجمَع بينَ كلا المعنيَين.
قال: (وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ مُقدَّمونَ إليها، ماكِثونَ فيها، غيرُ خارجينَ منها أبدًا).
((تفسير السعدي)) (ص: 443).
اختلف السلف في تفسير قوله: ﴿وأنهم مفرطون﴾ على أقوال: الأول: أنهم متروكون في النار.
الثاني: أنهم معجلون إلى النار مقدمون إليها.
الثالث: أنهم مبعدون في النار.
وعلّق ابنُ جرير (١٤/ ٢٦٥) على القول الثاني، فقال: «وقال آخرون: معنى ذلك: معجلون إلى النار، مقدمون إليها.
وذهبوا في ذلك إلى قول العرب: أفرطنا فلانًا في طلب الماء.

كما قال تعالى: فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا [الأعراف: 51].

وقال سُبحانَه: فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [السجدة: 14].

وقال عزَّ وجلَّ: وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ [الجاثية: 34].

إذا قدموه لإصلاح الدلاء والأرشية، وتسوية ما يحتاجون إليه عند ورودهم عليه، فهو مفرط، فأما المتقدم نفسه فهو فارط، يقال: قد فرط فلان أصحابه يفرطهم فرطًا وفروطًا: إذا تقدمهم، وجمع فارط فراط، ومنه قول القطامي:

واستعجلونا وكانوا من صحابتنا ...

كما تعجل فراط لورادومنه قول النبي – ﷺ –: «أنا فرطكم على الحوض».

أي: متقدمكم إليه، وسابقكم حتى ترده».

وقد رجّح ابنُ جرير (١٤/ ٢٦٦) القول الأول، وانتقد القول الثاني مستندًا إلى دلالة العقل، واللغة، وعلل ذلك بقوله: «وذلك أن الإفراط الذي هو بمعنى التقديم إنما يقال فيمن قدم مقدمًا لإصلاح ما يقدم إليه إلى وقت ورود من قدمه عليه، وليس بمقدم من قدم إلى النار من أهلها لإصلاح شيء فيها لوارد يرد عليها فيها فيوافقه مصلحًا، وإنما تقدم من قدم إليها لعذاب يعجل له، فإذا كان معنى ذلك الإفراط الذي هو تأويل التعجيل ففسد أن يكون له وجه في الصحة؛ صح المعنى الآخر، وهو الإفراط الذي بمعنى التخليف والترك، وذلك أن يحكى عن العرب: ما أفرطت ورائي أحدًا، أي: ما خلفته، وما فرطته، أي: لم أخلفه».

وذكر ابنُ كثير (٨/ ٣٢٢) الأول والثاني، وعلّق عليهما بقوله: «ولا منافاة؛ لأنهم يعجل بهم يوم القيامة إلى النار، وينسون فيها، أي: يخلدون».

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1- قراءةُ **مُفْرِطُونَ** بكَسرِ الرَّاءِ وتَخفيفِها، اسِمُ فاعلٍ مِن أفْرَطَ في الأمرِ: إذا أسرَفَ فيه وجاوزَ الحَدَّ. بمعنى: أنَّهم مُفْرِطونَ في الذُّنوبِ والمعاصي، أي: مُسرِفونَ على أنفُسِهم بالإكثارِ منها.(119)

2- قِراءةُ **مُفَرِّطُونَ** بكَسرِ الرَّاءِ وتَشديدِها، اسمُ فاعلٍ مِن فَرَّطَ في الأمرِ: إذا ضَيَّعَه وقَصَّر فيه. بمعنى: أنَّهم مُقَصِّرونَ في أداءِ الواجِباتِ، وفَرَّطوا في الدُّنيا فلم يَعمَلوا فيها للآخرةِ.(120)

3- قِراءةُ **مُفْرَطُونَ** بفَتحِ الرَّاءِ مُخفَّفةً، اسمُ مَفعولٍ من أُفْرِطَ: إذا نُسِي وتُرِكَ غيرَ مُلتَفَتٍ إليه. والمعنى: أنَّهم مَتروكونَ في النَّارِ مَنْسِيُّونَ فيها. وقيل: هو مِن أفرَطْتُ فُلانًا في طَلَبِ الماءِ: إذا قَدَّمْتَه. والمعنى: أنَّهم مُعَجَّلونَ ومقدَّمونَ إلى النَّارِ.(121)

---

(119) قرأ بها نافع.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (304/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (267/14)، ((معاني القراءات)) للأزهري (80/2)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 391)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (395/2).

(120) قرأ بها أبو جعفر.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (304/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (267/14)، ((تفسير ابن الجوزي)) (567/2)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (249/7).

(121) قرأ بها الباقون.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (304/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (80/2، 81)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 391).

تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (63).

تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ.

أي: واللهِ- يا مُحَمَّدُ- لقد أرسَلْنا رُسُلًا إلى أُمَمٍ ماضيةٍ مِن قَبلِك بمِثْلِ ما أرسَلْناك به؛ مِن الدُّعاءِ إلى توحيدِ اللهِ، وإخلاصِ العبادةِ له، وطاعتِه.

فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ.

أي: فحسَّنَ الشَّيطانُ لهم ما كانوا يَعمَلونَه؛ مِن كُفرٍ وشِركٍ باللهِ، وتَكذيبٍ للرُّسُلِ.

فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ.

أي: فالشَّيطانُ يومَ القيامةِ هو وليُّ المشركينَ الذين كذَّبوا الرُّسلَ، وزيَّن لهم سوءَ أعمالِهم، وهو ناصرُهم، ليس لهم ناصرٌ غيرُه، ولا قدرةَ له على نصرِهم، ولا يملكُ خلاصَهم ولا نفعَهم.(122)

---

(122) وممن اختار أنَّ المرادَ باليوم: يومُ القيامةِ- أي: أن الشَّيطانَ وليُّهم يومَ القيامةِ-: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والواحدي، والسمين الحلبي، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ كثيرٍ، واختيارُ البقاعي، والعليمي، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (475/2)، ((الوسيط)) للواحدي (69/3)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (249/7)، ((تفسير ابن كثير)) (580/4)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (189/11)، ((تفسير العليمي)) (35/4)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (426/3).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ السائبِ.

يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (567/2).

قال السمين الحلبي: (يجوزُ أن تكونَ هذه الجملةُ حكايةَ حالٍ ماضيةٍ- أي: فهو ناصرُهم- أو آتيةٍ، ويراد باليومِ: يومُ القيامة، هذا إذا عاد الضميرُ على أُمَمٍ وهو الظاهرُ).

((الدر المصون)) (249/7).

وقال الشوكاني: (يحتملُ أنْ يكونَ الْيَوْمَ عبارةً عن يومِ القيامةِ وما بعدَه، فيكونَ للحالِ الآتيةِ، ويكونَ الوليُّ بمعنَى الناصرِ، والمرادُ: نفيُ الناصرِ عنهم على أبلغِ الوجوهِ؛ لأنَّ الشيطانَ لا يُتصوَّرُ منه النصرةُ أصلًا في الدارِ الآخرةِ، وإذا كان الناصرُ منحصرًا فيه لزِم أن لا نصرةَ مِن غيرِه).

((تفسير الشوكاني)) (207/3).

وقيل: المرادُ باليومِ هنا: الدُّنيا.

وممَّن اختار هذا القولَ: ابنُ جرير، والقرطبي، والرسعني، والقاسمي، والسعدي، وابنُ عاشور.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (268/14)، ((تفسير القرطبي)) (121/10)، ((تفسير الرسعني)) (50/4)، ((تفسير القاسمي)) (382/6)، ((تفسير السعدي)) (ص: 443)، ((تفسير ابن عاشور)) (194/14-195).

وولايةُ الشيطانِ في الدُّنيا قيل: هي نصرُه لهم.

وممن اختار ذلك: ابنُ جرير، والقرطبي، والرسعني.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (268/14)، ((تفسير القرطبي)) (121/10)، ((تفسير الرسعني)) (50/4).

وقيل: هي بتزيينِه أعمالَهم، وكونِه قرينًا لهم يُغويهم، فيطيعونَه ويتبعونه.

وممن اختار هذا المعنى: القاسمي، والسعدي، وابنُ عاشور.

يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (382/6)، ((تفسير السعدي)) (ص: 443)، ((تفسير ابن عاشور)) (194/14-195).

قال السعدي: (لمَّا زيَّن لهم الشيطانُ أعمالَهم، صار وليَّهم في الدُّنيا، فأطاعوه واتَّبعوه وتولَّوْه).

((تفسير السعدي)) (ص: 443).

وقيل: المرادُ بقولِه: فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ أي: الشيطانُ وليُّ كفارِ مكةَ اليومَ؛ يتولَّى إغواءَهم وصرفَهم عنك، كما فعَل بكفارِ الأممِ قبلَك، فهو متولِّي أمرِهم، كما كان وليَّ الأممِ مِن قبلِهم، إذْ زيَّن لهم أعمالَهم، فيكونُ على هذا التقديرِ رجَع عن أخبارِ الأممِ الماضيةِ إلى الإخبارِ عن كفارِ مكةَ.

وممن اختار هذا القولَ: ابنُ عاشور.

يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (194/14).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (230/20).

وممن قال مِن السلفِ: إنَّ المرادَ باليوم هنا الدُّنيا: أبو سليمان الدمشقي.

يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (567/2).

قال الماتُريدي: (قال بعضُهم: هو وليُّهم اليومَ في الدُّنيا؛ لأنَّ الدُّنيا هي دارُ الوَلايةِ بينهم، كقولِه: بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ [الجاثية: 19]، وقوله: أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ [البقرة: 257]، وأمَّا في الآخرة فيصيرونَ أعداءً، كقوله: الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

أي: وللمُشرِكينَ عَذابٌ مُؤلِمٌ في الآخرةِ، فلا تَنفَعُهم وَلايةُ الشَّيطانِ.

وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

(64).

وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ.

عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ [الزخرف: 67]، وقوله: ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ [العنكبوت: 25] الآية، وقوله: قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ [ق: 27]، ونحوه).

((تفسير الماتريدي)) (524/6).

قال الشوكاني: (يحتملُ أن يكونَ الْيَوْمَ عبارةً عن زمانِ الدنيا، فيكونَ المعنَى: فهو قرينُهم في الدنيا...

ويحتملُ أن يُرادَ بـ الْيَوْمَ بعضُ زمانِ الدنيا، وهو على وجهينِ: الأول: أنْ يُرادَ البعضُ الذي قد مضَى، وهو الذي وقَع فيه التزيينُ مِن الشيطانِ للأممِ الماضيةِ، فيكون على طريقِ الحكايةِ للحالِ الماضيةِ.

الثاني: أنْ يُرادَ البعضُ الحاضرُ، وهو وقتُ نزولِ الآيةِ، والمرادُ: تزيينُ الشيطانِ لكفَّارِ قريشٍ، فيكونُ الضميرُ في وَلِيُّهُمُ لكفارِ قريشٍ، أي: فهو وليُّ هؤلاءِ اليومَ، أو: على حذفِ مضافٍ، أي: فهو وليُّ أمثالِ أولئك الأممِ اليومَ).

((تفسير الشوكاني)) (207/3).

ذكر ابنُ عطية (٥/ ٣٧٦) احتمالين في المراد من ﴿اليوم﴾، فقال: «وقوله: ﴿الْيَوْمَ﴾ يحتمل أن يريد: يوم الإخبار بهذه الآية، وهو بعد موت أولئك الأمم المذكورة، أي: لا ولي لهم مذ ماتوا واحتاجوا إلى الغوث إلا الشيطان.

ويحتمل أن يريد: يوم القيامة، والألف واللام فيه للعهد، أي: هو وليهم في اليوم المشهود، وهو وقت الحاجة والفصل.

ويحتمل أن يريد: فهو وليُّهم مدة حياتهم، ثم انقطعت ولايته بموتهم.

وعبر عن ذلك بقوله: ﴿الْيَوْمَ﴾ تمثيلًا للمخاطبين بمدة حياتهم، كما تقول لرجل شاب تحضه على طلب العلم: يا فلان، لا يدرس أحد من الناس إلا اليوم.

تريد: في مثل سنك هذه.

فكأنه قال لهؤلاء: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ﴾ في مثل حياتكم هذه، وهي التي كانت لهم».

أي: وما أنزَلْنا عليك القُرآنَ- يا مُحَمَّدُ- إلَّا من أجلِ أن تُبَيِّنَ للنَّاسِ بواسطةِ بياناتِ هذا القُرآنِ ما اختَلَفوا فيه من الدِّينِ، فتُرشِدَهم إلى الحَقِّ والصَّوابِ.(123)

كما قال تعالى: وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [البقرة: 213].

وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.

أي: وأنزَلْنا القُرآنَ هاديًا للقُلوبِ مِن كُلِّ ضَلالةٍ، ورَحمةً في الدُّنيا والآخِرةِ لِقَومٍ يُصَدِّقونَ بما فيه، ويُقِرُّونَ بما تضَمَّنَه، ويَعمَلونَ به.

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ [يونس: 57].

وقال عزَّ وجَلَّ: مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [يوسف: 111].

---

(123) قال ابنُ عطية (٥/ ٣٧٦): «وقوله ﴿الَّذِي اخْتَلَفُوا﴾ فِيهِ لفظ عام لأنواع كفر الكفرة؛ من الجحد بالله تعالى، أو بالقيامة، أو بالنبوءات، أو غير ذلك، ولكن الإشارة في هذه الآية إنما هي لجحدهم الربوبية، وتشريكهم الأصنام في الألوهية، يدل على ذلك أخذه بعد هذا في إثبات العبر الدالة على أن الأنعام وسائر الأفعال إنما هي من الله تعالى، لا من الأصنام».

وقال سُبحانَه: وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ [النحل: 89].

وقال تبارك وتعالى: هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ [الجاثية: 20].

سورةُ النَّحلِ

الآيات (65–69)

وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ
(65) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا
لِلشَّارِبِينَ (66) وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (67) وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ
وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا
شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (69)

غريب الكلمات:

لَعِبْرَةً: أي: اعتِبارًا وموعظةً، ودلالةً على قدرةِ اللهِ، والاعْتبارُ والعِبرةُ: الحالةُ التي يتوصَّلُ بها مِن معرفةِ المشاهَدِ إلى ما ليسَ بمشاهَدٍ، وأصلُ (العَبْرِ): تجاوزٌ مِن حالٍ إلى حالٍ.

فَرْثٍ: أي: ما في الكَرِشِ مِن فَضَلاتٍ، وأصلُ (فرث): يدُلُّ على شَيءٍ مُتفَتِّتٍ.

سَائِغًا: أي: سَهلًا هَنيئًا لا يَغَصُّ به شارِبُه، وأصلُ (سوغ): يدُلُّ على سُهولةِ الشَّيءِ واستِمرارِه في الحَلقِ خاصَّةً.

سَكَرًا: أي خَمْرًا، وأصلُ (سكر): يدُلُّ على حَيرةٍ.

يَعْرِشُونَ: أي: يَبْنونَ ويَسقُفونَ، وأكثَرُ ما يُستعمَلُ فيما يكونُ مِن إتقانِ الأغصانِ والخَشَبِ وتَرتيبِ ظِلالِها، وأصلُ (عرش): يدلُّ على ارتفاعٍ في شَيءٍ مَبنيّ.

ذُلُلًا: أي: مُسَهَّلةً مُستقيمةً مُذَلَّلةً، وأصلُ (ذلل): يدلُّ على اللِّينِ.

تفسير الآيات:

وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (65).

وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا.

أي: واللهُ وَحْدَه أنزلَ مِن السَّحابِ مَطرًا، فأخرَجَ به نَباتَ الأرضِ بعد أن كانت يابِسةً لا زَرْعَ فيها.

كما قال تعالى: وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ [ق: 9-11].

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ.

أي: إنَّ في إحياءِ اللهِ الأرضَ المَيْتةَ بالمطَرِ لدَلالةً واضِحةً على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وقُدرتِه على البَعثِ، لِقَومٍ يَسمَعونَ هذه الحُجَّةَ، فيتدَبَّرونَها ويَفهمونَها.

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (66).

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً.

أي: وإنَّ لكم- أيُّها النَّاسُ- في الإبِلِ والبَقَرِ والغَنَمِ لَدَلالةً تَستَدِلُّونَ بها على قُدرةِ اللهِ ورَحمتِه، وحِكمَتِه ولُطفِه وعَظَمتِه، وأنَّه وَحْدَه المُستَحِقُّ للعِبادةِ.

كما قال تعالى: أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ [يس: 71-73].

نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ.

أي: نُسْقِيكم لبنًا نُخرِجُه لكم- أيُّها النَّاسُ- مِمَّا في بُطونِ الأنعامِ مِن بينِ فَرْثِها ودَمِها صافِيًا، غيرَ مُختَلِطٍ برائِحةِ الفَرْثِ، ولا لَونِ الدَّمِ، سَهْلَ المُرورِ في الحَلقِ، لذيذًا هنيئًا لا يَغَصُّ به شارِبُه.(124)

(124) ذكر ابنُ عطية (٥/ ٣٧٧ - ٣٧٨) في عود الضمير من قوله: ﴿مما في بطونه﴾ عدة أقوال، فقال: «وقوله: ﴿مِمّا فِي بُطُونِهِ﴾ الضمير عائد على الجنس، وعلى المذكور، كما قال الشاعر:

مثل الفراخ نتفت حواصله

وهذا كثير، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ [الإنسان: ٢٩]، ﴿فَمَن شاءَ ذَكَرَهُ﴾ [المدثر: ٥٥].

وقيل: إنما قال: ﴿مِمّا فِي بُطُونِهِ﴾ لأن الأنعام والنعم واحد فرد، والضمير على معنى: النعم.

وقالت فرقة: الضمير عائد على البعض، إذ الذكور لا ألبان لها، فكأن العبرة إنما هي في بعض الأنعام».

وذكر ابنُ كثير (٨/ ٣٢٣) في عود الضمير قولين، وعلّق عليهما، فقال: «وأفرد هاهنا الضمير عودًا على معنى: النعم، أو الضمير عائد على الحيوان؛ فإن الأنعام حيوانات، أي: نسقيكم مما في بطن هذا الحيوان، وفي الآية الأخرى: ﴿مما في بطونها﴾ [المؤمنون: ٢١]، ويجوز هذا وهذا، كما في قوله تعالى: ﴿كلا إنه تذكرة فمن شاء ذكره﴾ [المدثر: ٥٤ - ٥٥]، وفي قوله تعالى: ﴿وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون فلما جاء سليمان﴾ [النمل: ٣٥ - ٣٦] أي: المال».

وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (67).

وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا.

أي: ولكم أيضًا- أيُّها النَّاسُ- عِبرةٌ فيما نُسقِيكم ونَرزُقُكم مِن ثَمَراتِ النَّخيلِ ومِنَ الأعنابِ، فتَتَّخِذونَ منه شَرابًا مُسْكِرًا- وهو الخَمرُ- ورِزْقًا حَسَنًا لا ينشأُ عنه ضَرَرٌ في بَدَنٍ ولا عَقلٍ، كالتَّمرِ والرُّطَب، والعِنَب والزَّبيب، والعَصيرِ والخَلِّ.[125]

---

(125) اختلف السلف في تفسير قوله: ﴿تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا﴾ على أقوال: الأول: عنى بالسكر: الخمر. وبالرزق الحسن: التمر والزبيب.

وقال أصحاب هذا القول: إنما نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر، ثم حرمت بعد.

الثاني: السكر بمنزلة الخمر في التحريم، وليس بخمر، وقالوا: هو نقيع التمر والزبيب إذا اشتد وصار يسكر شاربه.

الثالث: السكر: هو كل ما كان حلالًا شربه؛ كالنبيذ الحلال، والخل، والرطب.

والرزق الحسن: التمر، والزبيب.

وقد علّق ابنُ جرير (١٤/ ٢٨٤ - ٢٨٥ بتصرف) على القول الثالث بقوله: «وعلى هذا التأويل الآية غير منسوخة، بل حكمها ثابت».

ثم رجّحه، ورجّح عدم النسخ في الآية، وانتقد بقية الأقوال مستندًا إلى لغة العرب، وعدم وجود دليل على النسخ، وقال: «وذلك أن السكر في كلام العرب على أحد أوجه أربعة: أحدها: ما أسكر من الشراب.

والثاني: ما طعم من الطعام.

والثالث: السكون.

والرابع: المصدر من قولهم: سكر فلان يسكر سُكْرًا وسَكْرًا وسَكَرًا، فإذا كان ذلك كذلك، وكان ما يسكر من الشراب حرامًا، وكان غير جائز لنا أن نقول: هو منسوخ، إذ كان المنسوخ هو ما نفى حكمه الناسخ، وما لا يجوز اجتماع الحكم به وناسخه، لم يكن في حكم الله -تعالى ذكره- بتحريم الخمر دليل على أن السكر الذي هو غير الخمر وغير ما يسكر من الشراب حرام، إذ كان السكر أحد معانيه عند العرب، ومن نزل بلسانه القرآن هو كل ما طعم، ولم يكن مع ذلك، إذ لم يكن في

النَّاسِخُ والمَنسوخُ:

قيل: هذه الآيةُ مَنسوخةٌ بقولِه تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ [المائدة: 90–91].

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ.

أي: إنَّ في إنعامِنا على النَّاسِ بلَبَنِ الأنعامِ وثَمَراتِ النَّخيلِ والأعنابِ لَدَلالةً واضِحةً لِقَومٍ يَفهَمونَ حُجَجَ اللهِ ومَواعِظَه، فيتَدَبَّرونَها ويتَّعِظونَ بها، ويُقِرُّونَ بوَحدانيَّتِه وكَمالِ قُدرتِه سُبحانَه.

وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68).

نفس التنزيل دليل على أنه منسوخ، أو ورد بأنه منسوخ خبر من الرسول، ولا أجمعت عليه الأمة؛ فوجب القول بما قلنا من أن معنى السكر في هذا الموضع: هو كل ما حل شربه مما يتخذ من ثمر النخل والكرم، وفسد أن يكون معناه: الخمر، أو ما يسكر من الشراب، وخرج من أن يكون معناه: السكر نفسه؛ إذ كان السكر ليس مما يتخذ من النخل والكرم، ومن أن يكون بمعنى السكون».

وقال ابنُ عطية (٥/ ٣٧٩): «والسكر: ما يسكر.

هذا هو المشهور في اللغة».

وانتقد دعوى النسخ، فقال: «وقال بعض الفرقة التي رأت السكر الخمر: إنّ هذه الآية منسوخة بتحريم الخمر.

وفي هذه المقالة درك؛ لأن النسخ إنما يكون في حكم مستقر مشروع».

أي: وألْهَم ربُّك[126]– يا مُحمَّدُ– النَّحلَ أن اتَّخِذي مِن الجِبالِ بُيوتًا تَأوينَ إليها، ومِن الأشجارِ، ومِمَّا يبني النَّاسُ.[127]

ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (69).

ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ.

أي: ثمَّ ألْهَمَ اللهُ النَّحلَ أنْ كُلِي مِن كُلِّ أنواعِ الثِّمارِ.

فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا.

أي: فادخُلي– أيُّها النَّحلُ– طُرُقَ رَبِّكِ مُذَلَّلةً لكِ؛ لتَطلُبي الرِّزقَ حيثما توجَّهْتِ.[128]

---

(126) ذكر ابنُ عطية (٥/ ٣٧٩) عدة معانٍ للوحي، ثم بيَّن أن الوحي في هذه الآية هو وحي الإلهام باتفاق المتأولين.

(127) بيّن ابنُ جرير (١٤/ ٢٨٦ – ٢٨٧) أن قوله: ﴿مما يعرشون﴾ معناه: ما يبنون من السقوف.

وذكر قول ابن زيد، ولم يعلق عليه.

ورجّح ابنُ عطية (٥/ ٣٧٩ – ٣٨٠) أن عَرَشَ معناه: هيَّأ، وأكثر ما يستعمل فيما يكون من اتفاق الأغصان والخشب وترتيب ظلالها، ومنه العريش الذي صُنع لرسول الله – ﷺ – يوم بدر، ومن هذا هي لفظة العرش «.

ثم ذكر ابن عطية قول ابن زيد، وقول ابن جرير أن يعرشون معناه: ما يبنون من السقوف.

وانتقدهما، فقال:» وهذا منهما تفسير غير متقن".

ولم يذكر مستندًا.

(128) في قوله تعالى: ﴿ذللا﴾ قولان: الأول: مذللة لك.

الثاني: مطيعة.

يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ.

أي: يَخرُجُ مِن بُطونِ النَّحلِ عَسَلٌ مُختَلِفُ الألوانِ؛ ما بينَ أحمَرَ وأصفَرَ وأبيضَ وغَيرِ ذلك مِن الألوانِ الحَسَنةِ، على اختلافِ مَراعيها ومَأكَلِها منها.

فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ.

أي: في العسَلِ شِفاءٌ للنَّاسِ مِن الأمراضِ.(129)

وقد ذكر ابن جرير (١٤/ ٢٨٨) القولين، وعلَّق على الأول وهو قول مجاهد ومن وافقه، فقال: «وعلى هذا التأويل الذي تأوله مجاهد الذلل من نعت السبل.

والتأويل على قوله: ﴿فاسلكي سبل ربك ذللا﴾ الذلل لك: لا يتوعر عليك سبيل سلكتيه، ثم أسقطت الألف واللام فنصب على الحال».

وعلَّق على الثاني، فقال: «فعلى هذا القول الذلل من نعت النحل».

وعلَّق على القولين، فقال: «وكلا القولين غير بعيد من الصواب في الصحة؛ وجهان مخرجان».

ثم رجّح مستندًا إلى اللغة القول الأول، فقال: «غير أنا اخترنا أن يكون نعتًا للسبل؛ لأنها إليها أقرب».

أي: في الذِّكر.

ووافقه ابنُ كثير (٨/ ٣٢٥) بقوله: «والقول الأول أظهر، وهو أنه حال من الطريق، أي: فاسلكيها مذللة لك. نص عليه مجاهد».

(129) قال ابنُ القيِّم: (اختلف النَّاسُ في قولِه تعالى: يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ هل الضَّميرُ في فِيهِ راجِعٌ إلى الشَّراب، أو راجِعٌ إلى القرآن؟ على قولين: الصحيحُ: رجوعُه إلى الشَّرابِ، وهو قَولُ ابنِ مسعود، وابنِ عباس، والحسَن، وقتادة، والأكثرين؛ فإنَّه هو المذكورُ، والكلامُ سِيقَ لأجلِه، ولا ذِكرَ للقرآنِ في الآيةِ، وهذا الحديثُ الصَّحيحُ، وهو قولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «صدق الله» كالصَّريحِ فيه، والله تعالى أعلم).

((زاد المعاد)) (34/4).

قال ابنُ عطية (٥/ ٣٨١): «وقوله: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ الضمير للعسل، قاله الجمهور، ولا يقتضي العموم في كل علة، وفي كل إنسان، بل هو خبر عن أنه يشفي كما يشفي غيره من الأدوية في بعض، وعلى حال دون حال، ففي الآية إخبار منبه على أنه دواء لمّا كَثُرَ الشفاء به، وصار خليطًا ومعينًا للأدوية والأشربة والمعاجين».

عن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ رَجلًا أتى النبيَّ – ﷺ –، فقال: أخي يَشتكي بَطْنَه، فقال: اسْقِه عَسَلًا، ثمَّ أتى الثَّانيةَ فقال: اسْقِه عَسَلًا، ثمَّ أتاه الثَّالِثةَ فقال: اسْقِه عَسَلًا، ثمَّ أتاه فقال: قد فَعَلْتُ، فقال: صدَقَ اللهُ، وكَذَب بَطنُ أخيك، اسْقِه عَسَلًا، فسَقاه فبَرَأ)).(130)

ثم ذكر هذا الأثر عن ابن عمر، وعلّق عليه بقوله: «وهذا يقتضي أنه يرى الشفاء به على العموم».

اختلف السلف فيما عنى الله بقوله: ﴿فيه شفاء للناس﴾ على قولين: الأول: أنه القرآن.

الثاني: أنه العسل.

وقد رجّح ابنُ جرير (١٤/ ٢٩١) القول الثاني مستندًا إلى السياق، وعلل ذلك بقوله: «لأن قوله: ﴿فيه﴾ في سياق الخبر عن العسل، فأن تكون الهاء من ذكر العسل إذ كانت في سياق الخبر عنه أولى من غيره».

وكذا ابنُ كثير (٨/ ٣٢٦ – ٣٢٩) مستندًا إلى السنة، وذكر عدة أحاديث في كون العسل شفاء.

وبنحوهما ابنُ القيم (٢/ ١١٣ بتصرف)، حيث قال: «الصحيح: رجوع الضمير إلى الشراب، وهو قول ابن مسعود، وابن عباس، والحسن، وقتادة، والأكثرين، فإنه هو المذكور، والكلام سيق لأجله، ولا ذكر للقرآن في الآية، وهذا الحديث الصحيح وهو قوله: «صدق الله» كالصريح فيه».

وذكر ابنُ كثير (٨/ ٣٢٦) القول الأول عن مجاهد، ثم انتقده مستندًا للسياق قائلًا: «وهذا قول صحيح في نفسه، ولكن ليس هو الظاهر هاهنا من سياق الآية؛ فإن الآية إنما ذكر فيها العسل، ولم يتابع مجاهد على قوله هاهنا، وإنما الذي قاله ذكروه في قوله تعالى: ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾ الآية [الإسراء: ٨٢]، وقوله تعالى: ﴿يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين﴾ [يونس: ٥٧]».

وذكر ابنُ عطية (٥/ ٣٨١) قولًا ثالثًا، وانتقده مستندًا لدلالة العقل، فقال: «وذهب قوم من أهل الجهالة إلى أن هذه الآية إنما يراد بها: أهل البيت ورجال بني هاشم، وأنهم النحل، وأن الشراب: القرآن والحكمة، وقد ذكر بعضهم هذا في مجلس المنصور أبي جعفر العباسي: فقال له رجل ممن حضر: جعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطون بني هاشم.

فأضحك الحاضرين، وبهت الآخر، وظهرت سخافة قوله».

(130) رواه البخاري (5684) واللفظ له، ومسلم (2217).

قال ابنُ كثير: (قال بعضُ العلماءِ بالطِّبِّ: كان هذا الرجلُ عنده فضلاتٌ، فلمَّا سقاه عسلًا– وهو حارٌّ– تحلَّلت، فأسرعت في الاندفاعِ، فزاد إسهالُه، فاعتقد الأعرابيُّ أنَّ هذا يضرُّه، وهو مصلحةٌ لأخيه، ثم سقاه فازداد التحليلُ والدَّفعُ، ثم سقاه فكذلك، فلما اندفعت الفضلاتُ الفاسدةُ المضِرَّةُ بالبدنِ استمسك بطنُه، وصلَحَ مِزاجُه، واندفعت الأسقام والآلام ببركةِ إشارته عليه مِن رَبِّه أفضلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ).

((تفسير ابن كثير)) (583/4).

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ الله عنهما، قال: سَمِعْتُ النَّبيَّ – ﷺ – يقولُ: ((إنْ كان في شيءٍ مِن أدوِيَتِكم– أو: يكونُ في شَيءٍ مِن أدوِيَتِكم– خيرٌ، ففي شَرطةِ مِحْجَمٍ، أو شَربةِ عَسَلٍ، أو لَذعةٍ بنارٍ تُوافِقُ الدَّاءَ، وما أُحِبُّ أن أكتَويَ)).(131)

وعن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما: أنَّ رَسولَ الله – ﷺ – قال: ((الشِّفاءُ في ثلاثةٍ: في شَرطَةِ مِحجَمٍ، أو شَربةِ عَسَلٍ، أو كيَّةٍ بنارٍ، وأنا أنهى أمَّتي عنِ الكيِّ)).(132)

(131) رواه البخاري (5683) واللفظ له، ومسلم (2205).

(132) رواه البخاري (5681).

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ.

أي: إنَّ في إلهامِ الله للنحلِ باتخاذِ البيوتِ مِن الجبالِ والشَّجر والعُروشِ، والسلوكِ في المراعي للاجتناءِ مِن سائرِ الثّمار؛ ليَخرجَ مِن بطونِها هذا العسلُ ذو الألوانِ المتعددةِ، الذي جعَل الله فيه شفاءً للناسِ مِن الأمراضِ؛ إنَّ في ذلك لدلالةً وحجةً واضحةً لقومٍ يتفكَّرون في عظمةِ خالقِها ومسخِّرِها، فيَستدِلُّون بذلك على أنَّه القادرُ، الحكيمُ، العليمُ، الكريمُ، الرحيمُ، اللطيفُ الذي يستحقُّ العبادةَ وَحْدَه.

سورةُ النَّحلِ

الآيات (70–72)

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (70) وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (71) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (72)

غريب الكلمات:

أَرْذَلِ الْعُمُرِ: أي: أردَئِه وأوضَعِه. والرَّذْلُ: المَرغوبُ عنه لِرَداءتِه، والدُّونُ مِن كُلِّ شَيءٍ.

بِرَادِّي: أي: بمُعْطِي، وأصلُ (رد): يدلُّ على رَجعِ الشَّيءِ.

وَحَفَدَةً: أي: ولَدَ ولَدِ الرَّجُلِ، الذين يُعينونَه ويَخدُمونَه. وقيل: هم الأنصارُ والأعوانُ والخَدَمُ، وأصلُ (حفد): يدُلُّ على الخِفَّةِ في الخِدمةِ والعَمَلِ، والتجمُّعِ.

تفسير الآيات:

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (70).

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ.

أي: واللهُ وَحْدَه أوجدَكم- أيُّها النَّاسُ- من العَدَمِ، ثمَّ يُميتُكم عندَ انتهاءِ آجالِكم.

وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ.

أي: ومِنكم مَن يُؤخِّرُ اللهُ موتَه، ويُترَكُ إلى أخَسِّ العُمُرِ وأردَئِه، وهو الذي يَهرَمُ فيه، فيَضعُفُ وتَنقُصُ قُوَّتُه وعَقلُه.

كما قال الله تعالى: اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ [الروم: 54].

وقال سُبحانَه: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ [غافر: 67].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه: أنَّ رَسولَ اللهِ – ﷺ – كان يَدعو: ((أعوذُ بك مِن البُخلِ والكَسَلِ، وأرذَلِ العُمُرِ، وعذابِ القَبرِ، وفِتنةِ الدَّجَّالِ، وفِتنةِ المَحْيا والمَماتِ))[133].[134]

وعن سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((تعوَّذُوا بكَلِماتٍ كان النبيُّ – ﷺ – يتعَوَّذُ بهنَّ: اللهُمَّ إنِّي أعوذُ بك مِن الجُبنِ، وأعوذُ بك مِن البُخلِ، وأعوذُ بك من أن أُرَدَّ إلى أرذَلِ العُمُرِ، وأعوذُ بك مِن فِتنةِ الدُّنيا، وعذابِ القَبرِ)).[135]

---

(133) فِتنةُ المحيا: ما يَعرِضُ للإنسانِ مُدَّةَ حياتِه من الافتتانِ بالدُّنيا والشَّهواتِ والجهالاتِ، وفتنةُ المماتِ: الفِتنةُ عند الموتِ، ويجوزُ أن يرادَ بها فِتنةُ القبرِ.

يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (2/319).

(134) رواه البخاري (4707) واللفظ له، ومسلم (2706).

(135) رواه البخاري (6374).

لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا.

أي: نَرُدُّ مَن نشاءُ إلى أرذَلِ العُمُرِ؛ لِيَصيرَ[136] جاهِلًا لا يعلَمُ بعد عِلمِه بالأمورِ شَيئًا، فيَنسى ما كان يَعلَمُه مِن قبلُ، فالذي ردَّه إلى هذه الحالِ قادرٌ- سُبحانَه- على أن يُميتَه ثُمَّ يُحيِيَه ويَبعَثَه للحِسابِ والجزاءِ يومَ القيامةِ.[137]

كما قال تعالى: ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا [الحج: 5].

---

(136) قال ابنُ جزي: (لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا اللامُ لامُ الصيرورةِ، أي: يصيرُ إذا هرِم لا يعلمُ شيئًا، بعدَ أن كان يعلمُ قبلَ الهرمِ).

((تفسير ابن جزي)) (431/1).

ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (619/2)، ((تفسير القاسمي)) (388/6-389)، ((تفسير ابن عاشور)) (212/14).

(137) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: 246)، ((تفسير ابن جرير)) (292/14)، ((معاني القرآن)) للزجاج (211/3)، ((تفسير القرطبي)) (141/10)، ((تفسير ابن كثير)) (585/4)، ((تفسير السعدي)) (ص: 444)، ((تفسير ابن عاشور)) (212/14)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (410/2).

قال ابن جزي: (وليس المرادُ نفيَ العلمِ بالكليةِ، بل ذلك عبارةٌ عن قلةِ العلمِ؛ لغلبةِ النسيانِ.

وقيل: المعنَى: لئلَّا يعلمَ زيادةً على علمِه شيئًا).

((تفسير ابن جزي)) (431/1).

وقال أبو حيان: (الظاهرُ أنَّ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ عامٌّ، فيمَن يلحقُه الخرفُ والهرمُ.

وقيل: هذا في الكافرِ؛ لأنَّ المسلمَ لا يزدادُ بطولِ عمرِه إلا كرامةً على اللهِ؛ ولذلك قال تعالى: ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أي: لم يُرَدُّوا إلى أسفلِ سافلينَ.

وقال قتادةُ: «مَن قرأ القرآنَ لم يُرَدَّ إلى أرذلِ العمرِ).

((تفسير أبي حيان)) (562/6).

إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ.

أي: إنَّ اللهَ عليمٌ بكُلِّ ما كان ويكونُ، فلا يَنسى ولا يتغيَّرُ عِلمُه، ولا يَجهَلُ شَيئًا، قديرٌ على كلِّ شيءٍ سُبحانَه.

وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (71).

وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ.

أي: واللهُ فضَّل بَعضَكم- أيُّها النَّاسُ- على بَعضٍ فيما رزَقَكم مِن الأموالِ، فجعَلَ بَعضَكم غنيًّا، وبَعضَكم فقيرًا، وبَعضَكم حُرًّا له مالٌ، وبَعضَكم مملوكًا لا مالَ له.

فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ.

أي: فليس الذين فضَّلهم الله على غَيرِهم بالرِّزقِ بجاعِلي رِزقِهم لعَبيدِهم، فيَكونوا هم وعبيدُهم شُرَكاءَ فيه بالسَّويَّة؛ فإذا لم يكُنْ عَبيدُكم معكم سواءً في أموالِكم، ولا تَرضَونَ هذه الحالَ لأنفُسِكم، فكيف تجعَلونَ مع اللهِ شُرَكاءَ له في العبادةِ وهم عبيدٌ له، ليس لهم من المُلْك مِثقالُ ذَرَّةٍ؟!

كما قال تعالى: ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [الروم: 28].

أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ.

أي: أفبِنعمَةِ اللهِ التي أنعمَ بها مِن الرِّزقِ يَجحَدُ هؤلاء الكافِرونَ، بإشراكِهم غيرَه في عبادتِه، واستعمالِ نِعَمِه في مَعصِيَتِه؟!

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (72).

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا.

أي: واللهُ خلَقَ لكم- أيُّها النَّاسُ- مِن جِنسِكم البَشَريِّ وعلى هَيئتِكم أزواجًا، فتَسكنونَ إليها، ويحصُلُ الائتلافُ والمودَّةُ بينكم.

كما قال تعالى: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا [الأعراف: 189].

وقال سُبحانَه: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ [الروم: 21].

وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً.

أي: وخلَقَ لكم مِن نسائِكم أبناءً، وأبناءً لأبنائِكم، يُسرِعونَ في خِدمتِكم، ويَقضُونَ حَوائِجَكم، وتَنتَفِعونَ بهم.(138)

---

(138) اختلف السلف في المعني بالحفدة على أقوال: الأول: الأختان.

الثاني: أعوان الرجل وخدمه.

الثالث: ولد الرجل، وولد ولده.

الرابع: بنو امرأة الرجل من غيره.

ووجّه ابن عطية (٥/ ٣٨٣) القول الثالث، فقال: «وقالت فرقة: الحفدة: هم البنون.

وهذا يستقيم على أن تكون الواو عاطفة صفة لهم، كما لو قال: جعلنا لهم بنين وأعوانًا، أي: وهم لهم أعوان، فكأنه قال: وهم حفدة».

وقد رجّح ابنُ جرير (١٤/ ٣٠٣ - ٣٠٤ بتصرف) مستندًا إلى اللغة أن الحفدة: هم المسرعون في خدمة الرجل، وأن ذلك يعم جميع هذه الأقوال، فقال: «والحفدة في كلام العرب: جمع حافد، والحافد في كلامهم: هو المتخفف في الخدمة والعمل، والحفد: خفة العمل، يقال: مر البعير يحفد حفدانًا: إذا مر يسرع في سيره، ومنه قولهم: إليك نسعى ونحفد، أي: نسرع إلى العمل بطاعتك ...

وإذ كان معنى الحفدة ما ذكرنا من أنهم المسرعون في خدمة الرجل المتخففون فيها، وكان أولادنا وأزواجنا الذين يصلحون للخدمة منا ومن غيرنا، وأختاننا الذين هم أزواج بناتنا من أزواجنا، وخدمنا من مماليكنا، إذا كانوا يحفدوننا فيستحقون اسم حفدة، لم يكن الله تعالى دل بظاهر تنزيله ولا على لسان رسوله - ﷺ - ولا بحجة عقل على أنه عنى بذلك نوعًا من الحفدة دون نوع منهم، وكان قد أنعم بكل ذلك علينا؛ لم يكن لنا أن نوجه ذلك إلى خاص من الحفدة دون عام، إلا ما اجتمعت الأمة عليه أنه غير داخل فيهم، وإذا كان ذلك كذلك فلكل الأقوال التي ذكرنا عمن ذكرنا وجه في الصحة، ومخرج في التأويل، وإن كان أولى بالصواب من القول ما اخترنا لما بينا من الدليل».

وذكر ابنُ عطية (٥/ ٣٨٣ - ٣٨٤) هذه الأقوال، ثم علّق قائلًا: «ولا خلاف أن معنى الحفد: الخدمة، والبر، والمشي مسرعًا في الطاعة، ومنه في القنوت: «وإليك نسعى ونحفد» ...

وهذه الفرق التي ذكرت أقوالها إنما بَنَتْ على أنّ كل أحد جعل له من زوجه بنون وحفدة، وهذا إنما هو في الغالب وعظم الناس».

ثم ذكر احتمالًا آخر، فقال: «ويحتمل عندي أن قوله: ﴿من أزواجكم﴾ إنما هو على العموم والاشتراك، أي: من أزواج البشر جعل الله لهم البنين، ومنهم جعل الخدمة فمن لم تكن له قط زوجة فقد جعل الله له حفدة، وحصل تحت النعمة، وأولئك الحفدة هم من الأزواج، وهكذا تترتب النعمة التي تشمل جميع العالم، وتستقيم لفظة» الحفدة «على مجراها في اللغة، إذ البشر بجملتهم لا يستغني أحد منهم عن حفدة».

وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ.

أي: ورزَقَكم اللهُ- أيُّها النَّاسُ- مِن حلالِ الأموالِ والأطعِمةِ والأشرِبةِ اللَّذيذةِ الصَّالحةِ.

وعلَّق ابنُ كثير (٨/ ٣٣٢ - ٣٣٣) عليها قائلًا: «فمن جعل ﴿وحفدة﴾ متعلقًا بـــــ ﴿أزواجكم﴾ فلا بد أن يكون المراد: الأولاد، وأولاد الأولاد، والأصهار؛ لأنهم أزواج البنات، وأولاد الزوجة.

وكما قال الشعبي والضحاك، فإنهم غالبًا يكونون تحت كنف الرجل، وفي حجره، وفي خدمته.

وقد يكون هذا هو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام في حديث بصرة بن أكثم: «والولد عبد لك».

رواه أبو داود.

وأما من جعل الحفدة: هم الخدم؛ فعنده أنه معطوف على قوله: ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا﴾، أي: وجعل لكم الأزواج والأولاد، [وجعل لكم خدامًا]».

أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ.

أي: أفَبِالباطِلِ[139] يُؤمنُ هؤلاء المُشرِكونَ، وبِنِعَمِ اللهِ التي أنعَمَ بها عليهم يَكفُرونَ، فلا يَشكُرونَ اللهَ عليها، ولا يُوَحِّدونَه، ويَنسُبونَ نِعَمَه إلى غيرِه، ويَستَعمِلونَها في مَعصِيَتِه، والكُفرِ به؟![140]

---

(139) قيل: المرادُ به: الأصنامُ.

وممن قال بذلك: الواحدي، والبغوي، وابنُ كثير.

يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (74/3)، ((تفسير البغوي)) (88/3)، (تفسير ابن كثير)) (587/4-588).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (572/2).

قال السعدي: (أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ أي: أيؤمنونَ بالباطِلِ الذي لم يكن شيئًا مذكورًا ثمَّ أوجده اللهُ، وليس له من وجودِه سوى العدَمِ، فلا تخلقُ ولا ترزُقُ ولا تدبِّرُ مِن الأمر شيئًا، وهذا عامٌّ لكُلِّ ما عُبِدَ مِن دون الله؛ فإنها باطلةٌ، فكيف يتَّخِذُها المشركونَ مِن دون الله؟!!).

((تفسير السعدي)) (ص: 444).

وقيل: المرادُ: يصدِّقون بتحريمِ ما أحلَّ الله مِن البحائرِ والسوائبِ والوصائلِ مِن الأنعامِ.

وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (304/14)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن الجوزي)) (572/2).

(140) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (74/3)، ((تفسير البغوي)) (88/3)، ((تفسير ابن كثير)) (587/4)، ((تفسير الشوكاني)) (214/3)، ((تفسير السعدي)) (ص: 444).

قال ابن جرير: (وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ يقول: وبما أحَلَّ اللهُ لهم من ذلك، وأنعم عليهم بإحلالِه يَكْفُرُونَ يقولُ: يُنكِرونَ تحليلَه، ويجحدون أن يكونَ الله أحلَّه).

((تفسير ابن جرير)) (304/14).

سورةُ النَّحلِ

الآيات (73–77)

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (73) فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (74) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (75) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (76) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (77)

غريب الكلمات:

أَبْكَمُ: هو الذي يُولَدُ أخرَسَ، فالخرسُ ملازمٌ له منذُ ولادتِه، وكلُّ أبكمَ أخرسُ، وليس كلُّ أخرسَ أبكمَ، والبَكَمُ: آفةٌ في اللِّسانِ مانِعةٌ من الكلامِ.

كَلٌّ: أي: ثقيلٌ، عالةٌ على غيرِه، وأصلُه مِن الغِلَظِ الذي هو نَقيضُ الحِدَّةِ، يقالُ: كَلَّ السِّكينُ كُلولًا: إذا غَلُظَت شَفْرتُه فلم يَقطَعْ.

كَلَمْحِ: اللمحُ: النظرُ بسرعةٍ، واللَّمْحُ أيضًا: لمعانُ البرقِ، وأصلُ (لمح): يدلُّ على لمعِ شيءٍ.

تفسير الآيات:

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (73).

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا.

أي: ويَعبُدُ المُشرِكونَ مِن دُونِ اللهِ أصنامًا ومَعبوداتٍ لا تَملِكُ أن تَرزُقَهم شَيئًا؛ لا مَطَرًا مِن السَّماءِ ولا نباتًا مِنَ الأرضِ.

وَلَا يَسْتَطِيعُونَ.

أي: ولا تَقدِرُ الأصنامُ والمَعبوداتُ مِن دُونِ اللهِ أن تَرزُقَ عابِديها شَيئًا؛ فليس لهم أيُّ نَوعٍ مِن أنواعِ الاستطاعةِ أصلًا.(141)

فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (74).

فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ.

أي: فلا تَجعَلوا لله أندادًا وأمثالًا مِن مَخلوقاتِه؛ فإنَّه سُبحانَه لا مِثْلَ له، ولا نَظيرَ.

---

(141) قال ابنُ عطية (٥/ ٣٨٧): «وقوله: ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾ على معناها بحسب اعتقاد الكفار في الأصنام أنها تعقل، ويحتمل أن يكون الضمير في ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾ للذين يعبدون، المعنى: لا يستطيعون ذلك ببرهان يُظهِرونه، وحجة يُثبِتونها».

كما قال تعالى: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ [الشورى: 11].

وقال سُبحانَه: وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ [الإخلاص: 4].

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ.

أي: فلا تَضرِبوا لله الأمثالَ؛ لأنَّ اللهَ يَعلَمُ حقائِقَ الأشياءِ، وأنَّه لا شريكَ له، ولا مثيلَ له، ولا يخفَى عليه شيءٌ مِن أعمالِكم، وأنتم- أيُّها المُشرِكونَ- لا تَعلَمونَ ذلك، فتَقَعونَ بجَهلِكم في الشِّركِ به سُبحانَه.

ثم أكَّدَ اللهُ تعالى إبطالَ مَذهَبِ عَبَدةِ الأصنامِ بهذا المثالِ، فقال تعالى:

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (75).

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا.

أي: بيَّن اللهُ مثلًا لنفسِه- تعالى- وللأصنامِ؛ كعَبدٍ مملوكٍ عاجزٍ، لا يَملِكُ شيئًا، فلا يَقدِرُ على شيءٍ مِنَ المالِ، ولا مِن أمرِ نَفْسِه ورجُلٍ حُرٍّ غَنيٍّ آتاه اللهُ رزقًا واسِعًا طيِّبًا، يَملِكُ التصرُّفَ فيه، فيُنفِقُ منه دائمًا في السرِّ والعَلانيَةِ؛ إحسانًا منه إلى الآخَرينَ.

هَلْ يَسْتَوُونَ.

أي: هل يستوي العَبدُ والحُرُّ الموصوفان بما تقَدَّمَ مِن الصِّفاتِ؟ فكذلك اللهُ الذي له المُلْكُ وبِيَدِه الرِّزقُ، المتصَرِّفُ في مُلكِه كما يشاءُ؛ لا يستوي مع المَعبوداتِ العاجزةِ التي لا تَملِكُ شيئًا، ولا قُدرةَ لها على شَيءٍ، وأنتم تتَّخِذونَها شُرَكاءَ لله تعالى في عبادتِه، فكيف تُسَوُّون بينهما؟!

الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ.

أي: الحَمدُ الكامِلُ الخالِصُ لله المُنعِمِ المُستَحِقّ لعبادةِ خَلقِه وشُكرِهم، دونَ ما يُعبَدُ مِن دُونِه؛ إذ لا نِعمةَ لتلك المَعبوداتِ على أحدٍ حتى تُحمَدَ عليها، ولكنَّ أكثَرَ[142] المُشرِكينَ لا يَعلَمونَ أنَّ اللهَ وَحْدَه هو المُستحِقُّ للعبادةِ والشُّكرِ؛ فهم يَعبُدونَ ويَحمَدونَ غيرَه لجَهلِهم.[143]

---

(142) قال القرطبي: (ذَكَرَ الأكثَرَ وهو يريدُ الجميع، فهو خاصٌّ أريدَ به التَّعميمُ.

وقيل: أي: بل أكثَرُ الخَلقِ لا يَعلَمونَ؛ وذلك أنَّ أكثَرَهم المُشرِكون).

((تفسير القرطبي)) (148/10).

ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (309/14).

(143) اختُلِف في هذا المثل على قولين: الأول: أنه مثل ضربه الله؟ لنفسه، وللأوثان؛ فالله؟ هو المالك لكل شيء، وينفق كيف يشاء، والأوثان مملوكة عاجزة، لا تقدر على شيء، فهل يستوى هذا وهذا؟! وهذا قول مجاهد، والضحاك.

والثاني: أنه مثل ضربه الله – عز وجل – للمؤمن والكافر؛ فالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء مثل الكافر، والمرزوق الرزق الحسن فهو ينفق منه سرًّا وجهرًا هو المؤمن.

وهذا قول ابن عباس، وقتادة.

ورجَّحَ ابنُ عطية، ومثله ابنُ تيمية (٤/ ١٧٠)، وكذا ابن القيم القول الأول اســـتنادًا إلى الســـياق، والدلالة العقلية، فقال ابن عطية (٥/ ٣٨٨): «هذا التأويل أصوب؛ لأن الآية تكون من معنى ما قبلها وبعدها في تبيين أمر الله والرد على الأصنام».

كما قال تعالى: أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ [الأنبياء: 24].

وقال سُبحانه: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ [الزمر: 29].

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (76).

وقال ابنُ القيم (٢/ ١١٤ – ١١٥): «القول الأول أشبه بالمراد؛ فإنه أظهر في بطلان الشرك، وأوضح عند المخاطب، وأعظم في إقامة الحجة، وأقرب نسبًا بقوله: ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السماوات والأرض شيئا ولا يستطيعون فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾، ثم قال: ﴿ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء﴾، ومن لوازم هذا المَثَل وأحكامه أن يكون المؤمن الموحد كمن رزقه منه رزقًا حسنًا، والكافر المشرك كالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء، فهذا مما نبه عليه المثل، وأرشد إليه، فذكره ابن عباس منبهًا على إرادته، لا أنّ الآية اختصت به، فتأمله فإنك تجده كثيرًا في كلام ابن عباس، وغيره من السلف في فهم القرآن، فيظن الظّانّ أن ذلك هو معنى الآية التي لا معنى لها غيره، فيحكيه قوله».

ورجّح ابنُ جرير (١٤/ ٣٠٧) القول الثاني استنادًا إلى الدلالة العقلية، فقال: «إنما اخترنا القول الذي اخترناه في المثل الأول لأنه –تعالى ذكره– مَثَّل مَثَل الكافر بالعبد الذي وصف صفته، ومَثَّل مَثَل المؤمن بالذي رزقه رزقًا حسنًا فهو ينفق مما رزقه سرًّا وجهرًا، فلم يجز أن يكون ذلك لله مثلًا؛ إذ كان الله إنما مثل الكافر الذي لا يقدر على شيء بأنه لم يرزقه رزقًا ينفق منه سرًّا، ومثل المؤمن الذي وفقه الله لطاعته فهداه لرشده فهو يعمل بما يرضاه الله، كالحر الذي بسط له في الرزق فهو ينفق منه سرًّا وجهرًا، والله –تعالى ذكره– هو الرازق غير المرزوق، فغير جائز أن يمثل إفضاله وجوده بإنفاق المرزوق الرزق الحسن».

وعلّق ابنُ عطية (٥/ ٣٨٨) على القول الثاني بقوله: «التمثيل على هذا التأويل إنما وقع في جهة الكافر فقط، جعل له مثلًا، ثم قرن بالمؤمن المرزوق، إلا أن يكون المرزوق ليس بمؤمن، وإنما هو مثال للمؤمن، فيقع التمثيل من جهتين».

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ.

أي: وضرَبَ اللهُ لكم مثلًا لنفسِه- تعالى- وللأصنامِ التي تُعبَدُ مِن دونِه؛ كرَجُلَينِ أحَدُهما لا يَنطِقُ، ولا يَسمَعُ، ولا يعقِلُ، عاجِزٌ لا يَقدِرُ على فِعلِ شَيءٍ مِن جَلبِ نَفعٍ، أو دَفْعِ ضُرٍّ، فكذلك الأصنامُ لا تَسمَعُ، ولا تَنطِقُ، ولا تَعقِلُ شَيئًا؛ فهي مصنوعةٌ مِن خَشَبٍ ونُحاسٍ وغَيرِ ذلك.

وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ.

أي: وهو مع عدَمِ نُطقِه وعَجزِه ثَقيلٌ على مَن يلي أمْرَه ويَعولُه، فكذلك الصَّنَمُ ذو كُلفةٍ ومَشَقَّةٍ على من يَعبُدُه؛ حيثُ يَقومُ بحَملِه، ووَضْعِه، وخِدْمتِه.

أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ.

أي: أينما يُرسِلْه مَولاه في عمَلٍ لِيَعمَلَه لا ينجَحْ فيه، فهو لا يأتي بخَيرٍ، ولا يَقضي حاجةً؛ لعَجزِه وعدَمِ فَهمِه لِما يُقالُ له، وعَدَمِ قُدرتِه على التَّعبيرِ عمَّا يُريدُ؛ فكذلك الصَّنَمُ لا يَعقِلُ ما يُقالُ له، ولا يَنطِقُ بشَيءٍ، فلا يأتي بخيرٍ، أو يقضي حاجةً.

هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

أي: هل يستوي هذا الأبكَمُ الكَلُّ على مَولاه الذي لا يأتي بخيرٍ حيثما توجَّهَ، ومَن هو ناطقٌ متكلِّمٌ قادِرٌ يأمُرُ بالحقِّ والقِسطِ، ويدعو إليه، وهو في نفسِه- مع ما ذُكِرَ مِن نَفعِه العامِّ- على طريقِ الحَقِّ لا يَنحرِفُ عنه، عامِلٌ بما يأمُرُ به، ويدعو إليه، ولا يتوجَّهُ إلى مطلَبٍ إلَّا ويبلُغُه بأقرَبِ سَعيٍ

وأسهَلِه، فهو عادِلٌ في أقوالِه، مُستقيمٌ في أفعالِه؟! فإذا امتنعَ التَّساوي بين هذين الصِّنفَينِ المَذكورَينِ، فكذلك يمتنِعُ التَّساوي بينَ الله سُبحانَه العادِلِ الذي يأمُرُ بالعَدلِ، وهو قائِمٌ بالقِسطِ على صراطٍ مُستقيمٍ، وبينَ ما يجعَلونَه شُرَكاءَ له.(144)

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (77).

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

أي: ولله وَحْدَه مُلْكُ ما غاب عن عِبادِه في السَّمَواتِ والأرضِ، وهو العالِمُ بكُلِّ شَيءٍ مِن الغُيوبِ سُبحانَه، دونَ الآلهةِ التي تُعبَدُ مِن دُونِه، ودونَ كُلِّ مَن سواه، لا يَملِكُ ذلك أحَدٌ غَيرُه، ولا اطِّلاعَ لأحدٍ على شَيءٍ مِن الغَيبِ إلَّا أن يُطلِعَه اللهُ عليه.

---

(144) اختُلِف في هذا المَثَل على قولين: الأول: أنه مثل ضربه الله؟ لنفسه، وللأصنام.
وهذا قول قتادة، ومجاهد، والضحاك.
والثاني: أنه مثل ضربه الله – عز وجل – للمؤمن، والكافر.
وهذا قول ابن عباس.
ورجَّح ابنُ جرير (١٤/ ٣١٣) القول الأول استنادًا إلى الدلالة العقلية، فقال: «أما المثل الثاني فإنه تمثيل منه –تعالى ذكره– من مثله الأبكم الذي لا يقدر على شيء، والكفار لا شك أن منهم مَن له الأموال الكثيرة، ومَن يضر أحيانًا الضر العظيم بفساده، فغير كائن ما لا يقدر على شيء، كما قال –تعالى ذكره– مثلًا لمن يقدر على أشياء كثيرة، فإذا كان ذلك كذلك كان أولى المعاني به تمثيل ما لا يقدر على شيء كما قال –تعالى ذكره– بمثله ما لا يقدر على شيء، وذلك الوثن الذي لا يقدر على شيء بالأبكم الكل على مولاه الذي لا يقدر على شيء كما قال ووصف».
وإلى الأول ذَهَبَ ابنُ تيمية (٤/ ١٧١)، وكذا ابنُ القيم (٢/ ١١٥)، وهو ظاهر كلام ابن عطية (٥/ ٣٨٩).

وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ.

أي: وما أمرُ قيامِ السَّاعةِ في سُرعةِ وُجودِها، وبَعثِ الخَلقِ وسُهولتِه إلَّا كنَظرةٍ سَريعةٍ مِن البَصَرِ أو هي أسرَعُ مِن ذلك.

قال تعالى: وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ [القمر: 50].

وقال عزَّ وجلَّ: مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ [لقمان: 28].

إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

أي: إنَّ اللهَ قادِرٌ على كلِّ شَيءٍ، ولا يُعجِزُه شَيءٌ، ومن ذلك قدرتُه على إقامةِ السَّاعةِ، والمجيءِ بها في أسرعِ ما يكونُ؛ فهو سبحانَه يقولُ للشَّيءِ: كُنْ فيَكونُ.

سورةُ النَّحلِ

الآيات (78-83)

وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (78) أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ
فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (79) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ
جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا
أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (80) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا
وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ
تُسْلِمُونَ (81) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (82) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا
وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (83)

غريب الكلمات:

مُسَخَّرَاتٍ: أي: مُذَلَّلاتٍ، وأصلُ (سخر): يدُلُّ على استِذلالٍ.

تَسْتَخِفُّونَهَا: أي: يَخِفُّ عليكم حَمْلُها، وأصلُ (خفف): يُخالِفُ الثِّقَلَ والرَّزانةَ.

ظَعْنِكُمْ: أي: سَفَرِكم وتَرْحالِكم، وأصلُ (ظعن): يدُلُّ على الشُّخوصِ مِن مكانٍ إلى مكانٍ.

وَأَوْبَارِهَا: جمعُ وبرٍ، وهو للإبلِ كالصوفِ للغنمِ، وهو خاصٌّ بالإبلِ.

أَثَاثًا: أي: مَتاعَ البَيتِ، وأصلُه: مِن الكَثرةِ والاجتِماعِ؛ اجتِماعِ بَعضِ المَتاعِ إلى بَعضٍ حتى يَكثُرَ، كالشَّعرِ الأثيثِ، وهو الكثيرُ المُلتَفُّ.

أَكْنَانًا: أي: مَواضِعَ تَستَكِنُّونَ بها، كالكُهوفِ والأسرابِ وغَيرِها، وأصلُ (كنن): يدُلُّ على سَترٍ وصَونٍ.

سَرَابِيلَ: أي: جميعَ ما يُلبَسُ على البَدَنِ، كالقُمُصِ والدُّروعِ وغيرِها.

بَأْسَكُمْ: أي: شِدَّةَ الطَّعنِ والضَّربِ والرَّمي في الحَربِ، وأصلُ (بأس): يدلُّ على الشِّدَّةِ.

تفسير الآيات:

وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (78).

وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا.

أي: واللهُ أخرَجَكم- أيُّها النَّاسُ- بقُدرتِه وعِلمِه مِن بُطونِ أمَّهاتِكم أطفالًا جاهِلينَ، لا عِلمَ لكم بشَيءٍ من أمورِ الدُّنيا والآخرةِ.

وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ.

أي: وخلَقَ لكم السمعَ الذي به تَسمَعونَ، والأبصارَ التي بها تُبصِرونَ، والأفئِدةَ التي بها تَعقِلونَ؛ كي تَشكُروا اللهَ على ما رزَقَكم، وتَستَعمِلوها في طاعتِه، فتَعبُدوه وَحْدَه ولا تَعصُوه.

أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (79).

أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ.

أي: ألم يَنظُروا إلى الطُّيورِ التي ذلَّلَ اللهُ لها الطَّيرانَ بأجنِحَتِها في الهواءِ بينَ السَّماءِ والأرضِ.

مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ.

أي: ما يُمسِكُ الطُّيورَ في الجوِّ إلَّا اللهُ بقُدرتِه.

كما قال تعالى: أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ [الملك: 19].

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.

أي: إنَّ في تَسخيرِ اللهِ الطُّيورَ للطَّيَرانِ في جوِّ السَّماءِ- حيث خلَقَها اللهُ تعالى خِلقةً تَصلُحُ معها للطَّيَرانِ، وخلَقَ هذا الهواءَ اللَّطيفَ بحيث يُمكِنُ الطيرانُ فيه، مع إمساكِها في الهواءِ على خلافِ طَبْعِها- لَعَلاماتٍ ودَلالاتٍ على وحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وكَمالِ قُدرتِه، وحِكمتِه وعِلْمِه، لِقومٍ يُؤمِنونَ باللهِ ورُسُلِه.

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (80).

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا.

أي: واللهُ جعَل لكم- أيُّها النَّاسُ- مِن بُيوتِكم- كالتي مِن الحَجَرِ والمَدَرِ والخَشَبِ- مساكِنَ لكم تَستقِرُّونَ فيها، وتأوُونَ إليها، وتَستَتِرونَ بها، وتقيكم الحَرَّ والبَرْدَ، وغوائِلَ السِّباعِ والهَوامّ، وتنتَفِعونَ بها في غيرِ ذلك.(145)

وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا

أي: وجعَلَ لكم- أيُّها النَّاسُ- خِيامًا مِن جُلودِ الأنعامِ، أو مِمَّا يَنبُتُ عليها مِن صُوفٍ وشَعرٍ ووَبَرٍ.(146)

تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ.

أي: تَجِدونَ الخِيامَ خَفيفةَ الحَملِ والنَّقلِ في تَرْحالِكم، وفي حِلِّكم.

(145) قال ابن عطية (٥/ ٣٩١) في ختام هذه الآية: «والآية عِبرة بيّنة، تفسيرها تكلُّف بحت».

(146) قال ابنُ عطية (٥/ ٣٩٢): «وقوله: ﴿وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا﴾ يحتمل: أن يعمَّ به بيوت الأدم، وبيوت الشعر، وبيوت الصوف؛ لأن هذه هي من الجلود؛ لكونها نابتة فيها.

نحا إلى ذلك ابن سلام، ويكون قوله: ﴿ومن أصوافها﴾ ابتداء كلام، كأنه قال: جعل أثاثًا، يريد الملابس والوطاء وغير ذلك.

ويحتمل أن يريد بقوله: ﴿من جلود الأنعام﴾: بيوت الأدم فقط، ويكون: ﴿من أصوافها﴾ عطفًا على قوله ﴿من جلود الأنعام﴾، أي: جعل بيوتًا أيضًا، ويكون قوله: ﴿أثاثا﴾ نصبًا على الحال».

وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ.

أي: واللهُ جعَلَ لكم مِن أصوافِ الغَنَمِ وأوبارِ الإبِلِ وأشعارِ الماعِزِ أثاثًا تتَّخِذونه لبُيوتِكم، وبَلاغًا تتبلَّغونَ وتَستَمتِعونَ به إلى أجَلٍ.(147)

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (81).

---

(147) اختُلِف في معنى «الأثاث»: فقيل: هو المال.

وقيل: المتاع.

وقيل: الثياب.

وذهب ابنُ جرير (١٤/ ٣١٨)، ومثله ابنُ عطية (٥/ ٣٩٢)، وكذا ابنُ كثير (٨/ ٣٣٧) إلى العموم استنادًا إلى اللغة، وأقوال السلف، قال ابنُ جرير: «أما الأثاث: فإنه متاع البيت، لم يسمع له بواحد، وهو في أنه لا واحد له مثل المتاع، وقد حكي عن بعض النحويين أنه كان يقول: واحد الأثاث: أثاثة.

ولم أر أهل العلم بكلام العرب يعرفون ذلك.

ومن الدليل على أن الأثاث هو المتاع قول الشاعر:

أهاجتك الظعائن يوم بانوا ...

بذي الرئي الجميل من الأثاث».

ثم قال: «وأنا أرى أنّ أصل الأثاث: اجتماع بعض المتاع إلى بعض حتى يكثر، كالشعر الأثيث، وهو الكثير الملتف، يقال منه: أثَّ شعَرُ فلانٌ يَئِثُّ أثًّا: إذا كثُر والتفَّ واجتمع».

وذكر الآثار السابقة.

وقال ابنُ عطية: "الاشتقاق يُقَوّي هذا المعنى الأعم؛ لأن حال الإنسان تكون بالمال أثيثةً، تقول: شعر أثيث، ونبات أثيث: إذا كثر والتفّ.

وقال ابنُ كثير: «والصحيح أعم من هذا كله؛ فإنه يتخذ منه الأثاث؛ البسط والثياب وغير ذلك، ويتخذ مالًا وتجارة».

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا.

أي: واللهُ جعَلَ لكم ممَّا خلَقَ مِن الأشجارِ والسَّحابِ والجِبالِ والبُيوتِ وغَيرِها ظِلالًا تستظلُّون بها من حرارة الشَّمس.

وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا.

أي: وجعل لكم مِن الجِبالِ مَغاراتٍ وحُصونًا تَحميكم مِن الحَرِّ والبَرْدِ، والأمطارِ والأعداءِ.

وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ.

أي: وجعَلَ لكم ثِيابًا تَدفعُ عنكم ضَرَرَ الحَرّ.(148)

وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ.

أي: وجعَلَ لكم ثِيابًا- كالدُّروعِ وغَيرِها- تدفَعُ عنكم وقتَ الحَربِ ضَرَرَ السِّلاحِ.

كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ.

---

(148) قال ابنُ عطية (٥/ ٣٩٣): «ذَكَرَ وقاية الحر إذ هو أمسُّ في تلك البلاد على ما ذكرنا، والبرد فيها معدوم في الأكثر، وإذا جاء في الشتوات فإنما يتوقى بما هو أكثف من السربال من الأثاث المتقدم الذكر، فتبقى السرابيل لتوقي الحر فقط.

قاله الطبري عن عطاء الخراساني.

ألا ترى أن الله قد نبههم إلى العبرة في البرد، ولم يذكر لهم الثلج؛ لأنه ليس في بلادهم، قال ابن عباس: إن الثلج شيء أبيض ينزل من السماء ما رأيته قط.

وأيضًا فذِكْرُ أحدهما يدل على الآخر».

وبنحوه قال ابنُ جرير (١٤/ ٣٢٤)، وكذا ابنُ تيمية (٤/ ١٧٣ - ١٧٤).

أي: كما أعطاكم اللهُ هذه النِّعَم، فكذلك يُتِمُّ نِعمَتَه عليكم بما تحتاجونَ إليه في دينِكم ودُنياكم؛ لتُخلِصوا له العِبادةَ، وتَخضَعوا له، وتَنقادوا لأمْرِه؛ لِما تَرَونَ مِن كَثرةِ إحسانِه بما لا يَقدِرُ عليه غيرُه، ولِتَكونَ تلك النِّعَمُ عَونًا لكم على طاعتِه سُبحانَه.

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (82).

أي: فإنْ أعرَضَ المُشرِكونَ- يا مُحمَّدُ- عن دَعوتِك بعدَ هذا البَيانِ والامتنانِ، والتَّذكيرِ بالنِّعَم والإحسانِ، فلم يُؤمِنوا بك ويَستَجيبوا لك؛ فما عليك مِن لَومٍ ولا عِتابٍ؛ إذ ليس عليك إلَّا تَبليغُهم ما أرسَلَك اللهُ به تبليغًا واضِحًا، وقد أدَّيتَه إليهم، وليس عليك هدايتُهم ولا حِسابُهم.[149]

يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (83).

أي: يَعرِفُ المُشرِكونَ نِعَمَ اللهِ عليهم، ثم يَجحَدونَها، فلا يَشكُرونَ اللهَ عليها، ويَنسُبونَها إلى غَيرِه، ويُشرِكونَ به في عبادتِه، وأكثرُهم الكافرون.[150]

---

(149) قال ابنُ عطية (٥/ ٣٩٥): «هذه الآية فيها مُوادَعة، نسختها آية السيف».

(150) اختُلِف في تأويل قوله تعالى: ﴿يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها﴾ على أربعة أقوال: الأول: أن النعمة: ما ذُكِرَ في هذه السورة، وإنكارها: قولهم: ورثناها عن آبائنا.

وهذا قول مجاهد.

والثاني: أن النعمة: ما ذُكِرَ في هذه السورة، وإنكارها: قولهم: لولا فلان ما كان كذا وكذا، ولولا فلان ما أصبت كذا وكذا.

وهذا قول عون بن عبد الله.

والثالث: أن النعمة: ما ذُكِرَ في هذه السورة، وإنكارها: قولهم: هذه بشفاعة آلهتنا.

وهذا قول الكلبي، وغيره.

والرابع: أن النعمة: نبوَّة محمد - ﷺ -، وإنكارها: جحد نبوّته وتكذيبه.

وهذا قول السّدّيّ.

ورجَّحَ ابنُ جرير (١٤/ ٣٢٦ - ٣٢٧) القولَ الرابعَ استنادًا إلى السياق، وقال مُعَلِّلًا اختياره: «وذلك أنّ هذه الآية بين آيتين كلتاهما خبر عن رسـول الله - ﷺ - وعما بُعِث به، فأولى ما بينهما أن يكون في معنى ما قبله وما بعده؛ إذ لم يكن معنى يدل على انصرافه عما قبله وعما بعده، فالذي قبل هذه الآية قوله: ﴿فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها﴾ وما بعده: ﴿ويوم نبعث من كل أمة شهيدا﴾ وهو رسولها.

فإذ كان ذلك كذلك فمعنى الآية: يعرف هؤلاء المشركون بالله نعمة الله عليهم يا محمد بك، ثم ينكرونك ويجحدون نبوتك».

وذَهَبَ إلى ذلك أيضًا ابنُ القيم (٢/ ١١٨) مستندًا إلى دلالة عقلية، فقال: «هذا أقرب إلى حقيقة الإنكار؛ فإنه إنكار لما هو أجَلُّ النعم أن تكون نعمة».

ثم علّق على الأقوال الثلاثة الأولى، واسْتَدْرَكَ عليها (٢/ ١١٨ - ١١٩) بقوله: «أما على القول الأول والثاني والثالث فإنهم لما أضافوا النعمة إلى غير الله فقد أنكروا نعمة الله بنسبتها إلى غيره؛ فإن الذي قال: إنما كان هذا لآبائنا ورثناه كابرًا عن كابر.

جاحدًا لنعمة الله عليه، غير معترف بها، وهو كالأبرص والأقرع اللذين ذكَّرهما الملَك بنعم الله عليهما، فأنكرا، وقالا: إنما ورثنا هذا كابرًا عن كابر.

فقال: إن كنتما كاذبين فصيركما الله إلى ما كنتما.

وكونها موروثة عن الآباء أبلغ في إنعام الله عليهم؛ إذ أنعم بها على آباءهم، ثم ورثهم إياها، فتمتعوا هم وآباؤهم بنعمه.

وأما قول الآخرين: لولا فلان لما كان كذا.

فيتضمن قطع إضافة النعمة إلى مَن لولاه لم تكن، وإضافتها إلى من لا يملك لنفسه ولا لغيره ضرًّا ولا نفعًا، وغايته أن تكون جزء من أجزاء السبب أجرى الله تعالى نعمته على يده، والسبب لا يستقل بالإيجاد، وجعله سببًا هو من نعم الله عليه، وهو المنعم بتلك النعمة، وهو المنعم بما جعله من أسبابها، فالسبب والمسبب من إنعامه، وهو سبحانه قد ينعم بذلك السبب، وقد ينعم بدونه؛ فلا يكون له أثر، وقد يسلبه تسبيبته، وقد يجعل لها معارضًا يقاومها، وقد يرتب على السبب ضد مقتضاه، فهو وحده المنعم على الحقيقة.

وأما قول القائل: بشفاعة آلهتنا.

فتضمن الشرك مع إضافة النعمة إلى غير وليها، فالآلهة التي تعبد من دون الله أحقر وأذل من أن تشفع عند الله، وهي محضرة في الهوان والعذاب مع عابديها، وأقرب الخلق إلى الله وأحبهم إليه لا يشفع عنده إلا من بعد إذنه لمن ارتضاه، فالشفاعة بإذنه من نعمه، فهو المنعم بالشفاعة، وهو المنعم بقبولها، وهو المنعم بتأهيل المشفوع له؛ إذ ليس كل أحد أهلًا أن يشفع له، فمن المنعم على الحقيقة سواه؟! قال تعالى: ﴿وما بِكُمْ مِن نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾، فالعبد لا خروج له عن نعمته وفضله ومنته وإحسانه طرفة عين، لا في الدنيا، ولا في الآخرة».

قال ابنُ عطية (٥/ ٣٩٦): «حتَمَ على أكثرهم بالكفر، وهم أهل مكة، وذلك أنّه كان فيهم مَن قد داخله الإسلام، ومن أسلم بعد ذلك».

سورةُ النَّحلِ

الآيات (84–89)

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (84)

وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (85)

وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ
فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (86)

وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (87)

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (88)

وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا
عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (89)

غريب الكلمات:

يُسْتَعْتَبُونَ: أي: يُطلَبُ منهم أن يُزيلُوا غَضَبَ رَبِّهم بالتَّوبةِ وصالحِ العَمَلِ؛ مِن الاستِعتابِ: وهو الرُّجُوعُ عَن الإساءَةِ، والتَّعَرُّضُ لِطَلَبِ الرِّضا، وأصلُ الكَلِمةِ مِن (العَتْبِ): وهو الغَضَب والمَلامةُ، يُقالُ: عتَبَ عليه يَعتِبُ: إذا غَضِبَ عليه ولامَه، وأعتَبَه: إذا أزالَ عنه عَتْبَه، واستَعْتَبَه: إذا طلَبَ منه الإعتابَ، أي: الرِّضا.

السَّلَمَ: أي: الاستِسلامَ والانقيادَ لأمرِ اللهِ وحُكمِه، يُقالُ: سَلَّم واستسلَمَ وأسلَمَ: إذا انقادَ وخضَع، ومنه الإسلامُ: وهو الطَّاعةُ والانْقيادُ لِله عَزَّ وجلَّ، وأصلُ (سلم): يدُلُّ على الصِّحَّةِ والعافيةِ.

تفسير الآيات:

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (84).

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا.

أي: ويومَ[151] نَبعَثُ مِن كُلِّ أمَّةٍ شاهِدًا عليهم- وهو رَسولُهم الذي أُرسِلَ إليهم- لِيَشهَدَ بما أجابَتْه به أُمَّتُه فيما بلَّغَها عن اللهِ تعالى.

ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا.

أي: ثمَّ لا يُعطَى الذين كَفَروا الإذْنَ للاعتذارِ إلى اللهِ مِن كُفرِهم.

كما قال تعالى: هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ [المرسلات: 35-36].

---

(151) قيل: هو متعلقٌ بمحذوفٍ تقديرُه: واذكُرْ.
على اعتبارِ أنَّ التذكيرَ بذلك اليومِ مِن البلاغِ المبينِ الذي أُمِر به النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كما في الآيةِ قبلَ السابقةِ.
وممَّن ذهَب إلى هذا: ابنُ عاشور.
يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (243/14).
وقال ابنُ جرير: (يقولُ تعالى ذكرُه: يَعرِفونَ نِعمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا اليومَ، ويَستنكِرونَ يَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا).
((تفسير ابن جرير)) (327/14).

وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ.

أي: ولا يُطلَبُ مِن الكافرينَ أن يُرضُوا اللهَ، ولا هم يُرَدُّون إلى الدُّنيا ليَتوبوا، ويَعمَلوا بما أمَرَ اللهُ تعالى به.(152)

وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (85).

وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ.

أي: وإذا رأى المُشرِكونَ النَّارَ، فلا يُخفَّفُ عنهم عَذابُها بأيِّ نَوعٍ مِن أنواعِ التَّخفيفِ.

كما قال تعالى: وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا [الكهف: 53].

---

(152) قال ابنُ عطية (٥/ ٣٩٦ بتصرف): «﴿ولا هم يستعتبون﴾ معناه: يعتبون، يقال: أعتبت الرجل: إذا كفيته ما عتب فيه.

فكأنه قال: ولا هم يكفون ما يعتبون فيه، ويشق عليهم.

وقال قوم: معناه: لا يسألون أن يرجعوا عما كانوا عليه في الدنيا.

فهذا استعتاب معناه: طلب عتابهم.

وقال الطبري: معنى يستعتبون: يعطون الرجوع إلى الدنيا؛ فيقع منهم توبة عمل».

وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ.

أي: ولا هم يُمهَلونَ عن العَذابِ، ولا يُؤخَّرونَ عن دُخولِ النَّارِ حين يَرَونَها ولو لَحظةً.(153)

وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (86).

وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ.

أي: وإذا رأى المُشرِكونَ يومَ القيامةِ مَعبوداتِهم التي جَعَلوها شُرَكاءَ للهِ في العبادةِ، قالوا: ربَّنا هؤلاءِ الذين كنَّا نَعبُدُهم مِن دُونِك، ونَجعَلُهم شُرَكاءَ لك.

فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ.

أي: فقال للمُشرِكينَ شُرَكاؤُهم الذين كانوا يَعبُدونَهم: إنَّكم لكاذِبونَ في ادِّعائِكم أنَّنا آلِهةٌ، وما أمَرْناكم بعِبادتِنا.

---

(153) قال ابنُ عطية (٥/ ٣٩٦ – ٣٩٧): «مقصد الآية: الفرق بين ما يحل بهم وبين رزايا الدنيا، فإن الإنسان لا يتوقع أمرًا من خطوب الدنيا إلا وله طمع في أن يتأخر عنه، وفي أن يجيئه في أخفِّ ما يُتَوهَّم برجائه، وكذلك متى حلَّ به كان طامعًا في أن يخف، وقد يقع ذلك في خطوب الدنيا كثيرًا، فأخبر الله تعالى أنّ عذاب الآخرة إذا عاينه الكافر لا طماعية فيه بتخفيف ولا تأخير».

كما قال تعالى: وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ [يونس: 28].

وقال سُبحانَه: وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا [مريم: 81-82].

وقال عزَّ وجلَّ: وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ [العنكبوت: 25].

وقال تبارك وتعالى: وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ [الأحقاف: 5-6].

وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (87).

وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ.

أي: واستسْلَم المُشرِكونَ يومَ القيامةِ لله، وذلُّوا وانقادُوا خاضِعينَ لحُكمِه فيهم، وعَلِموا أنَّهم مُستَحِقُّونَ للعذابِ.

كما قال تعالى: مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ * بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ [الصافات: 25-26].

وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ.

أي: وغاب عن المُشرِكِين ما كانوا يَعبُدونَه في الدُّنيا، واضْمَحلَّ ما كانوا يَفتَرونَه مِن أنَّ آلهتَهم ستشفَعُ لهم، وتُقَرِّبُهم إلى اللهِ زُلْفى، فليس لهم ناصرٌ ولا معينٌ!

كما قال تعالى: وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ [يونس: 18].

وقال سُبحانَه: وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ [القصص: 74-75].

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (88).

أي: الذين كَفَروا وكَذَّبوا بالحَقِّ لَمَّا جاءَهم، وصَدُّوا النَّاسَ عن اتِّباعِ الإسلامِ؛ زِدْناهم في النَّارِ عذابًا على ما بهم مِن العذابِ؛ لأنَّهم كانوا يُفسِدونَ في الأرضِ بصَدِّهم النَّاسَ عن اتِّباعِ الحَقِّ.(154)

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه في قَولِ اللهِ عزَّ وجلَّ: زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ قال: (عَقارِب أنيابُها كالنَّخلِ الطِّوالِ).(155)

---

(154) قال ابنُ كثير (٨/ ٣٤١): «هذا دليل على تفاوت الكفار في عذابهم، كما يتفاوت المؤمنون في منازلهم في الجنة ودرجاتهم».

(155) أخرجه ابن أبي شيبة في ((المصنف)) (34138)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (226/9) (9103)، والحاكم في ((المستدرك)) (3357)، والبيهقي في ((البعث والنشور)) (560).

وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (89).

وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ.

أي: واذكُرْ- يا مُحمَّدُ- يومَ نَبعَثُ في كُلِّ أمَّةٍ نَبيًّا شاهِدًا عليهم، وهو منهم، ويتحدَّثُ بلسانِهم.

وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ.

أي: وجِئْنا بك يومَ القيامةِ شاهِدًا على أمَّتِك.

كما قال تعالى: فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا [النساء: 41].

صحَّحه الحاكم، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (392/10): (رجاله رجال الصحيح)، وقال البوصيري في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (216/8): (موقوفٌ بسند صحيحٍ، وله شاهدٌ)، وصححه الألباني في ((صحيح الترغيب)) (3678).

وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ.

أي: ونزَّلْنا عليك القُرآنَ مُبيِّنًا لكُلِّ شيءٍ يَحتاجُ النَّاسُ إلى بيانِه، مِن أمورِ دينِهم ودُنياهم وآخِرتِهم.(156)

كما قال تعالى: مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ [يوسف: 111].

وقال سُبحانَه: وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ [النحل: 44].

وقال عزَّ وجلَّ: وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ [النحل: 64].

وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ.

أي: ونَزَّلْنا عليك القُرآنَ هاديًا مِن الضَّلالةِ، ورَحمةً في الدُّنيا والآخرةِ، ومُبَشِّرًا بالخَيرِ في العاجِلِ والآجِلِ للمُسلمينَ المُنقادينَ لحُكمِه، الخاضِعينَ له بتَوحيدِه وطاعتِه سُبحانَه.

---

(156) قال ابنُ عطية (٥/ ٣٩٨): «قوله: ﴿لكل شيء﴾، أي: مما نحتاج في الشرع، ولا بد منه في المِلَّة، كالحلال والحرام، والدعاء إلى الله والتخويف من عذابه، وهذا حصر ما اقتضته عبارات المفسرين».

وقال ابن كثير (٨/ ٣٤٣): «ووجه اقتران قوله: ﴿ونزلنا عليك الكتاب﴾ مع قوله: ﴿وجئنا بك شهيدا على هؤلاء﴾ أن المراد –والله أعلم–: أنّ الذي فرض عليك تبليغ الكتاب الذي أنزله عليك سائلك عن ذلك يوم القيامة، ﴿فلنسئلن الذين أرسل إليهم ولنسئلن المرسلين﴾ [الأعراف: ٦]، ﴿فو ربك لنسئلنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾ [الحجر: ٩٢ – ٩٣]، ﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب﴾ [المائدة: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد﴾ [القصص: ٨٥]، أي: إن الذي أوجب عليك تبليغ القرآن لرادك إليه، ومعيدك يوم القيامة، وسائلك عن أداء ما فرض عليك.

هذا أحد الأقوال، وهو متجه حسن».

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ [يونس: 57-58].

وقال سُبحانَه: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا [الإسراء: 9].

وقال عزَّ وجلَّ: وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ [الإسراء: 82].

سورةُ النَّحلِ

الآيات (90- 93)

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ
يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (90) وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا
وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (91) وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا
مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا
يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (92) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ
أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (93)

تفسير الآيات:

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (90).

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى.

أي: إنَّ اللهَ يأمُرُ عِبادَه بالإنصافِ، وأداءِ حُقوقِ الله تعالى، وحُقوقِ عبادِه، ويأمُرُ بالإحسانِ في عبادتِه، والإحسانِ إلى خَلْقِه، ويأمُرُ بإعطاءِ الأرحامِ حُقوقَهم، وإسداءِ الخَيرِ إليهم؛ صِلةً لهم.(157)

كما قال تعالى: وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ [البقرة: 195].

---

(157) قال ابنُ عطية (٥/ ٣٩٩ بتصرف): «العدل: هو فعل كل مفروض من عقائد وشرائع، وسيرٌ مع الناس في أداء الأمانات، وترْكِ الظلم، والإنصافُ وإعطاءُ الحق.

والإحسان: هو فعل كل مندوب إليه.

فمن الأشياء ما هو كله مندوب إليه، ومنها ما فرض، إلا أن حدَّ الإجزاء منه داخل في العدل، والتكميل الزائد على حد الإجزاء داخل في الإحسان».

قال ابنُ جرير (١٤/ ٣٣٤ – ٣٣٥): «يقول –تعالى ذِكْرُه–: إن الله يأمر في هذا الكتاب الذي أنزله إليك –يا محمد– بالعدل، وهو الإنصاف، ومن الإنصاف: الإقرار بمن أنعم علينا بنعمته، والشكر له على إفضاله، ونُولي الحمدَ أهلَه.

وإذا كان ذلك هو العدل، ولم يكن للأوثان والأصنام عندنا يد تستحق الحمد عليها؛ كان جهلًا بنا حمدُها وعبادتها، وهي لا تنعم فتشكر، ولا تنفع فتعبد، فلزمنا أن نشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، ولذلك قال مَن قال: العدل في هذا الموضع: شهادة أن لا إله إلا الله».

قال ابنُ عطية (٥/ ٤٠٠): «﴿وإيتاء ذي القربى﴾ لفظة تقتضي صلة الرحم، وتعُمُّ جميع إسداء الخير إلى القرابة، وترْكُه مبهمًا أبلغ؛ لأن كل مَن وصل في ذلك إلى غاية –وإن عَلَت– يرى أنه مقصِّر، وهذا المعنى المأمور به في جانب ذي القربى داخل تحت العدل، والإحسان، لكنه تعالى خصَّه بالذكر اهتمامًا به، وحضًّا عليه».

ذَهَبَ ابنُ جرير (١٤/ ٣٣٦) مستندًا إلى قول ابن عباس إلى أنّ: «الفحشاء في هذا الموضع: الزنا».

وقال سُبحانه: وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا [النساء: 36].

وقال سُبحانه وتعالى: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ [النساء: 58].

وقال عزَّ وجلَّ: وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى [المائدة: 8].

وقال عزَّ مِن قائلٍ: وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى [الأنعام: 152].

وقال جلَّ جلالُه: وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ [الإسراء: 26].

وقال تبارك وتعالى: وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا [الإسراء: 35].

وقال سُبحانه: فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ [الحجرات: 9].

وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ.

أي: وينهَى اللهُ عن كُلِّ مَعصيةٍ مُتناهيةٍ في القُبحِ، كالزِّنا، وينهَى عمَّا تَستنكِرُه النُّفوسُ المُعتدِلةُ، وتأباه الشَّريعةُ مِن فِعلٍ أو قولٍ، وينهَى عن ظُلمِ النَّاسِ، والتَّعدي عليهم في دمائِهم وأموالِهم وأعراضِهم.

كما قال تعالى: وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ [الأنعام: 151].

وقال سُبحانه: قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ [الأعراف: 33].

وعن أبي بَكْرةَ نُفَيعِ بنِ الحارِثِ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ – ﷺ – قال: ((ما مِن ذَنبٍ أجدَرُ أن يُعَجِّلَ اللهُ لِصاحِبِه العُقوبةَ في الدُّنيا، مع ما يَدَّخِرُ له في الآخرةِ؛ مِن البَغيِ وقَطيعةِ الرَّحِمِ)).(158)

يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ.

أي: يُذَكِّرُكم اللهُ– أيُّها النَّاسُ– بما يأمُرُكم به، وما يَنهاكم عنه؛ لأجلِ أن تتَذَكَّروه فتَتُوبوا إليه، وتَمتَثِلوا أوامِرَه، وتجتَنِبوا نواهِيَه.

وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (91).

وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ.

أي: وأوفُوا– أيُّها النَّاسُ– بجَميعِ العُهودِ، فيما بَينَكم وبين رَبِّكم، وفيما بَينَكم وبَينَ النَّاسِ.

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ [المائدة: 1].

---

(158) أخرجه أبو داود (4902)، والترمذي (2511)، وابن ماجه (4211) واللفظ له، وأحمد (20414).
قال الترمذي: حسن صحيح، وصححه ابن باز في ((مجموع الفتاوى)) (231/23)، والألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (4211).

وقال سُبحانه: وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا [الأنعام: 152].

وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا.

أي: ولا تُخالِفوا العُهودَ التي أكَّدْتُموها وغلَّظْتُموها بالحَلِفِ بالله.

وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا.

أي: لا تَنقُضوا عُهودَكم المُؤكَّدةَ باليمينِ، فتَحْنَثوا فيها، وقد جعَلْتُم اللهَ عليكم حَفيظًا وشَهيدًا ومتكَفِّلًا بوفائِكم بالعُهودِ، فيَكونَ ذلك منكم تَرْكًا لتعظيمِ اللهِ واستهانةً به.

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ.

أي: إنَّ اللهَ يَعلَمُ كُلَّ ما تَفعَلونَه، ومِن ذلك وفاؤُكم بالعُقودِ ونَقضُها، وسيُجازي كلَّ عامِلٍ بعَمَلِه.(159)

---

(159) اختُلِف فيمن عُنِيَ بهذه الآية، وفيم أُنزِلَت، على قولين: الأول: أنه عُنِيَ بها: الذين بايعوا رسول الله – ﷺ – على الإسلام، وفيهم أنزلت.

والثاني: أنها نزلت في الحلف الذي كان أهل الشرك؛ تحالفوا في الجاهلية، فأمرهم الله – عز وجل – في الإسلام أن يوفوا به ولا ينقضوه.

وعلَّق ابنُ عطية (٥/ ٤٠٢) على القول الثاني بقوله: «كما قال – ﷺ –: «لا حِلْفَ في الإسلام، وما كان من حِلْفٍ في الجاهلية فلم يزِده الإسلام إلا شدة»».

ورجَّح ابنُ جرير (١٤/ ٣٤٠ – ٣٤١) العموم في الآية، فقال: «الصواب من القول في ذلك أن يُقال: إن الله تعالى أمر في هذه الآية عباده بالوفاء بعهوده التي يجعلونها على أنفسهم، ونهاهم عن نقض الأيمان بعد توكيدها على أنفسهم لآخرين بعقود تكون بينهم بحق مما لا يكرهه الله.

وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (92).

وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا.

أي: ولا تكونوا- أيُّها النَّاسُ- في نَقضِ العُهودِ التي أكَّدْتُموها كالمرأةِ التي تَنقُضُ غَزْلَها ونَسْجَها بعد تَقويتِه وإحكامِه، فتَحُلُّ ما نسَجَت وتجعَلُه أنقاضًا![160]

تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ.

وجائز أن تكون نزلت في الذين بايعوا رســـول الله - ﷺ - بنهيهم عن نقض بيعتهم حذرًا من قلة عدد المســـلمين وكثرة عدد المشركين، وأن تكون نزلت في الذين أرادوا الانتقال بحلفهم عن حلفائهم لقلة عددهم في آخرين لكثرة عددهم.

وجائز أن تكون في غير ذلك.

ولا خبر تثبت به الحجة أنها نزلت في شـيء من ذلك دون شـيء، ولا دلالة في كتاب، ولا حجة عقل أيّ ذلك عني بها، ولا قولَ في ذلك أولى بالحق مما قلنا؛ لدلالة ظاهرِه عليه، وأن الآية كانت قد تنزل لسبب من الأسباب، ويكون الحكم بها عامًّا في كل ما كان بمعنى السبب الذي نزلت فيه».

وبنحوه رجح ابنُ عطية (٥/ ٤٠٢).

(160) رجَّحَ ابنُ كثير (٨/ ٣٤٩) أن يكون هذا مثلًا ضربه الله تعالى لمن نقض عهده بعد توكيده، كما قال مجاهد، وقتادة، وابن زيد؛ لأنه أعمّ، فقال: «وهذا القول أرجح وأظهر، سواء كان بمكة امرأة تنقض غزلها أم لا».

أي: تَجعَلونَ أيمانَكم وسيلةً للغَدرِ والمكرِ بمَن عاهَدْتُموهم، فتحلفونَ لهم؛ ليَطمئنُّوا إليكم، وتَعقِدونَ معهم العُهودَ، وأنتم مُضمِرونَ نَقْضَها إن وجَدْتُم قومًا آخرينَ أكثرَ منهم عددًا أو قُوَّةً أو غِنًى؛ طلبًا للدُّنيا، فإذا أمكنَكم الغدرُ بهم غَدَرتُم.

إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ.

أي: إنَّما يَختبِرُكم اللهُ بما يأمُرُكم به من الوَفاءِ بالعُهودِ، ولو كان قَومٌ أحسَنَ مِن قَومٍ؛ ليتبَيَّنَ المُطيعُ منكم، والمُخالِفُ لأمرِه.

وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ.

أي: ولَيُبيِّننَّ اللهُ لكم- أيُّها النَّاسُ- يومَ القيامةِ ما كُنتُم فيه تَختَلِفونَ في الدُّنيا، كالاختِلافِ في تَوحيدِه، وتَصديقِ رُسُلِه، وثُبوتِ البَعثِ، والعُهودِ التي عَقَدْتُموها، فيَحكُمُ بينكم، ويُجازي كُلَّ عاملٍ بعَمَلِه.

كما قال تعالى: وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ [الحج: 68-69].

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (93).

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً.

أي: ولو شاء اللهُ لجعَلَكم جميعًا- أيُّها النَّاسُ- على مِلَّةٍ واحدةٍ؛ مِلَّةِ الإسلامِ، دونَ حُدوثِ اختلافٍ أو تفرُّقٍ بينَكم.

كما قال تعالى: وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا [يونس: 99].

وقال سُبحانه: وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ [هود: 118-119].

وقال عزَّ وجلَّ: وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ [النحل: 9].

وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ.

أي: ولكِنَّ اللهَ بحِكمَتِه خالَفَ بينَكم، فجعَلَكم أهلَ مِلَلٍ شَتَّى مُختَلِفةٍ، يخذُلُ مَن يشاءُ عن اتِّباعِ الحَقِّ، فيَحرِمُ توفيقَه مَن لا يستَحِقُّ؛ عدلًا منه سُبحانه، ويوفِّقُ مَن يشاءُ، فيهدي للحَقِّ مَن يستَحِقُّ؛ فضلًا منه سُبحانه.

كما قال عزَّ وجلَّ: وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ [الشورى: 8].

وقال تعالى: مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [الأنعام: 39].

وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.

أي: وليَسألَنَّكم اللهُ جميعًا- أيُّها النَّاسُ- يومَ القيامةِ عَمَّا كُنتُم تعمَلونَه في الدُّنيا مِن خَيرٍ وشَرٍّ، فيُجازيكم على أعمالِكم: خَيرِها وشَرِّها.

سورةُ النَّحلِ

الآيات (94–97)

وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ
سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (94) وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ
لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (95) مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا
أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (96) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (97)

غريب الكلمات:

فَتَزِلَّ: أي: فتَسقُطَ وتَزْلَقَ؛ مِن الزَّلَلِ: وهو عُثورُ القَدَمِ، وزَلَلُ القَدَمِ تَقولُه العَرَبُ لكُلِّ ساقِطٍ في وَرطةٍ بعدَ سَلامةٍ.

يَنْفَدُ: أي: يفنى، والنَّفَادُ: الفَناءُ، وأَصْل (نفد): يدلُّ على انقطاعِ شيءٍ وفنائِه.

تفسير الآيات:

وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (94).

وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا.

أي: ولا تجعَلوا أيمانَكم خديعةً لِمَن تحلِفونَ لهم؛ لِيُصدِّقوكم، وأنتم تنوُونَ الغدرَ والمكرَ بهم إن سَنَحَت لكم فُرصةٌ، فتَنْحَرِفَ أقدامُكم بعد أن كانت ثابتةً على الدِّينِ وصِراطِ اللهِ المُستقيمِ، فتَهلِكوا.

وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ.

أي: ويَحُلَّ بكم العَذابُ في الدُّنيا؛ بسبَبِ إعراضِكم، وصَدِّكم النَّاسَ عن الدُّخولِ في الإسلامِ، حين تخدَعونَهم بالحَلِفِ الكاذِبِ، وتَغدِرونَ عَهْدَكم معهم، فلا يبقَى لهم وُثوقٌ في دينِ اللهِ سُبحانَه.

وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ.

أي: ولكم عذابٌ عظيمٌ في الآخرةِ.(161)

---

(161) جَّحَ ابنُ جرير (١٤/ ٣٤٨ – ٣٤٩)، وكذا ابنُ عطية (٥/ ٤٠٥) بالدلالة العقلية تأويل مزيدة هذا –ووقع في النسخة المطبوعة من تفسير ابن جرير في هذا الموضع: بريدة– أثناء كلامهما على الآية (٩٤) عند قوله تعالى: ﴿وتَذُوقُوا السُّوءَ بِما صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

فقال ابن جرير: «هذه الآية تدل على أن تأويل بريدة الذي ذكرنا عنه في قوله: ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم﴾ والآيات التي بعدها أنه عني بذلك: الذين بايعوا رسول الله – ﷺ – على الإسلام، عن مفارقة الإسلام لقلة أهله، وكثرة أهل الشرك

وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (95).

وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا.

أي: ولا تنقُضوا عُهودَكم التي أكَّدتُموها بالأيمانِ؛ لنَيلِ مَتاعٍ قليلٍ مِن الدُّنيا.

إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ.

أي: إنَّ ثَوابَ اللهِ لكم في الجَنَّة- إذا آثَرْتُم رِضا اللهِ فأطَعْتُموه بالوَفاءِ بعُهودِكم- أفضَلُ لكم مِن مَتاعِ الدُّنيا القَليلِ، إنْ كُنتُم تعلَمونَ حَقيقةَ الفَرقِ بينَ الدُّنيا الفانيةِ، والآخرةِ الباقيةِ.

مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (96).

[يعني: أمرهم بالوفاء بالعهد؛ لئلا ينقضوه لقلة أهل الإسلام، وكثرة أهل الشرك] هو الصواب، دون الذي قال مجاهد أنهم عنوا به؛ لأنه ليس في انتقال قوم تحالفوا عن حلفائهم إلى آخرين غيرهم صد عن سبيل الله، ولا ضلال عن الهدى، وقد وصف -تعالى ذكره- في هذه الآية فاعلي ذلك أنهم باتخاذهم الأيمان دخلًا بينهم، ونقضهم الأيمان بعد توكيدها؛ صادون عن سبيل الله، وأنهم أهل ضلال في التي قبلها، وهذه صفة أهل الكفر بالله، لا صفة أهل النقلة بالحلف عن قوم إلى قوم».

وقال ابنُ عطية: «وقوله: ﴿بما صددتم عن سبيل الله﴾ يدل على أن الآية فيمن بايع رسول الله - ﷺ -».

قال ابن عطية (٥/ ٤٠١ بتصرف): «عهد الله لفظ عام لجميع ما يعقد باللسان، ويلتزمه الإنسان؛ من بيع، أو صلة، أو مواثقة في أمر موافق للديانة، وقوله: ﴿ولا تنقضوا الأيمان﴾ خصَّ في هذه الألفاظ العهود التي تقترن بها أيمان تممًا بها، وتنبيهًا عليها.

وهذا في كل ما كان الثبوت فيه على اليمين طاعة لله، وما كان الانصراف عنه أصوب في الحق، فهو الذي قال فيه رسول الله - ﷺ -: «مَن حلف على يمين، ثم رأى غيرها خيرًا منها؛ فليكفر عن يمينه، وليأتِ الذي هو خير»».

وبنحوه قال ابنُ كثير (٨/ ٣٤٧ - ٣٤٨).

مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ.

أي: ما عِندَكم مِن مَتاعِ الدُّنيا ينتهي ويَفنى، وإن كان كثيرًا، وما عِندَ اللهِ مِن الثَّوابِ في الجَنَّةِ مُستَمِرٌّ لا يَنقَطِعُ ولا يفنَى؛ فاحرِصوا عليه، واعمَلوا للظَّفَرِ به.

كما قال تعالى: إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ [ص: 54].

وقال سُبحانه: بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى [الأعلى: 16- 17].

وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.

أي: ولَنُثيبَنَّ يومَ القيامةِ الصَّابرينَ على أحسَنِ الذي كانوا يَعمَلونَه في الدُّنيا من الأعمالِ الصَّالحةِ، ونتَجاوَزُ عن سَيِّئِ أعمالِهم.

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (97).

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً.

أي: مَن عَمِلَ عمَلًا صالِحًا خالِصًا لله، مُوافِقًا للقُرآنِ والسُّنَّةِ– ومن ذلك الوَفاءُ بالعُهودِ– مِن ذكَرٍ أو أُنثَى، وهو مؤمِنٌ باللهِ ورَسولِه، مُصَدِّقٌ بوَعدِ اللهِ ووَعيدِه؛ فلنُحيِيَنَّه في الدُّنيا حياةً سَعيدةً، وذلك بما يجده من حلاوةِ الإيمان، والأنسِ بالله تعالى، والتلذذِ بعبادتِه، وطُمأنينةِ قَلبِه، وسُكونِ نَفسِه، وبما يَرزُقُه اللهُ مِن الرزقِ الحلالِ الطيبِ مِن حيثُ لا يحتَسِبُ، معَ القناعةِ به.(162)

---

(162) اختُلِف في المراد بالحياة الطيبة على خمســـة أقوال: الأول: أنّ المراد: أنه تعالى يحييهم في الدنيا ما عاشـــوا فيها بالرزق الحلال.

والثاني: أنّ المراد: أنه تعالى يرزقهم في الدنيا القناعة.

والثالث: أنّ المراد: أنه تعالى يحييهم في الدنيا حياة مؤمنين به عاملين بطاعته.

والرابع: أنّ المراد: أنه تعالى يحييهم في الدنيا سعداء.

والخامس: أنّ المراد بالحياة الطيبة: حياة الآخرة، ونعيم الجنة.

ورجَّحَ ابنُ جرير (١٤/ ٣٥٤ – ٣٥٥) القولَ الثانيَ –وهو قول عليّ، والحســـن، ووهب بن منبه، ومحمد بن كعب، وغيرهم– اســـتنادًا إلى الســـياق، والدلالة العقلية، فقال: «أولى الأقوال بالصـــواب قول من قال: تأويل ذلك: فلنحيينه حياة طيبة بالقناعة.

وذلك أنّ من قنَّعه الله بما قســـم له من رزق لم يكثر للدنيا تعبه، ولم يعظم فيها نصبه، ولم يتكدر فيها عيشـــه باتباعه بغية ما فاته منها، وحرصه على ما لعله لا يدركه فيها.

وإنما قلت ذلك أولى التأويلات في ذلك بالآية لأن الله –تعالى ذكره– أوعد قومًا قبلها على معصـــيتهم إياه إن عصـــوه أذاقهم السوء في الدنيا والعذاب في الآخرة، فقال تعالى: ﴿ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها، وتذوقوا السوء بما صـددتم عن ســبيل الله﴾ فهذا لهم في الدنيا، ﴿ولكم﴾ في الآخرة ﴿عذاب عظيم﴾ فهذا لهم في الآخرة، ثم أتبع ذلك ما لمن أوفى بعهد الله وأطاعه، فقال تعالى: ﴿ما عندكم﴾ في الدنيا ﴿ينفد وما عند الله باق﴾، فالذي أوعد أهل المعاصـــي بإذاقتهم هذه الســـيئة بحكمته أراد أن يعقب ذلك الوعد لأهل طاعته بالإحســـان في الدنيا، والغفران في الآخرة، وكذلك فعل –تعالى ذكره–».

وعلَّقَ (١٤/ ٣٥٥) على القول الأول بقوله: «وأما القول الذي روي عن ابن عباس أنه: الرزق الحلال.

كما قال تعالى: وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ [هود: 3].

وقال عزَّ وجلَّ: وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ [الطلاق: 2-3].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رسولَ الله - ﷺ - قال: ((قد أفلَحَ مَن أسلَمَ، ورُزِقَ كَفافًا،(163) وقنَّعَه اللهُ بما آتاه)).(164)

وعن عبدِ اللهِ بنِ خُبَيبٍ، عَن عَمِّه رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ - ﷺ - قال: ((لا بأسَ بالغِنى لِمَن اتَّقى، والصِّحةُ لِمَن اتَّقى خَيرٌ مِن الغِنى، وطِيبُ النَّفسِ مِن النَّعيمِ)).(165)

فهو محتمل أن يكون معناه الذي قلنا في ذلك من أنه تعالى يقنعه في الدنيا بالذي يرزقه من الحلال وإن قلَّ، فلا تدعوه نفسه إلى الكثير منه من غير حله، لا أنه يرزقه الكثير من الحلال، وذلك أن أكثر العاملين لله تعالى بما يرضاه من الأعمال لم نرهم رزقوا الرزق الكثير من الحلال في الدنيا، ووجدنا ضيق العيش عليهم أغلب من السعة».

وعلَّقَ ابنُ عطية (٥/ ٤٠٦) على القول الخامس -وهو قول مجاهد، وقتادة، وابن زيد، وقول آخر للحسن- بقوله: «هناك هو الطيب على الإطلاق، ولكن ظاهر هذا الوعد أنه في الدنيا».

ثم قال: «والذي أقول: إن طيب الحياة اللازم للصالحين إنما هو بنشاط نفوسهم ونُبلها وقوة رجائهم، والرجاء للنفس أمر مُلِذٌّ، فبهذا تطيب حياتهم، وأنهم احتقروا الدنيا فزالت همومها عنهم، فإن انضاف إلى هذا مال حلال، وصحة، أو قناعة؛ فذلك كمال، وإلا فالطيب فيما ذكرناه راتب».

وذَهَبَ ابنُ كثير (٨/ ٣٥٢ - ٣٥٣ بتصرّف) مستندًا إلى السُّنَّة إلى أنّ الحياة الطيبة تشمل كل تلك الأقوال، فقال: «الصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله، كما جاء في الحديث أن رسول الله - ﷺ - قال: «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافًا، وقنعه الله بما آتاه»، «قد أفلح من هدي للإسلام، وكان عيشه كفافًا، وقنع به»».

(163) الكَفافُ: الكِفايةُ بلا زيادةٍ ولا نقصٍ.
يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (7/145).

(164) رواه مسلم (1054).

(165) أخرجه ابن ماجه (2141) واللفظ له، وأحمد (23158).

وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.

أي: ولنجزينَّ الذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ- في الآخرةِ- ثوابَ إيمانِهم وأعمالِهم على أحسَنِ الذي كانوا يعمَلونه في الدُّنيا من الطَّاعاتِ، ونَتَجاوزُ عن سَيِّئاتِهم.

كما قال تعالى: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ [النحل: 30].

وقال عزَّ وجلَّ: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ [العنكبوت: 7].

وقال سُبحانه: لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ [الزمر: 35].

صحح إسناده الحاكم في ((المستدرك)) (2/3)، والبوصيري في ((مصباح الزجاجة)) (2/5) وقال: (رجالُه ثقاتٌ)، والحديث صححه الذهبي في ((التلخيص)) (2/3)، والألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (2141).

سورةُ النَّحلِ

الآيات (98–100)

فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (98) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (99) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ
(100)

تفسير الآيات:

فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (98).

أي: فإذا أردْتَ قِراءةَ القُرآنِ– يا مُحَمَّدُ– فالْتَجِئْ إلى المَعبودِ الحقِّ سُبحانَه، واستَجِرْ به مِنْ كُلِّ جانٍ مُتمَرِّدٍ، مَطرودٍ عن كلِّ خَيرٍ؛ حتى لا يَصرِفَك بوَساوِسِه عن تدبُّرِ القُرآنِ، والانتفاعِ به.(166)

إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (99).

---

(166) اختُلِف هل تكون الاستعاذة قبل القراءة، أو بعدها؟ على قولين.

وذَهَبَ ابنُ عطية (٥/ ٤٠٧)، وابنُ كثير (٨/ ٣٥٣)، وابنُ القيم (٢/ ١٢٢) استنادًا إلى النظائر، والسنّة، وأقوال السلف إلى أنّ الاستعاذة تكون قبل القراءة.

قال ابن عطية: «تقدير الآية: فإذا أخذت في قراءة القرآن.

كما قال – عز وجل –: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم﴾ [المائدة: ٦]، وكما تقول لرجل: إذ أكلت فقل: بسم الله».

وقال ابنُ كثير: «الصحيح الأول؛ لما تقدم من الأحاديث الدالة على تقدمها على التلاوة».

وقال ابنُ القيم: «وكأن من قال: إن الاستعاذة بعد القراءة.

لاحظ هذا المعنى [يعني: بقاء فائدة القرآن، وحفظها، وثباتها]، وهو لعمر الله ملحظ جيد، إلا أن السنة وآثار الصحابة إنما جاءت بالاستعادة قبل الشروع في القراءة، وهو قول جمهور الأمة من السلف والخلف».

وقال ابنُ جرير (١٤/ ٣٥٧) مبينًا المعنى: «إذا كنت –يا محمد– قارئًا القرآن؛ فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم».

واختُلِف في حكم الاستعاذة أواجبة هي، أو مندوبة؟ على قولين.

وذَهَبَ ابنُ جرير، وابنُ عطية، وابنُ كثير استنادًا إلى الإجماع، وأقوال السلف إلى أنّ الاستعاذة ليست واجبة.

قال ابنُ جرير (١٤/ ٣٥٧): «ليس قوله: ﴿فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾ بالأمر اللازم، وإنما هو إعلام وندب، وذلك أنه لا خلاف بين الجميع أن من قرأ القرآن ولم يستعذ بالله من الشيطان الرجيم قبل قراءته أو بعدها أنه لم يضيع فرضًا واجبًا.

وكان ابن زيد يقول في ذلك نحو الذي قلنا».

وقال ابنُ عطية (٥/ ٤٠٧): «الاستعاذة ندب عند الجميع».

وقال ابنُ كثير (٨/ ٣٥٣): «وهذا أمر ندب ليس بواجب، حكى الإجماع على ذلك أبو جعفر ابن جرير، وغيره من الأئمة».

أي: إنَّ الشَّيطانَ ليس له طَريقٌ يتسَلَّطُ بها على المُؤمِنينَ المُعتَمِدينَ على رَبِّهم وَحْدَه، الذينَ استعاذُوا برَبِّهم مِن الشَّيطانِ الرَّجيمِ، فلا قُدرةَ له عليهم، ولا حُجَّةَ له فيما يَدعوهم.

كما قال تعالى: إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا [الإسراء: 65].

إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (100).

أي: إنَّما تَسَلُّطُ الشَّيطانِ واقِعٌ على الذينَ يتَّخِذونَه وَلِيًّا لهم مِن دُونِ الله تعالى، فيَتَّبِعونَه ويُطيعونَه فيما يأمُرُهم به، وعلى الذين يُشرِكونَ باللهِ تعالى.(167)

(167) اختُلِف في تأويل قوله تعالى: ﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا﴾ على أربعة أقوال: الأول: أنه ليس له قدرة على أن يحملهم على ذنب لا يغفر.

والثاني: أنه ليس له حجة على ما يدعوهم إليه من المعاصي.

والثالث: أنه ليس له عليهم سلطان؛ لاستعاذتهم بالله منه.

والرابع: أنه ليس له عليهم سلطان بحال؛ لأن الله تعالى صرف سلطانه عنهم.

ورجَّحَ ابنُ جرير (١٤/ ٣٦٠) القولَ الثالثَ استنادًا إلى السياق، والنظائر، وقال مُعَلِّلًا اختياره: «إنما قلنا ذلك أولى التأويلات بالآية لأن الله –تعالى ذكره– أتبع هذا القولَ: ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾، وقال في موضع آخر: ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله، إنه سميع عليم﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، فكان بيِّنًا بذلك أنه إنما ندب عباده إلى الاستعاذة منه في هذه الأحوال؛ ليعيذهم من سلطانه».

والظاهر من كلام ابن عطية (٥/ ٤٠٧) أنه اختار الأول، واستدرك على الثاني استنادًا إلى القرآن، حيث قال: «أخبر الله تعالى أن إبليس ليس له ملكة ولا رياسة، هذا ظاهر» السلطان «عندي في هذه الآية، وذلك أن» السلطان «إن جعلناه» الحجة «فليس له حجة في الدنيا على أحد لا مؤمن ولا كافر، اللهم إلا أن يتأوَّلَ متأوِّل: ليس له سلطان يوم القيامة.

فيستقيم أن يكون بمعنى الحجة؛ لأن إبليس له حجة على الكافرين أنه دعاهم بغير دليل فاستجابوا له مِن قِبَل أنفسهم، وهؤلاء الذين لا سلطان ولا رياسة لإبليس عليهم هم المؤمنون أجمعون؛ لأن الله لم يجعل سلطانه إلا على المشركين الذين يتولونه، والسلطان منفي هاهنا في الإشراك؛ إذ له عليهم ملكة ما في المعاصي، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ [الحجر: ٤٢]، وهم الذين قال إبليس فيهم: ﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾ [الحجر: ٤٠]».

غير أنه ذكر له وجْهًا يمكن أن يحمل عليه، فقال: «اللهم إلا أن يتأوَّلَ متأوِّل: ليس له سلطان يوم القيامة.

فيستقيم أن يكون بمعنى الحجة؛ لأن إبليس له حجة على الكافرين أنه دعاهم بغير دليل فاستجابوا له مِن قِبَل أنفسهم».

ورَجَّحَ ابنُ القيم (٢/ ١٢٦) القول الرابع استنادًا إلى القرآن، فقال: «الصواب: أن يقال: ليس له طريق يتسلط به عليهم، لا من جهة الحجة، ولا من جهة القدرة.

والقدرة داخلة في مسمى السلطان، وإنما سميت الحجة: سلطانًا؛ لأن صاحبها يتسلط بها تسلط صاحب القدرة بيده، وقد أخبر سبحانه أنه لا سلطان لعدوه على عباده المخلصين المتوكلين، فقال في سورة الحجر [٣٩ – ٤٢]: ﴿قالَ رَبِّ بما أغْوَيْتَنِي لأزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأرْضِ ولأغْوِيَنَّهُمْ أجْمَعِينَ إلا عِبادَكَ مِنهُمُ المُخْلَصِينَ قالَ هذا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إلا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغاوِينَ﴾، وقال في سورة النحل: ﴿إنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلى الَّذِينَ آمَنُوا وعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إنَّما سُلْطانُهُ عَلى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ والَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾، فتضمن ذلك أمرين: أحدهما: نفي سلطانه، وإبطاله على أهل التوحيد والإخلاص.

والثاني: إثبات سلطانه على أهل الشرك، وعلى مَن تولاه».

اختُلِف في تأويل قوله تعالى: ﴿والذين هم به مشركون﴾ على ثلاثة أقوال: الأول: والذين هم بالله مشركون.

وهو قول مجاهد، والضحاك.

والثاني: مشركو الشيطان في أعمالهم.

وهو قول الربيع.

والثالث: والذين هم لأجل الشيطان وبسببه مشركون.

ورَجَّحَ ابنُ جرير (١٤/ ٣٦١ – ٣٦٢) القولَ الأولَ استنادًا إلى القرآن، وقال مُعَلِّلًا اختياره، ومسْتَدْرِكًا على القول الثاني: «ذلك أن الذين يتولون الشيطان إنما يشركونه بالله في عبادتهم، وذبائحهم، ومطاعمهم، ومشاربهم، لا أنهم يشركون بالشيطان، ولو كان معنى الكلام ما قاله الربيع لكان التنزيل: الذين هم مشركوه.

ولم يكن في الكلام ﴿به﴾، فكان يكون لو كان التنزيل كذلك: والذين هم مشركوه في أعمالهم، إلا أن يوجِّه مُوَجِّه معنى الكلام إلى أن القوم كانوا يدينون بألوهة الشيطان، ويشركون الله به في عبادتهم إياه، فيصِحُّ حينئذ معنى الكلام، ويخرج عما جاء التنزيل به في سائر القرآن، وذلك أن الله تعالى وصف المشركين في سائر سور القرآن أنهم أشركوا بالله ما لم ينزل به عليهم سلطانًا، وقال في كل موضع تقدم إليهم بالزجر عن ذلك: لا تشركوا بالله شيئًا، ولم نجد في شيء من التنزيل: لا تشركوا الله بشيء، ولا في شيء من القرآن خبرًا من الله عنهم أنهم أشركوا الله بشيء، فيجوز لنا توجيه معنى قوله: ﴿والذين هم به مشركون﴾ إلى: والذين هم بالشيطان مشركو الله، فبين إذًا –إذ كان ذلك كذلك– أن الهاء في قوله: ﴿والذين هم به﴾ عائدة على» الرب «في قوله: ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾».

وذَهَبَ ابنُ عطية (٥/ ٤٠٧) إلى القول الثالث مستندًا إلى اللغة، حيث قال عن الضمير في ﴿به﴾: «الظاهر أنه يعود على اسم إبليس، بمعنى من أجله وبسببه، كما تقول لمعلمك: أنا عالم بك.

أي: بسببك، فكأنه قال: والذين هم بسببه مشركون بالله».

سورةُ النَّحلِ

الآيات (101-103)

وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
(101) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى
لِلْمُسْلِمِينَ (102) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ
أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (103)

غريب الكلمات:

رُوحُ الْقُدُسِ: أي: جبريلُ عليه السلام، سِمِّي بذلك؛ لأنَّه يأتي بما فيه حياةُ القلوبِ، وأصل القُدس الطَّهارةُ، حيثُ إنَّه ينزِلُ بالقُدسِ، أي: بما يُطهِّرُ به نفوسَنا؛ مِن القرآنِ والحِكمةِ. أو المرادُ: الروحُ المقدَّسُ، أي: المطهَّرُ.

يُلْحِدُونَ: أي: يَمِيلونَ إليه، ويَزعُمونَ أنَّه يُعَلِّمُك، وأصلُ (لحد): يدُلُّ على مَيلٍ عن استقامةٍ.

تفسير الآيات:

وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ

.(101)

وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ.

أي: وإذا نَسَخْنا آيةً مِن القُرآنِ بآيةٍ أُخرى سواها، خيرٍ منها أو مثلِها– واللهُ أعلَمُ بما يُنَزِّلُ في كتابِه، ويَنسَخُه بما يَصلُحُ لِعباده– قال المُشرِكونَ: إنَّما أنت– يا مُحمَّدُ– كاذِبٌ تختَلِقُ على اللهِ الباطِلَ!

كما قال تعالى: مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [البقرة: 106].

بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ.

أي: ليس الأمرُ كما قال هؤلاء المُشرِكونَ، ولكِنَّ حقيقةَ الأمرِ هي أنَّ أكثَرَهم لا يَعلَمون حَقيقةَ القُرآنِ وصِحَّتَه، وأنَّه حَقٌّ مِن عندِ اللهِ: ناسِخُه ومَنسوخُه، وأنَّ ما فيه مِن نَسخٍ هو لِحِكَمٍ إلهيَّةٍ بالغةٍ، كمُراعاةِ مَصلحةِ عِبادِه، وإذا كانوا جُهَّالًا لا يَعلَمونَ ذلك، فقدْحُهم وذَمُّهم لا عِبرةَ به.

ثُمَّ بَيَّن سبحانَه لهؤلاءِ المعترضينَ على حِكمةِ النَّسخِ، الزَّاعمينَ أنَّ ذلك لم يَكُنْ مِنْ عندِ اللَّه، وأنَّ رسولَه – ﷺ – افْتَراه، فقالَ:

قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ

(102).

قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا.

أي: قُل– يا مُحمَّدُ– لهؤلاءِ المُشرِكينَ: ليس هذا القُرآنُ مُفترًى مِن عندي، وإنَّما نزَّله عليَّ–ناسِخَه ومَنسوخَه– جبريلُ المُطهَّرُ مِن كُلِّ خيانةٍ وهَوًى، وعَيبٍ وآفةٍ، نزَّله مِن عندِ رَبِّي سُبحانَه مُشتَمِلًا على الحَقِّ؛ بالصِّدقِ في الأخبارِ، والعَدلِ في الأحكامِ، بلا خطأٍ فيه ولا تَحريفٍ؛ لِيُثبِّتَ المُؤمنينَ على الحَقِّ، ويُقَوِّيَ إيمانَهم.(168)

وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ.

أي: وَهُدًى مِن الضَّلالةِ، وبُشرى بالخَيرِ للَّذينَ استَسْلَموا لأمرِ اللهِ تعالى، وخَضَعوا له وانقادوا إلى ما أنزَلَه، فأقَرُّوا بذلك وصدَّقوا به قَولًا وعَملًا.

(168) قال ابنُ عطية (٥/ ٤٠٨): «وقوله: ﴿بالحق﴾ أي: مع الحق في أوامره ونواهيه وأحكامه ومصالحه وأخباره.
ويحتمل أن يكون قوله بالحق بمعنى: حقًّا.
ويحتمل أن يريد بالحق: في أن ينزل، أي: أنه واجب لمعنى المصلحة أن ينزل.
وعلى هذا الاحتمال اعتراضات عند أصحاب الكلام على أصول الدين».

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (103).

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ.

أي: ونحنُ نَعلَمُ أنَّ مُشرِكي مكَّةَ يَقولونَ: إنَّما يُعَلِّمُ مُحمَّدًا هذا القُرآنَ إنسانٌ مِن بني آدَمَ، وليس هو مِن عندِ الله كما يقولُ.

لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ.

أي: يقولُ الله تعالى تكذيبًا لهم وردًّا على فِريَتِهم: لغةُ الرَّجُلِ الذي يُشيرُ إليه مُشرِكو قُرَيشٍ ويُضيفونَ إليه- ميلًا وانحِرافًا عن الحَقِّ- أنَّه يُعلِّمُ مُحمَّدًا القُرآنَ؛ لُغةٌ أعجميَّةٌ ليسَت بعربيَّةٍ، ولَيسَت بالتي تُبيِّنُ المعانيَ، وتُفصِحُ عن المرادِ بأوضَحِ بيانٍ، وهذا القُرآنُ قد نزَلَ بلُغةٍ عَربيَّةٍ ذاتِ فَصاحةٍ وبيانٍ واضحٍ عظيمٍ، فكيف يَزعُمونَ أنَّ مُحمَّدًا تلقَّى القرآنَ مِن أعجَميٍّ؟!

سورةُ النَّحلِ

الآيات (104-111)

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (104) إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (105) مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (106) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (107) أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (108) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (109) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (110) يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (111)

غريب الكلمات:

طَبَعَ: أي: ختَم، والطَّبعُ: تصويرُ الشَّيءِ بصورةٍ ما، وهو مَثَلٌ على نهايةٍ ينتهي إليها الشَّيءُ، حتَّى يُختمَ عندَها.

تفسير الآيات:

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (104).

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ.

أي: إنَّ الذينَ لا يُؤمِنونَ بحُجَجِ اللهِ وأدِلَّته، وما أنزَله على رسولِه، لا يُوَفِّقُهم اللهُ للإيمانِ واتِّباعِ الحَقِّ؛ عُقوبةً لهم على رَدِّهم الهُدى.

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

أي: ولهم في الآخرةِ عَذابٌ مُوجِعٌ.

إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (105).

إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ.

أي: إنَّما يَختَلِقُ الكَذِبَ على اللهِ الذينَ لا يُؤمِنونَ بآيَاتِ اللَّهِ.

وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ.

أي: والذينَ لا يُؤمِنونَ بآياتِ اللهِ، هم المُعتادونَ للكَذِبِ، وهو مُنحَصِرٌ فيهم.

مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ **(106)**.

أي: مَن كفَرَ باللهِ بعد أنْ كان مُؤمِنًا مُهتديًا، فعَلَيهم غَضَبٌ مِن اللهِ، إلَّا مَن أُكرِهَ على الكُفرِ، والحالُ أنَّ قَلْبَه مُوقِنٌ بحَقيقةِ الإيمانِ، لم يتغيَّرِ اعتقادُه الصَّحيحُ، ولكِنْ مَن اتَّسَعَ صَدرُه لِقَبولِ الكُفرِ واعتَقَده، واختارَه على الإيمانِ، وطابَت به نَفسُه، واطمأنَّت إليه؛ فعَلَيهم غَضَبٌ شديدٌ مِن اللهِ، ولهم عذابٌ عظيمٌ في الآخرةِ.(169)

عن مُحمَّدِ بنِ عَمَّارِ بنِ ياسرٍ، عن أبيه رضي الله عنه، قال: ((أخذَ المُشرِكونَ عَمَّارَ بنَ ياسرٍ، فلم يَتركوه حتى سَبَّ النبيَّ - ﷺ -، وذكَرَ آلهتَهم بخَيرٍ، ثمَّ تَركوه، فلمَّا أتَى رَسولَ اللهِ - ﷺ - قال: ما وراءَك؟ قال: شَرٌّ يا رسولَ اللهِ؛ ما تُرِكْتُ حتى نِلتُ منك، وذكَرْتُ آلهتَهم بخيرٍ، قال: كيف تَجِدُ قَلْبَك؟ قال: مُطمَئِنًّا بالإيمانِ، قال: إنْ عادوا فعُدْ)).(170)

---

(169) قال ابنُ كثير (٨/ ٣٥٨ - ٣٦٠ بتصرّف): «اتفق العلماء على أنّ المكره على الكفر يجوز له أن يوالي إبقاء لمهجته، ويجوز له أن يستقتل كما كان بلال - رضي الله عنهما - يأبى عليهم ذلك وهم يفعلون به الأفاعيل، والأفضل والأولى أن يثبت المسلم على دينه، ولو أفضى إلى قتله».

(170) أخرجه الحاكم (3362)، وأبو نُعيم في ((حلية الأولياء)) (140/1)، والبيهقي (17350).
صحَّحه الحاكمُ على شرط البخاري ومسلم، وصحَّح إسنادَه ابنُ كثير في ((إرشاد الفقيه)) (295/2) وقال: (وزاد بعضُهم: وفي هذا أُنزِلَت: مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ... الآيةَ)، وقال ابنُ حجر في ((الدراية)) (197/2): (إسنادُه صحيحٌ إن كان مُحمَّدُ بنُ عمَّارٍ سَمِعَه من أبيه).

ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (107).

ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ.

أي: ذلك الغضبُ مِن اللهِ والعذابُ الأُخرويُّ العَظيمُ بسَبَبِ أنَّ الذين كفَروا بعدَ إيمانِهم اختارُوا نعيمَ الحياةِ الدُّنيا على نَعيمِ الآخرةِ، فارتَدُّوا على أدبارِهم؛ طَمَعًا في شَيءٍ مِن زَهرةِ الدُّنيا الفانيةِ.

وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ.

أي: ولأنَّ اللهَ لا يُوفِّقُ القَومَ الكافرينَ بآياتِه، المُصرّينَ على كُفرِهم، للهدايةِ واتّباعِ الحقّ.

أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (108).

أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ.

أي: أولئك الذين كَفروا بعدَ إيمانِهم، هم الذينَ ختَمَ اللهُ على قُلوبِهم، فلا يَعقِلونَ بها الحَقَّ، وأصَمَّ أسماعَهم، فلا يَسمَعونَ الهُدى، وأعمَى أبصارَهم، فلا يَنظُرونَ آياتِ اللهِ، ولا يَعتَبِرونَ بها.

وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ.

أي: وأولئك هم السَّاهونَ عمَّا خَلَقَهم اللهُ لأجْلِه، وعمَّا أعدَّ لهم في الآخرةِ مِن العَذابِ.

لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآَخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (109).

أي: حقًّا أنَّ الذينَ كَفَروا بعدَ إيمانِهم هم الهالِكونَ المَغبونونَ الذين خَسِروا أنفُسَهم وأهليهم يومَ القيامةِ، وفاتَهم نَعيمُ الجَنَّةِ، ولم يَسْلَموا من عذابِ النَّارِ.

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (110).

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا.

أي: ثُمَّ إنَّ ربَّك- يا مُحمَّدُ- للَّذين هاجَروا مِن أصحابِك مِن ديارِ الكُفرِ إلى دِيارِ الإسلامِ، مِن بَعدِ ما فتَنَهم كُفَّارُ مكَّةَ عن دينِهم بإكراهِهم على الكُفرِ، فأظهَرُوه لهم مع إخفاءِ اعتِقادِهم الصَّحيحِ، ثمَّ جاهَدوا الكُفَّارَ وقاوَموهم؛ كي لا يَرُدُّوهم إلى الكُفرِ، وصَبَروا على تحمُّلِ المَشاقّ.[171]

---

(171) قال ابن تيمية: (نزَلَت هذه الآيةُ في طائفةٍ مِن الصَّحابةِ كان المُشرِكونَ فَتَنوهم عن دينِهم، ثمَّ تاب اللهُ عليهم فهاجروا إلى اللهِ ورَسولِه، وجاهدوا وصَبَروا).

((مجموع الفتاوى)) (303/10).

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1- قِراءةُ فَتَنُوا بفَتحِ الفاءِ والتاءِ مَبنيًّا للفاعِلِ، أي: فَتَنُوا أنفُسَهم، قيل المعنى: أنَّهم هَجَروا أوطانَهم وقد عَرَفوا ما في ذلك مِن الشِّدَّة. وقيل: المعنى: أنَّهم فَتَنوا مَن آمَنَ باللهِ حين كانوا كُفَّارًا. وقيل غير ذلك.[172]

2- قِراءةُ فُتِنُوا بضَمِّ الفاءِ وكَسرِ التاءِ مبنيًّا للمَفعولِ، أي: مِن بَعدِ ما فتَنَهم الكُفَّارُ بالإكراهِ على التَّلَفُّظِ بالكُفرِ، وقُلوبُهم مُطمَئِنَّةٌ بالإيمانِ. وقيل المعنى: مِن بعدِ ما فتَنَهم اللهُ.[173]

إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ.

أي: إنَّ ربَّك للذين هاجروا من بعد ما فتنهم الكفارُ حتى أظْهَروا الكفرَ، وقلوبُهم مطمئنَّةٌ بالإيمانِ؛ لَغفورٌ لهم، يَستُرُ ذُنوبَهم، ويتَجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها، رَحيمٌ بهم رَحمةً تَصلُحُ بها أمورُ دينِهم ودُنياهم.

يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (111).

---

(172) قرأ بها ابن عامر.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (305/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: 213)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 395)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (292/7)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (261/11).

(173) قرأ بها الباقون.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (305/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: 213)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 395)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (292/7).

يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا.

أي: يومَ تأتي كُلُّ نَفسٍ[174] تُخاصِمُ عن نَفسِها؛ فلا يُحاجِجُ عنها غَيرُها، ولا تُحاجِجُ هي عن غَيرِها، فتُدافِعُ بقَولِها عمَّا عَمِلَت في الدُّنيا مِن خيرٍ أو شَرٍّ.

وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ.

أي: وتُوفَّى كُلُّ نَفسٍ جَزاءَ ما عَمِلَت في الدُّنيا مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، وهم لا يُظلَمونَ بزيادةٍ في سَيِّئاتِهم، ولا بنَقصِ شَيءٍ مِن حَسَناتِهم.

---

(174) قال ابن عطية: (ظاهِرُ الآية أنَّ كُلَّ نفسٍ تجادِلُ كانت مؤمنةً أو كافرة، فإذا جادل الكفَّارُ بكَذِبِهم وجَحْدِهم للكفرِ، شَهِدَت عليهم الجوارحُ والرسُلُ وغير ذلك بحسَبِ الطوائف، فحينئذ لا ينطِقون، ولا يؤذَنُ لهم فيعتَذِرونَ).
((تفسير ابن عطية)) (426/3).

سورةُ النَّحلِ

الآيات (112–119)

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (112) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (113) فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (114) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (115) وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (116) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (117)

وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (118) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (119)

غريب الكلمات:

رَغَدًا: واسعًا طَيِّبًا كثيرًا، وأصلُ (رغد): يدلُّ على أطيَبِ العَيشِ.

أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ: أي: ذُبِحَ لغَيرِ اللهِ، ورُفِعَ فيه الصَّوتُ عند ذبحِه بتَسميةِ غَيرِ اللهِ، وأصلُ الإهلالِ: يدلُّ على رَفعِ الصَّوتِ.

اضْطُرَّ: أي: أُلْجِئَ، وأُحوِجَ، أو أُكرِه، والاضْطِرارُ: يُطلَقُ على حَمْلِ الإنسانِ على ما يَضُرُّه وما يكرهُه، وأصلُ الاضطرارِ: فِعلُ ما لا يَتهيَّأُ له الامتناعُ منه.

بَاغٍ: أي: طالِبٍ له، راغِبٍ فيه لِذاتِه، وأصلُ (بغي): يَدُلُّ على قَصْدِ الفَسادِ.

عَادٍ: أي: مُتَجاوِزٍ قَدْرَ الضَّرورةِ، وأصلُ (عدو): يدُلُّ على التَّجاوُزِ.

هَادُوا: أي: دخَلوا في دينِ اليَهوديَّةِ؛ مِن قولِهم: هُدْنَا إِلَيْكَ [الأعراف: 156]، وكان اسمَ مَدْحٍ، ثمَّ صار بعد نَسخِ شَريعتِهم لازِمًا لهم، وإن لم يكُنْ فيه معنى المَدحِ، وأصلُ (هود): يدُلُّ على الرُّجوعِ برِفقٍ.

تفسير الآيات:

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (112).

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً.

أي: وجعَلَ اللهُ قَريةً[175] يعيشُ أهلُها في أمنٍ واطمِئنانٍ واستقرارٍ مَثَلًا لكُلِّ مَن أنعَمَ اللهُ عليهم، فأبطَرَتْهم النِّعمةُ وكَفَروا وتوَلَّوا، فأحلَّ اللهُ بهم نِقَمَه.

كما قال تعالى عن مكَّةَ: أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ [العنكبوت: 67].

وقال سُبحانَه: لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ [قريش: 1 – 4].

يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ.

أي: يأتي أهلَ تلك القَريةِ أقواتُهم ومَعايشُهم بوَفرةٍ وهَناءٍ وسُهولةٍ، مِن كُلِّ ناحيةٍ.

---

(175) رجّح ابنُ جرير (١٤/ ٣٨٢) مستندًا إلى آثار السلف أن القرية هي مكة، فقال: «ومثَّل الله مثلًا لمكة التي سكانها أهل الشرك بالله هي القرية التي كانت آمنة مطمئنة».

ثم قال: «وبنحو الذي قلنا في أن القرية التي ذكرت في هذا الموضع أريد بها: مكة؛ قال أهل التأويل».

ثم ذكر قول من قال: إنها مدينة النبي – ﷺ –، ولم يعلق عليه.

كما قال تعالى: أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا [القصص: 57].

فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ.

أي: فجحَدَ أهلُ تلك القَريةِ بما أنعمَ اللهُ عليهم، فلم يَشكُروا اللهَ عليها.

كما قال تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ [إبراهيم: 28].

فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ.

أي: فأذاق اللهُ أهلَ تلك القَريةِ الجُوعَ والخَوفَ الذي بان أثَرُه عليهم مِن الهُزالِ وشُحوبةِ اللَّونِ وسُوءِ الحالِ مِمَّا ظهَرَ على أبدانِهم، وذلك بعد أن كانوا في رَغَدٍ مِن العَيشِ والأمْنِ؛ بسبَبِ ما كانوا يَصنَعونَ مِن الكُفرِ وجُحودِ النِّعَمِ، والتَّكذيبِ بالحَقِّ، وارتِكابِ المعاصي.

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((إنَّ قُريشًا لَمَّا غَلَبوا النبيَّ - ﷺ - واستَعصَوا عليه قال: اللهُمَّ أعِنِّي عليهم بسَبْعٍ كسبعِ يوسُفَ، فأخذَتْهم سَنَةٌ[176] أكَلوا فيها العِظامَ والميتةَ مِن الجَهْدِ، حتى جعَلَ أحَدُهم يرى ما بينه وبينَ السَّماءِ كهَيئةِ الدُّخانِ مِن الجُوعِ)).[177]

وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (113).

---

(176) السَّنةُ: القَحْطُ والجَدْبُ.

يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (141/17).

(177) رواه البخاري (4822) واللفظ له، ومسلم (2798).

وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ.

أي: ولقد جاءَ أهلَ تلك القَريةِ رَسولٌ مِن أنفُسِهم، يَعرِفونَه ويَعرِفونَ نَسَبَه؛ لِيَدعُوَهم إلى الحقّ، فكذَّبوه فيما جاءَهم به مِن الوَحيِ.

كما قال تعالى: لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ [التوبة: 128- 129].

فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ.

أي: فأخَذَهم عذابُ الدُّنيا بالجُوعِ والخَوفِ والقَتلِ، والحالُ أنَّهم مُشرِكونَ باللهِ.

فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (114).

فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا.

أي: فكُلوا- أيُّها النَّاسُ- مِمَّا رزَقَكم اللهُ مِن الحَيواناتِ والحُبوبِ والثِّمارِ وغَيرِها، في حالِ كَونِها حلالًا لم يُحَرِّمْها اللهُ، ومِن كَسْبٍ طَيِّبٍ لا إثمَ فيه، مُستلَذَّةً يَطيبُ للنَّاسِ طَعمُها.(178)

(178) قال ابنُ عطية (٥/ ٤٢٠): «والضمير في ﴿جاءَهُمْ﴾ لأهل مكة، والرسول محمد - ﷺ -، والعَذابُ: الجوع، وأمر بدر ونحو ذلك إن كان التمثيل بمكة وكانت الآية مدنية، وإن كانت مكية فهو الجوع فقط، وذكر الطبري أنه القتل ببدر، وهذا يقتضي أن الآية نزلت بالمدينة.

وإن كان التمثيل بمدينة قديمة غير معينة، فيحتمل أن يكون الضمير في ﴿جاءَهُمْ﴾ لأهل تلك المدينة، ويكون هذا مما جرى فيها كمدينة شعيب وغيره.

وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ.

أي: واشكُروا اللهَ – أيُّها النَّاسُ – على نِعَمِه، واصرِفوها في طاعتِه، إن كنتُم تَعبُدونَ اللهَ وَحدَه وتُطيعونَه فيما أمَرَكم به، ونهاكم عنه، ومِن ذلك استِحلالُ ما أحَلَّ اللهُ مِن الرِّزقِ.

كما قال تعالى: يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ [البقرة: 172].

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (115).

ويحتمل أن يكون الضمير المذكور لأهل مكة.
فتأمل».

قال ابنُ جرير (١٤/ ٣٨٧ – ٣٨٨): «قوله تعالى: ﴿فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا، واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون﴾، يقول –تعالى ذكره–: فكلوا –أيها الناس– مما رزقكم الله من بهائم الأنعام التي أحلها لكم حلالًا طيبًا مذكاة غير محرمة عليكم».

ثم ذكر قولًا آخر، فقال: «وكان بعضهم يقول: إنما عنى بقوله: ﴿فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا﴾: طعامًا كان بَعَث به رسول الله – ﷺ – إلى المشركين من قومه في سني الجدب والقحط رقة عليهم، فقال الله تعالى للمشركين: ﴿فكلوا مما رزقكم الله﴾ من هذا الذي بعث به إليكم ﴿حلالًا طيبًا﴾».

وانتقده مستندًا إلى السياق، فقال: «وذلك تأويل بعيد مما يدل عليه ظاهر التنزيل، وذلك أن الله تعالى قد أتبع ذلك بقوله: ﴿إنما حرم عليكم الميتة والدم﴾ الآية والتي بعدها، فبين بذلك أن قوله: ﴿فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا﴾ إعلامٌ من الله عباده أن ما كان المشركون يحرمونه من البحائر والسوائب والوصائل وغير ذلك مما قد بينا قبل فيما مضى لا معنى له؛ إذ كان ذلك من خطوات الشيطان، فإن كل ذلك حلال لم يحرم الله منه شيئًا».

ووافقه ابنُ عطية (٥/ ٤٢٠) بقوله: «وكذلك هو فاسد من غير وجه».

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ.

أي: إنَّما حرَّمَ اللهُ تعالى عليكم المَيْتةَ مِن الحيواناتِ التي ماتَت حَتْفَ أنفِها- دونَ ذَكاةٍ شرعيَّةٍ ولا اصطِيادٍ - والدَّمَ المَسفوحَ، ولَحمَ الخِنزيرِ، وما ذُبِحَ على غَيرِ اسمِ الله عزَّ وجلَّ، كالذي يُذبَحُ للأصنامِ، ويُسمَّى عليه بغيرِ اسمِه سُبحانَه.

كما قال تعالى: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ [المائدة: 3].

وقال سُبحانَه: قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ [الأنعام: 145].

فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

أي: فمَن ألجأتْه الضَّرورةُ إلى الأكلِ مِن تلك المُحرَّماتِ الأربعةِ، وهو غيرُ مُبتَغٍ لِتَناوُلِها مِن غَيرِ ضَرورةٍ، ولا مُريدٍ التلذُّذَ بأكْلِها، وغيرُ مُتَجاوِزٍ قدْرَ الضَّرورةِ، فلا يتناوَلُ منها إلَّا بمِقدارِ ما يَدفَعُ عنه الهَلاكَ؛ فمَن كانت حالُه كذلك فلا حرَجَ عليه ولا إثمَ مِن تناوُلِ تلك المحرَّمات؛ فإنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يَغفِرُ ذُنوبَ عِبادِه، فيَستُرُها، ويتَجاوَزُ عن المُؤاخَذةِ بها، ومِن ذلك تجاوزُه عمَّن أكَل ما حرَّمه الله

مضطرًّا، وهو الرَّحيمُ بعِبادِه، ومِن رَحمتِه أنْ شرَع لهم ذلك؛ تَوسِعةً منه، فأباح أكْلَ ذلك عند الضَّرورة.(179)

كما قال تعالى: إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [البقرة: 173].

وقال سُبحانَه: فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [المائدة: 3].

وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (116).

وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ.

---

(179) قال ابنُ عطية (٥/ ٤٢٢): «وقوله: ﴿فمن اضطر﴾ قالت فرقة: معناه: أكره. وقال الجمهور: معناه: اضطره جوع واحتياج».

ذكر ابنُ عطية (٥/ ٤٢٢) في قوله: ﴿غير باغ ولا عاد﴾ ثلاثة أقوال: الأول: أن الباغي هو صاحب البغي على الإمام، أو في قطع الطريق، وبالجملة في سفر المعاصي، والعادي بمعناه في أنه ينوي المعصية.

الثاني: أن قوله ﴿غير باغ﴾ معناه: غير مستعمل لهذه المحرمات مع وجود غيرها، وقوله: ﴿ولا عاد﴾ أي: لا يعدو حدود الله في هذا.

الثالث: أن معناه: باغٍ وعادٍ في الشبع والتزود.

ورجّح القولَ الثاني لعمومه بقوله: «وهذا القول أرجح وأعم في الرخصة».

أي: لا تحرِّموا وتُحلِّلوا مِن تلقاءِ أنفسكم، كذبًا على اللهِ، مِن غيرِ مُستنَدٍ صَحيحٍ، ولا حُجَّةٍ بَيِّنةٍ، فتقولوا لِما أحَلَّ اللهُ: هو حرامٌ، وتقولوا لِما حرَّمه: هو حَلالٌ؛ كي تختَلِقوا الكَذِبَ على اللهِ سُبحانَه.(180)

كما قال تعالى: وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ [الأنعام: 138– 139].

وقال سُبحانَه: قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ * وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ [يونس: 59–60].

إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ.

---

(180) قال ابنُ عطية (٥/ ٤٢٣): «هذه مخاطبة للكفار الذين حرَّموا البحائر والسوائب، وأحلوا ما في بطون بعض الأنعام وإن كانت ميتة، يدل على ذلك قوله حكاية عنهم: ﴿وإنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكاءُ﴾ [الأنعام: ١٣٩]، والآية تقتضي كل ما كان لهم من تحليل وتحريم، فإنه كله افتراء منهم، ومنه ما فعلوه في الشهور».

[٣٧٦٣] قال ابنُ عطية (٥/ ٤٢٤): «وقوله: ﴿لِتَفْتَرُوا عَلى اللَّهِ الكَذِبَ﴾ إشارة إلى قولهم في فواحشهم التي هذه إحداها: ﴿وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها﴾.

ويحتمل أن يريد: أنّه كان شرعهم؛ لاتباعهم سننًا لا يرضاها الله افتراء عليه؛ لأنّ مَن شرع أمرًا فكأنه قال لأتباعه: هذا هو الحق، وهذا مراد الله».

أي: إنَّ الذين يَتقوَّلونَ على اللهِ الكَذِبَ لا يفوزونَ في الدُّنيا ولا في الآخِرةِ.

مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (117).

أي: للمُفترَينَ على اللهِ الكَذِبَ مَتاعٌ قليلٌ في الدُّنيا، ولهم بعد ذلك عَذابٌ مُؤلِمٌ في الآخِرةِ.

كما قال تعالى: نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ [لقمان: 24].

وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (118).

وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ.

أي: وعلى اليَهودِ حَرَّمْنا ما أوحَيناه إليك- يا مُحمَّدُ- من قبلُ في سُورةِ (الأنعامِ).

كما في قَولِه تعالى: وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ [الأنعام: 146].

وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ.

أي: وما ظَلَمْنا اليَهودَ بتَحريمِ ما حرَّمْنا عليهم مِن الطَّيِّباتِ، ولكِنْ كانوا يَظلِمونَ أنفُسَهم بمَعصيةِ اللهِ سُبحانَه، فاستَحقُّوا عُقوبةَ اللهِ بتَحريمِ الطيِّباتِ عليهم.

كما قال تعالى: فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ [النساء: 160].

وقال سُبحانَه: وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ [الأنعام: 146].

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (119).

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ.

أي: ثُمَّ إنَّ رَبَّك- يا مُحَمَّدُ- للذين اقتَرَفوا ما لا ينبغي فِعلُه مِن الكُفرِ أو المعاصي، عن سَفَهٍ منهم، وإيثارٍ للدُّنيا، وعَمايةٍ عن عَواقِبِ ما اقتَرَفوا.(181)

ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا.

---

(181) قال ابنُ عطية (٥/ ٤٢٥): «وقوله: ﴿ثم إن ربك للذين عملوا السوء﴾ إشارة إلى الكفار الذين افتروا على الله، وفعلوا الأفاعيل المذكورة، فهم إذا تابوا من كفرهم بالإيمان وأصلحوا من أعمال الإسلام غفر الله لهم، وتناولت هذه الآية بعد ذلك كل واقع تحت لفظها مِن كافر وعاصٍ».

قال ابنُ عطية (٥/ ٤٢٥): «والجهالة عندي في هذا الموضع ليست ضد العلم، بل هي تعدي الطور وركوب الرأس، ومنه قول النبي - ﷺ -: «أو أجهل، أو يُجْهَل عَلَيَّ».

وهي التي في قول الشاعر:

ألا لا يجهلن أحد علينا ...

فنجهل فوق جهل الجاهلينا

والجهالة التي هي ضد العلم تصحب هذه الأخرى كثيرًا، ولكن يخرج منها المتعمد، وهو الأكثر، وقلما يوجد في العصاة من لم يتقدم له علم بخطر المعصية التي تُواقع».

أي: ثمَّ رَجَعوا إلى اللهِ، ونَدِموا، وأقلَعوا عن السُّوءِ مِن بعدِ ما عَمِلوه، وأصلَحوا أعمالَهم، فأقبلوا على فِعلِ الطَّاعاتِ.

إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ.

أي: إنَّ ربَّك مِن بَعدِها لَغَفورٌ لِذُنوبِهم، فيَستُرُها عليهم، رحيمٌ بهم، فيَقبَلُ تَوبتَهم منها، ولا يُعاقِبُهم.

سورةُ النَّحلِ

الآيات (120–123)

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ
وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (121) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ
(122) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (123)

غريب الكلمات:

أُمَّةً: أي: إمامَ هُدًى، مُعَلِّمًا للخَيرِ، يُقتَدَى به، وأصلُ (أمم): يدُلُّ على الأصلِ والمَرجِعِ.

قَانِتًا: أي: مُطيعًا خاضِعًا، وأصلُ (قنت): يدُلُّ على الطَّاعةِ.

حَنِيفًا: أي: مقبلًا على اللهِ، معرضًا عما سِواه، أو: مائلًا عن الشركِ والدِّينِ الباطلِ إلى التوحيدِ، والدِّينِ الحقِّ المستقيمِ، أو: مسلمًا مستقيمًا، وأصلُ الحنفِ: الميلُ عن الشيءِ بالإقبالِ على آخرَ، فالحنفُ ميلٌ عن الضلالةِ إلى الاستقامةِ، وأصلُه ميلٌ في إبهامي القدمينِ، كل واحدةٍ على صاحبتِها.

تفسير الآيات:

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120).

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً.

أي: إنَّ إبراهيمَ كان مُعَلِّمًا جامِعًا لِخصالِ الخَيرِ، يُقتدَى به.(182)

كما قال تعالى: وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا [البقرة: 124].

قَانِتًا لِلَّهِ.

أي: مُطيعًا لله، مُلازِمًا لِعبادتِه بإخلاصٍ وخُشوعٍ.

حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

أي: مُقبِلًا على اللهِ، مُعْرِضًا عمَّا سواه، مُستَقيمًا على الإسلامِ، مائلًا عن الشِّركِ إلى التَّوحيدِ، ولم يكُنْ مِمَّن يُشرِكونَ باللهِ شيئًا.

---

(182) ذكر ابنُ عطية (٥/ ٤٢٦) في معنى الأمة قولين: الأول: أنه معلم الناس الخير.
الثاني: يُؤتَم به.
ووجّه معنى الآية على القول الثاني، فقال: «فـ ﴿أُمَّةً﴾ على هذا صفة».
ووجّهه على القول الأول، فقال: «وعلى القول الأول اسم ليس بصفة».

كما قال تعالى: قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ [الأنعام: 78- 79].

وقال سُبحانَه: وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا [مريم: 48].

شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (121).

شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ.

أي: قائِمًا بشُكرِ اللهِ وَحدَه على ما أنعَمَ عليه مِنَ النِّعَمِ الظَّاهِرةِ والباطِنةِ.

اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

أي: اختارَ اللهُ إبراهيمَ لخُلَّته، وجعَلَه مِن صَفوةِ خَلْقِه، وأرْشَدَه ووفَّقَه إلى طريقِ الحَقِّ المُستقيمِ، وهو دينُ الإسلامِ، وعِبادةُ اللهِ وَحْدَه لا شَريكَ له.

كما قال تعالى: وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ [الأنبياء: 51].

وقال سُبحانَه: وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا [النساء: 125].

وقال تعالى: وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ * وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ

وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [الأنعام: 84-88].

وعن جُنْدَبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ - ﷺ - يقولُ: ((إِنّي أبرأُ إلى اللهِ أن يكونَ لي منكم خَليلٌ؛ فإنَّ الله تعالى قد اتَّخذني خليلًا كما اتَّخذ إبراهيمَ خَليلًا)).(183)

وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (122).

وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً.

أي: وآتينا إبراهيمَ في الدُّنيا كُلَّ ما فيه راحةُ العَيشِ، فجمَعْنا له خيرَ الدُّنيا مِن جَميعِ ما يَحتاجُ إليه المُؤمِنُ في إكمالِ حياتِه الطَّيِّبةِ.(184)

كما قال تعالى: فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا [مريم: 49-50].

وقال سُبحانَه: وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا [العنكبوت: 27].

وقال عزَّ وجلَّ: وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ [الصافات: 108- 109].

---

(183) رواه مسلم (532).

(184) وقال ابنُ عطية (٥/ ٤٢٧): «وقوله: ﴿وآتيناه في الدنيا حسنة﴾ الآية، الحسنة لسان الصدق وإمامته لجميع الخلق، هذا قول جميع المفسرين، وذلك أنّ كل أمة متشرعة فهي مُقِرَّة أن إيمانها إيمان إبراهيم، وأنه قدوتها، وأنه كان على الصواب».

وَإِنَّهُ فِي الْآَخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ.

أي: وإنَّ إبراهيمَ في الدَّارِ الآخرةِ يومَ القيامةِ لَمِنَ الصَّالحينَ الذين أنعَمَ اللهُ عليهم، فصَلَحت أمورُهم وأحوالُهم عند اللهِ، وعَلَت مَراتِبُهم، وحَسُنَت مَنزِلتُهم لديه سبحانَه.(185)

ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (123).

أي: ثمَّ أوحَيْنا إليك- يا مُحمَّدُ- وقُلْنا لك: اتَّبِعْ مِلَّةَ إبراهيمَ مُسْتقيمًا على التَّوحيدِ، وما كان إبراهيمُ على دِينِ المُشرِكينَ باللهِ عزَّ وجَلَّ.

كما قال تعالى: وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [البقرة: 135].

---

(185) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (397/14)، ((تفسير ابن عطية)) (431/3)، ((تفسير السعدي)) (ص: 452).

قال القرطبي في قوله تعالى: وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ: («مِنْ» بمعنَى «معَ»، أي: معَ الصَّالحينَ؛ لأنَّه كان في الدُّنيا أيضًا معَ الصَّالحينَ).

((تفسير القرطبي)) (198/10).

قال الشنقيطي: (وقوله: وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ، لا يخفَى أنَّ الصَّلاحَ في الدُّنيا يظهرُ بالأعمالِ الحسنةِ، وسائرِ الطَّاعاتِ، وأنَّه في الآخرةِ يظهرُ بالجزاءِ الحسنِ).

((أضواء البيان)) (158/6).

قال ابنُ عطية (٥/ ٤٢٧): «وقوله: ﴿لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ بمعنى: المنعم عليهم، أي: من الصالحين في أحوالهم ومراتبهم، أو بمعنى: أنه في الآخرة ممن يحكم له بحكم الصالحين في الدنيا، وهذا على أن الآية وصف حاليه في الدارين، ويحتمل أن يكون المعنى: في أعمال الآخرة، فعلى هذا هي وصف حالته في الأعمال الدنيوية والأخروية».

وقال سُبحانَه: مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ [آل عمران: 67–68].

وقال عزَّ وجَلَّ: قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ [الأنعام: 161 – 163].

وعن عبدِ الرَّحمنِ بنِ أَبْزَى رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ – ﷺ – أنَّه قال: ((أصبَحْنا على فِطرةِ الإسلامِ، وعلى كَلِمةِ الإخلاصِ، وعلى دِينِ نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ – ﷺ –، وعلى مِلَّةِ أبينا إبراهيمَ حَنيفًا مُسلِمًا، وما كان مِنَ المُشرِكينَ)).[186]

(186) أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (9831)، وأحمد (15360).
صحح إسناده النووي في ((الأذكار)) (113)، والعراقي في ((تخريج الإحياء)) (432/1)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (119/10): (رجاله رجال الصحيح)، وحسنه ابن حجر في ((نتائج الأفكار)) (401/2)، وقال الشوكاني في ((تحفة الذاكرين)) (116): (رجال إسناده رجال الصحيح)، وصحح إسناده أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (847/1)، وابن باز في ((مجموع الفتاوى)) (32/26)، وصححه الألباني في ((صحيح الجامع)) (4674).

وعن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((قيل لِرَسولِ اللهِ - ﷺ -: أيُّ الأديانِ أحَبُّ إلى اللهِ؟

قال: الحَنيفيَّةُ السَّمْحةُ))[187]

(187) أخرجه البخاري مُعلَّقًا قبل حديث (39) مختصـرًا، وأخرجه موصـولًا في ((الأدب المفرد)) (287)، وأحمد (2107)، والطبراني (227/11) (11572).

قال ابن الملقن في ((شـرح البخاري)) (80/3): (إسـنادُه لا بأسَ به)، وحسَّـن إسـناده ابن حجر في ((فتح الباري)) (94/1)، وصحَّحَ إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (355/3)، والحديث حسنه الألباني في ((صحيح الجامع)) (160).

سورةُ النَّحلِ

الآيات (124–128)

إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (124) ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (125) وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (126) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (127) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (128)

تفسير الآيات:

إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (124).

إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ.

أي: إنَّما فُرِضَ تَعظيمُ يومِ السَّبتِ على اليَهودِ، وتَرْكُ العَمَلِ فيه، والتفَرُّغُ للعبادةِ؛ تَغليظًا عليهم، وعُقوبةً لهم حين اختلَفوا في استِحلالِ يومِ السَّبتِ وتَحريمِه، واعتبارِه أفضَلَ الأيَّامِ، فَضلُّوا عن يومِ الجُمُعةِ، وبَدَّلوا به يومَ السَّبتِ، ولم يكُنْ في شَريعةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ تعظيمُ ذلك اليَومِ.

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّه سَمِعَ رَسولَ اللهِ - ﷺ - يقولُ: ((نحنُ الآخِرونَ السَّابِقونَ يومَ القِيامةِ، بَيْدَ[188] أنَّهم أُوتوا الكِتابَ مِن قَبْلِنا، ثمَّ هذا يَومُهم الذي فُرِضَ عليهم، فاختَلَفوا فيه، فهَدانا اللهُ؛ فالنَّاسُ لنا فيه تَبَعٌ: اليَهودُ غَدًا، والنَّصارى بعدَ غَدٍ)).[189]

وعن أبي هُريرةَ وحُذيفةَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قالا: قال رَسولُ اللهِ - ﷺ -: ((أضَلَّ اللهُ عن الجُمُعةِ مَن كان قَبْلَنا، فكان لليَهودِ يومُ السَّبتِ، وكان للنَّصارى يومُ الأحَدِ، فجاء اللهُ بنا، فهدانا اللهُ لِيَومِ

(188) بَيْدَ: أي: غيرَ.
يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (171/1).
(189) رواه البخاري (876) واللفظ له، ومسلم (855).

الجُمُعةِ، فجعَلَ الجُمعةَ والسَّبتَ والأحدَ، وكذلك هم تبَعٌ لنا يومَ القيامةِ، نحنُ الآخِرونَ مِن أهلِ الدُّنيا، والأوَّلونَ يومَ القيامةِ، المَقضيُّ لهم قَبلَ الخلائِقِ)). (190)

وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ.

أي: وإنَّ ربَّك– يا مُحمَّدُ– لَيَحكُمُ يومَ القيامةِ بينَ أولئك المُختَلِفينَ في الدُّنيا في شأنِ استِحلالِ يومِ السَّبتِ أو تحريمِه، فيُبَيِّنُ لهم المُحِقَّ مِن المُبطِلِ، ويُجازي كلًّا منهم بما يستَحِقُّه مِن ثوابٍ أو عِقابٍ.

كما قال تعالى: وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ [يونس: 93].

ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (125).

ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ.

أي: ادعُ– يا محمدُ– جميعَ الناسِ إلى دينِ ربِّك بما أوحاه اللهُ إليك مِن الكتابِ والسنةِ، وانصحْهم بما في وحْيِ اللهِ إليك مِن العبرِ الجميلةِ، وذكِّرْهم بنعمِ اللهِ تعالى ونقمِه وثوابِه وعقابِه بما يستحسنُه السامعون فترقُّ قلوبُهم، ويلينونَ للحقِّ، فيقبلونَه، ويفعلونَ ما أمَرهم اللهُ به، وينتهونَ عمَّا نهاهم عنه.

(190) رواه مسلم (856).

وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ.

أي: وجادِلْ المُعانِدينَ بالطَّريقةِ التي هي أحسَنُ طُرُقِ المُجادَلةِ؛ مِن الرِّفقِ واللِّينِ، وحُسنِ الخِطابِ، والعَفوِ والصَّفحِ، وغيرِ ذلك ممَّا يكون أدعى للاستجابةِ والقَبولِ.

كما قال تعالى: وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ [العنكبوت: 46].

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ.

أي: إنَّ ربَّك- يا محمَّدُ- هو أعلَمُ بمَن زاغَ عن طَريقِ اللهِ، فلم يتَّبعْ دِينَه، كالذين اختلَفوا في السَّبتِ، وسيُجازِيه على عَمَلِه.

وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ.

أي: وربُّك أعلَمُ بالمُهتَدينَ لِدِينِه، الذينَ اتَّبَعوا الحَقَّ، وسيُجازيهم على أعمالِهم.(191)

كما قال تعالى: إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى [النجم: 30].

وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (126).

---

(191) أورد ابنُ عطية (٥/ ٤٢٩) اختلافًا في هذه الآية، أمحكمة هي أم منسوخة؟ على قولين.
ثم علّق بقوله: «ويظهر لي أن الاقتصار على هذه الحال وأن لا تتعدى مع الكفرة متى احتيج إلى المخاشنة، وهو منسوخ لا محالة، وأما من أمكنت معه هذه الأحوال من الكفار، ويرجى إيمانه بها دون قتال، فهي فيه محكمة إلى يوم القيامة، وأيضًا فهي محكمة في جهة العصاة، فهكذا ينبغي أن يوعظ المسلمون إلى يوم القيامة».

سَبَبُ النُّزولِ:

عن أُبَيِّ بنِ كَعبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا كانَ يومُ أحُدٍ، أُصيبَ منَ الأنصارِ أربعةٌ وسِتُّونَ رجُلًا، ومنَ المُهاجرينَ ستَّةٌ فيهم حَمزةُ، فمَثَّلوا بِهم، فقالتِ الأنصارُ: لَئِنْ أصَبْنا منْهم يومًا مثلَ هذا لَنُرْبِيَنَّ عليهم، قالَ: فلمَّا كانَ يومُ فتحِ مَكَّةَ، فأنزلَ اللَّهُ تعالى: وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ فقالَ رجلٌ: لا قُرَيشَ بعدَ اليومِ، فقالَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليه وسلم: كُفُّوا عنِ القومِ إلَّا أربعَةً)).(192)

وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ.

أي: وإنْ عاقَبْتُم– أيُّها المُؤمِنونَ– مَن اعتَدى عليكم بقَولٍ أو بفِعلٍ؛ فعاقِبوه بِمِثلِ ما ظلَمَكم به، مِن غَيرِ زِيادةٍ.(193)

---

(192) أخرجه الترمذي (3129)، وأحمد (21267).

قال الترمذي: (حسنٌ غريبٌ مِن حديث أُبَيّ)، وقال الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (3129): (حسنٌ صحيحُ الإسنادِ)، وحسَّن إسناده شعيب الأرناؤوط في تحقيق ((مسند أحمد)) (135/5).

قال ابنُ عطية: (أطبق أهلُ التَّفسيرِ أنَّ هذه الآيةَ مَدَنيَّةٌ نزَلَت في شأنِ التَّمثيلِ بحَمزةَ في يوم أحُدٍ). ((تفسير ابن عطية)) (432/3).

(193) اختلف السلف في سبب نزول هذه الآية على قولين: الأول: أنها نزلت في قتلى أحُد حين مثلت بهم قريش.

الثاني: أنها نزلت في كل مظلوم أن يقتص من ظالمه.

وكذا اختلفوا أمنسوخة هي أم محكمة؟ على قولين: الأول: أنها منسوخة.

واختلف قائلو هذا القول فيم نسخها؛ فقيل: نسخت بقوله تعالى: ﴿واصبر وما صبرك إلا بالله﴾.

وقيل: بل نسخ ذلك بقوله في براءة [٥]: ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾.

كما قال تعالى: فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ [البقرة: 194].

وقال سُبحانَه: وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا [الشورى: 40].

وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ.

أي: ولَئِنْ صَبَرْتُم– أيُّها المُؤمِنونَ– عن عُقوبةِ مَن اعتدى عليكم، فعَفَوتُم عنهم؛ فذلك الصَّبرُ خَيرٌ عندَ اللهِ للصَّابِرينَ مِن الانتِقامِ والانتِصارِ.

وقيل: بل عنى الله تعالى بقوله: ﴿واصبر وما صبرك إلا بالله﴾ النبيَّ خاصة دون سائر أصحابه، ثم نسخ هذا وأمره بجهادهم.

الثاني: أنها ثابتة ليست منسوخة، وأنها في كل مظلوم يقتص من ظالمه.

وقد ذكر ابنُ جرير (١٤/ ٤٠٦) الاختلاف الوارد في نزول الآية، والاختلاف الوارد في النسخ فيها، ثم رجَّح عدم النسخ في الآية، وأنها في كل مظلوم؛ لعدم الدليل على النسخ، فقال: «والصواب من القول في ذلك أن يُقال: إنّ الله –تعالى ذِكْرُه– أمر من عوقب من المؤمنين بعقوبة أن يعاقب من عاقبه بمثل الذي عوقب به إن اختار عقوبته، وأعلمه أن الصبر على ترك عقوبته على ما كان منه إليه خير، وعزم على نبيه – ﷺ – أن يصبر، وذلك أن ذلك هو ظاهر التنزيل، والتأويلات التي ذكرناها عمن ذكروها عنه محتملتها الآية كلها، فإذا كان ذلك كذلك، ولم يكن في الآية دلالة على أي ذلك عنى بها من خبر ولا عقل كان الواجب علينا الحكم بها إلى ناطق لا دلالة عليه، وأن يقال: هي آية محكمة أمر الله –تعالى ذِكْرُه– عباده أن لا يتجاوزوا فيما وجب لهم قبل غيرهم مِن حق من مال أو نفس؛ الحق الذي جعله الله لهم إلى غيره، وأنها غير منسوخة، إذ كان لا دلالة على نسخها، وأن للقول بأنها محكمة وجهًا صحيحًا مفهومًا».

ذكر ابنُ عطية (٥/ ٤٣١) اختلاف أهل العلم فيمن ظلمه رجلٌ في أخذ مال، ثم ائتمن الظالم المظلوم على مال؛ تجوز له خيانته في القدر الذي ظلمه؟! وقال: «فقالت فرقة: له ذلك.

منهم ابن سيرين، وإبراهيم النخعي، وسفيان، ومجاهد، واحتجت بهذه الآية، وعموم لفظها.

وقال مالك وفرقة معه: لا يجوز له ذلك».

وعلّق على قول مالك بقوله: «ويتقوى في أمر المال قول مالك؟؛ لأن الخيانة لاحقة في ذلك، وهي رذيلة لا انفكاك عنها، ولا ينبغي للمرء أن يتأسى بغيره في الرذائل، وإنما ينبغي أن يتجنبها لنفسها، وأما الرجل يظلم في المال، ثم يتمكن من الانتصاف دون أن يؤتمن فيشبه أن ذلك له جائز، يرى أنّ الله حكم له كما لو تمكن له بالحكم من الحاكم».

كما قال تعالى: وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ [الشورى: 40–43].

وقال سُبحانَه: إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ [الزمر: 10].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن رَسولِ اللهِ – ﷺ – قال: ((وما زاد اللهُ عَبدًا بعفوٍ إلَّا عِزًّا)).(194)

وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (127).

وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ.

أي: واصبِرْ– يا مُحَمَّدُ– على دَعوةِ قَومِك إلى اللهِ، وتَحَمَّلْ ما يُصيبُك مِن أذاهم، وما يَحصُلُ صَبْرُك إلَّا بإعانةِ اللهِ وتَوفيقِه لك إلى ذلك.

كما قال تعالى: وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ [يونس: 109].

وقال سُبحانَه: وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا [المزمل: 10].

---

(194) رواه مسلم (2588).

وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ.

أي: ولا تَحزَنْ على قَومِك إذا لم يُؤمنوا بما جِئتَهم به، وأعْرَضوا عن دَعْوتِك.[195]

كما قال تعالى: فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا [الكهف: 6].

وقال سُبحانَه: فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ [فاطر: 8].

وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ.

أي: ولا يَضِقْ صَدْرُك فتَغْتَمَّ بسَبَبِ مَكرِ قَومِك بك، وتَكذيبِهم وعَداوتِهم لك، واحْتيالِهم بالخُدَعِ للصَّدِّ عما جِئْتَهم به من الحَقِّ؛ فإنَّ اللهَ ناصِرُك عليهم، ومُظهِرٌ دِينَه.

كما قال تعالى: وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ [النمل: 70].

إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (128).

إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا.

أي: إنَّ اللهَ بنَصْرِه وتأييدِه ومَعونَتِه مع الذين اتَّقَوه، فاجتَنَبوا نواهِيَه.

---

(195) ذكر ابنُ عطية (٥/ ٤٣١) في عود الضـــمير من قوله: ﴿عليهم﴾ قولين، فقال: «والضـــمير في قوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ قيل: يعود على الكفار، أي: لا تتأسف على أن لم يسلموا.
وقالت فرقة: بل يعود على القتلى: حمزة وأصحابه الذين حزن عليهم رسول الله – ﷺ –».
ثم رجح مستندًا إلى اللغة القول الأول، فقال: «والأول أصوب؛ إذ يكون عود الضمائر على جهة واحدة».

وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ.

أي: ومع المُحسِنينَ في عبادةِ اللهِ، المُحسِنينَ إلى عِبادِ اللهِ، يُعينُهم ويُؤَيِّدُهم ويَنصُرُهم.

كما قال تعالى: إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ [الأعراف: 56].

وعن عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه في حديثِ جِبريلَ عليه السَّلامُ، قال: ((فأخبِرْني عن الإحسانِ، قال: أن تَعبُدَ اللهَ كأنَّك تراه، فإنْ لم تكُنْ تراه، فإنَّه يراك)).(196)

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ - ﷺ -: ((مَن نفَّسَ عن مُؤمِنٍ كُرْبةً مِن كُرَبِ الدُّنيا، نفَّسَ اللهُ عنه كُرْبةً مِن كُرَبِ يومِ القِيامةِ، ومَن يسَّرَ على مُعسِرٍ يسَّرَ اللهُ عليه في الدُّنيا والآخرةِ، ومَن ستَرَ مُسلِمًا ستَرَه اللهُ في الدُّنيا والآخرةِ، واللهُ في عَونِ العَبدِ ما كان العَبدُ في عَونِ أخيه)).(197)

---

(196) رواه مسلم (8).

(197) رواه مسلم (2699).

تمَّ بحمدِ الله تعالى المجلَّدُ الثالثَ عشرَ

ويَليه المجلَّدُ الرابعَ عشرَ وأوَّله تفسير سورةِ الإسراءِ

الفهرس

" نُسْخَةٌ إِلِكْتِرُونِيَّةٌ، حُقُوقُهَا مَحْفُوظَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ "

المُغني في التَّفسِيرِ

المُحرِّرُ الجَامِعُ لِتفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْن عَبْده

د/ آلَاء رِضَا